الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

354 - 353

اغلق تحرير العدد في 15 تشرين الثاني 2012

السعر : 2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6 أعداد) : 50 دولاراً أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
إيميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
إيميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع أبو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* أن تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.
* يفضل أن تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة، إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد :

مقالات

7- بعض ملامح خريطة العلاقات الطبقية- الاجتماعية بعد 2003.....صالح ياسر
19- المادة 81 من قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 .....مصباح كمال
28- التوسع الرأسمالي وتشويه التشكيلات الاجتماعية الوطنية .....لطفي حاتم
34- التفاعلات الدولية إزاء الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية.....هاشم نعمة
45- ذخائر اليورانيوم المنضب .. مستجدات علمية .....كاظم المقدادي

نصوص قديمة

62- وثائق تاريخية حول تفاصيل المفاوضات التي جرت بين الحكومة العراقية والشركات النفطية الاحتكارية في عام 1961

طاولة مستديرة

84- الإسكان في العراق.. الواقع والتحديات

نصوص مترجمة

102- مجتمع ما بعد النمو- بقلم: تيم جاكسون .....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

114- حوارمع الشاعر والمثقف العراقي .. ياسين طه حافظ.....حاوره : سعدون هليل

ادب وفن

128- إيريك هوبسباوم.. المؤرخُ الجليل والمفكرُ الماركسي الكبير.. وداعاً!..... الثقافة الجديدة
131- قاسم مطرود... وداعا !..... الثقافة الجديدة

دراسة نقدية

132- المونولوج الداخلي في رواية "سوق مريدي"لقاسم حول..... نجاة تميم

مقالات

144- ترجمة الشعر في التطبيق .....أحمد خالص الشعلان
151- الخاصيّات الثقافية.....غيداء الفيصل

شعر

161- يوميات مدينة/الجزء الثالث.....عبد الستار نورعلي
167- بالأمس.....أوس حسن
169- على جناح بالون.....حسين الصواف

قصص قصيرة

171- صوت الخيزران .. أزهار الخوخ: كواباتا ياسوناري..... ترجمة:هلال حميد
179- الحلم المذبوح..... أمير علي الجشعمي
182- عبور..... سولاف هلال

نص مسرحي

184- بائع الحرية .....عبد الوهاب الفايز

تقارير ثقافية

189- المعماري والفنان هندرتفاسر..... سنان احمد حقي
197- مهرجان الجواهري في دورته التاسعة .....قاسم العزاوي

الغلاف الاول: لوحة للفنانة ايناس غازي
الغلاف الأخير: للفنان سعد شاكر

كلمة العدد

مقدمات "الربيع العربي" ونتائجه

ثمة سجالٌ ساخن لا يهدأ حول مفهوم "الربيع العربي" لدرجة أن البعض بدأ يتحدث عن "الخريف العربي" خصوصا بعد فوز قوى الإسلام السياسي في الانتخابات التي جرت في بعض البلدان العربية. غير أن الكثير من الدراسات والأبحاث حول هذه القضية قد لا يساعد على توضيح سجال يشوبه الكثير من الالتباس والغموض، حتى تحول ما حدث في العديد من البلدان العربية منذ أوائل 2011 إلى أسطورة عصيّة على التفكير والفهم، وليس مفهوماً قابلاً للتفكيك والفهم والنقد.

ومن هنا فإن ثمة سؤالاً مهماً يطرح نفسه بحدة علينا: من أين منبع التشوّه الذي ولده مصطلح "الربيع العربي"؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى أن هذا المفهوم، يواجه، على ما يبدو، نفس مصير مفهوم العولمة وما نتج عنه من تشوش.

وبالنسبة لمفهوم العولمة يمكن القول إن هذا التشوش كان قد نبع من التناقض الكامن في ظاهرة العولمة: بين الوعد الإنساني الذي تحمله باعتبارها ظاهرة موضوعية وبين شكل تمظهرها الحالي، العولمة الرأسمالية.

فالعولمة، كظاهرة موضوعية، تستند إلى التقدم الهائل في تقنيات المعلومات والاتصالات وتحول المعرفة العلمية إلى قوة إنتاجية مباشرة، أما أشكال تجليها حاليا والقوى المتحكمة في اتجاهاتها ومسارها فهي تخضع لمنطق الرأسمال والربح، وبالتالي باتت شكلاً جديداً من أشكال السيطرة والهيمنة.

لذلك فإنه عندما يجري الحديث عن ضرورة التصدي للعولمة فإن المقصود بذلك ليس الظاهرة الموضوعية ذاتها، إنما رفض تجليها الراهن أي العولمة الرأسمالية المتوحشة التي تشق طريقها اليوم لصالح حفنة محدودة من الشركات متعدية الجنسية وبعض القوى المسيطرة على قلاع رأس المال ضد مصالح الشعوب.

الشيء نفسه يتعلق بمفهوم "الربيع العربي" إذ يجب التمييز وعدم الخلط بين ما حققه الحراك الاجتماعي والانتفاضات الشعبية العارمة من منجزات تجلت بإسقاط أنظمة وانفتاح الأفق لمرحلة جديدة من النضال، وبين المسار الذي اتخذته في بعض البلدان وصعود قوى لم تكن قد شاركت بفعالية في تلك الانتفاضات، أو شاركت فيها لاحقا.

إن صعود بعض القوى التي كانت على هامش الثورة لا يقلل من أهمية تلك الانتفاضات، فلا بد من أن نرى الأحداث على حقيقتها. الحديث يجري عن ثورة لم تنجز بعد، والثورة بالمعنى العلمي تعني تغيير النظام الاجتماعي، واستبداله بنظام جديد بملامح جديدة. وهذه العملية لم تستكمل بعد فهي في مراحلها الأولى، مرحلة الانتفاضة الثورية السلمية التي هزت العروش وأسقطت رموز ولكنها ما زالت لم تؤسس البديل المطلوب الذي هو موضع التطبيق الفعلي.

وهذا يدفعنا للتأكيد على ضرورة التمييز بين مفهومين أساسيين: مفهوم الانتفاضة ومفهوم الثورة وضرورة الأخذ بهما عند المعالجة المنهجية لهذه القضايا فلا يجوز التلاعب بالمفاهيم خصوصا ونحن لا نستغرق في تأمل نظري بل لا بد من تشخيص المرحلة وطبيعة قواها المحركة وتناسبات القوى السائدة فيها، في مثل هذه اللحظات المتوترة والمفتوحة على مختلف الاحتمالات.

خلاصة القول أنه ومهما كانت مآلات الحراك الاجتماعي والانتفاضات الشعبية التي شهدناها ونشهدها الآن فإن مرحلة جديدة قد بدأت، من سماتها الانتقال من طور الاستبداد إلى طور التحولات الديمقراطية. وهو طور انتقالي واستثنائي يختلف في مدته الزمنية وانعطافاته، صعوداً ونزولاً، من بلد عربي إلى آخر. وببساطة شديدة نحن أمام معركة بدائل مفتوحة بين القوى التي تريد تغيير النظام – الثورة الاجتماعية – وبين تلك التي تريد تغييراً في النظام –الثورة السياسية.

وستشهد الفترة اللاحقة تنافساً بين القوى حول طبيعة ومدى التغيير المطلوب؛ وفيما إذا كان يجب المضي بالتغيير نحو مزيد من التجذير ليشمل لا فقط تغيير القادة والمسؤولين الكبار ومحاسبة الفاسدين وإصلاح النظام، بل ليمتد إلى إحداث تغيير جذري في بنية الحكم وطبيعة النظام القائم. المعركة إذاً ستظل مفتوحة حول طبيعة ومضمون البديل الذي تستحقه شعوب البلدان التي انتفضت. وبالمقابل سنلحظ أيضا محاولات محمومة لاحتواء الحركات الثورية والالتفاف عليها وسرقة منجزها.

لا شك في أن السيرورة فتحت وحُقّق تقدم ملحوظ باتجاه كسر احتكار السلطة لمصلحة تداولها، التي من الصعب بعد اليوم أن تكون من نصيب حزب واحد إلا من خلال صناديق الاقتراع فثمة انتخابات جرت، ومراحل انتقالية هي في طور الاستمرار، دون أن يعني الأمر أنّ النتائج مضمونة، فصناديق الاقتراع لا تختصر الديمقراطية، وتلك الأخيرة لا تعني شيئاً دون تحقيق تطور سياسي/ اقتصادي يحقق مطالب الطبقات الشعبية المفقرة اقتصاديا، والشعب الذي يتطلع إلى المشاركة الفعالة في صناعة القرار.

أين موقع الطبقات الشعبية في الصراع حول أفق الانتفاضات الشعبية؟

لا تزال النظم في البلدان العربية عبارة عن رأسماليات تابعة، لكن علينا أن ننتبه إلى حقيقة أن الطبقات الشعبية لم تثُر ضد التحالف البيروقراطي –الطفيلي – الكومبرادوري من أجل تحقيق تغيير في شكل النظام. وإذا كانت لم تستطع حتى الآن تحقيق التغيير الجذري الذي يحقق مصالحها، فإنها سوف تظل تناضل إلى أن تحقق هذه المصالح. بمعنى آخر أنّ التغيير الذي تحقق لن يقود إلى تسكين هذه الطبقات، بل سيكون "مرحلياً"، وبالتالي فإن المعركة ستظل مفتوحة وستشهد الفترة المقبلة احتدام الصراع الاجتماعي، صراع البدائل.. فمآل الانتفاضات الشعبية ما زال مفتوحا بين بديلين كبيرين: بين بديل يريد تقميط هذه الانتفاضات في أفق النظام الرأسمالي التبعي، بغض النظر عن التجليات التي يتخذها، الذي يعيد إنتاج الاستغلال مع بعض التلطيف للتناقضات الاجتماعية، وبين بديل يتجاوز هذا النظام.

إن ما يجب أن يلمس اليوم هو "روح" الانتفاضات التي بدأت، لا شكل التغيير الآني، لأنّ خروج المارد، أي الطبقات الشعبية، من القمقم قد فتح الأفق لصراع لن ينتهي إلا بتحقيق مطالب هذه الطبقات. المطلوب اليوم في مواجهة التحالف البيروقراطي – الطفيلي – الكومبرادوري الذي سقط والاقتصاد الريعي الذي قام عليه. تغيير النمط الاقتصادي الريعي هذا من أجل تأسيس اقتصاد منتج تكون قاعدته الطبقات المنتجة وليس الطفيلية – الكومبرادورية، فهو وحده الذي يضمن حلاً حقيقياً لمشكلات الطبقات الشعبية التي عانت مرارات الاستقطاب والتهميش والإقصاء من حقلي الإنتاج والاستهلاك في النظم الريعية التي انهارت أو التي ما زالت في طريقها للرحيل.

ولا شك في أنّ هذا النهوض الثوري الذي أفضى إلى اندفاع الطبقات الشعبية المفقرة والمهمّشة إلى خوض الصراع، وإلى انخراط الشباب منهم فيه، ينفتح على أفق جديدة، لكن ذلك يحتاج إلى وقفة من أجل إعادة صياغة الرؤية انطلاقاً من فهم الواقع، وأساساً إعادة صياغة الوعي لدى المنخرطين الجدد في النضال الطبقي/ الاجتماعي وتجلياته الجديدة.

ومن هنا وفي هذا السياق، فإن بناء البديل الديمقراطي، مشروط بقدرة القوى الديمقراطية واليسارية والنخب الثقافية على الالتحام الحقيقي في صفوف الجماهير لمزيد من توعيتها بمصالحها وبمستقبلها وصوب المزيد من وضوح رؤاها وبرامجها في إطار البديل المنشود، مما يمكّن من تحقيق تغيير الأنظمة التابعة وليس إجراء تغيير فيها فقط.

مقـــــالات

بعض ملامح خريطة العلاقات الطبقية الاجتماعية بعد 2003

د. صالح ياسر
باحث اقتصادي

بينت حصيلة السنوات العشرة الأخيرة تفاقم التفاوتات الاجتماعية وتعمق الفرز الطبقي والاجتماعي، إضافة إلى تفاقم مستويات الفقر والتهميش. ولا توجد أية إشارة عند القوى المتنفذة في بلادنا إلى الأسباب الفعلية الكامنة وراء ذلك كله أي ما هي العلاقات الاجتماعية وفي مقدمتها علاقات الملكية وبنية السلطة التي أفرزت هذه الأوضاع وفي مقدمتها الفقر والتهميش الاجتماعي الواسع، بل عادة ما يجري البحث عن أسباب ذلك في "عوامل خارجية" فقط.

لهذا يمكن القول انه ومهما حاولت أيديولوجيا القوى المتنفذة التعتيم على الواقع فإن الفقر والتهميش ليسا سوى النتيجة المنطقية لتحويل الثروة من الفقراء إلى حيتان السلطة وتمركزها، أي انه ليس قدرا محتوما بل نتاج بنية السلطة ومنظومة علاقات الإنتاج السائدة وهيكل الملكية، وأيضا بنية الاقتصاد العراقي وطبيعته الريعية والأحادية الجانب وتفاقم اختلالاته الهيكلية.

ويمكن القول إن "إستراتيجية التخفيف من الفقر" التي روجت لها القوى المتنفذة في العراق لا تستهدف محاربة الفقر بشكل جذري، لأن ذلك يستتبع مطلب تغيير علاقات القوى الاجتماعية بما يعنيه ذلك من أشكال اجتماعية جديدة لتوزيع الثروة والدخل وهذا ما يهدد السيطرة الطبقية للقوى المتحكمة في المجتمع اليوم. ولأن القوى الحاكمة حاليا واعية بخطورة هذا المخرج، فإنها ومن أجل الحفاظ على مصالحها، تعمل على تلطيف التهميش الاجتماعي الواسع. يتركز الدور هنا حول التدخل لتصحيح الاختلالات التي

يفرزها تنظيم المجتمع بقوانين السوق عن طريق **تشريك الفقر والبؤس والتهميش وبالتالي الاستقطاب الاجتماعي** وليس الحد منه. لهذا يمكن القول انه لا يمكن بناء إستراتيجية حقيقية لمكافحة الفقر في ظل تناسب القوى الراهن، أي في ظل السياسات الاقتصادية التي تمارسها القوى المتنفذة بكل

الجدول الآتي الذي لا يحتاج إلى أي تعليق إضافي فأرقامه تفقأ العين.

وتشير الحصيلة الملموسة حاليا لتراكمات آثار الأزمة البنيوية بعلائمها أعلاه وما رافقها من سياسات، إلى أن **نمطا جديدا لتوزيع الثروة والدخل قد بدأ بالتبلور** ولا يحتاج الى كبير عناء للتدليل عليه. وقد **نجم**

مؤشرات الفساد على المستوى العالمي خلال الفترة 2003 - 2008 وموقع العراق فيها

السنوات	عدد الدول المشتركة	تسلسل العراق	علامة مؤشر الفساد الحائز عليها العراق
2003	130	113	2.2
2004	146	129	2.1
2005	194	170	2.2
2006	163	160	1.9
2007	180	178	1.5
2008	180	178	1.3

المصدر: Transparency International (TI), Corruption Perception Index (CPI) www.icgg.org

ملاحظة توضيحية: علامة مؤشر الفساد تتدرج من أعلى درجة وهي عشرة (وتعطى للبلد النزيه جدا) نزولا إلى أدنى درجة وهي الصفر (وتمنح للبلد الفاسد جدا) وتتأرجح بقية البلدان بين هذين الحدين.

تلاوينها.

لقد أسهمت الوقائع أعلاه في **تعميق التفاوتات الدخلية** التي هي نتيجة منطقية لنوعية علاقات الملكية وبنية السلطة، حيث يلاحظ وجود فوارق كبيرة في مستويات الدخل لصالح الفئات التي راكمت الثروة وحصلت على المداخيل العالية عبر أنشطة ريعية لا صلة لها بالإنتاج، فضلاً عن الدخول غير المشروعة المرتبطة بالفساد المالي والإداري، الذي تعاظمت مدياته وتحول إلى "**مؤسسة وطيدة البنيان**" وهو ما يعكسه

عن ذلك ، بالتبعية، **تباينات** شديدة تحدث الآن في مستوى معيشة الطبقات والشرائح الاجتماعية المختلفة طبقا للتغير الذي حدث في مداخيلها وأثّر في مواقعها الاقتصادية. فهذه السياسات **أثّرت** سلبا في دخول ومستويات معيشة الطبقات الكادحة والفئات الوسطى في حين أدت –في المقابل– إلى تحسن واضح في دخول بعض الشرائح.

ولم يكن **عمق** تأثير هذه السياسات **أفقيا** فحسب، أي على مختلف الطبقات الاجتماعية فقط، وإنما امتد للتأثير عليها بشكل **عمودي**،

أي داخل فئات الطبقة الواحدة. فهناك، داخل الطبقة الواحدة، فئات معينة **تضررت** من تلك السياسات، في حين استفادت شرائح محددة، داخل الطبقة نفسها. فالتمايز الاجتماعي الذي نجم عن هذه السياسات، لم يكن قاصرا على التمايز بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وإنما أيضا **داخل** صفوف تلك الطبقات. وتحتاج هذه الملاحظة إلى المزيد من الدراسات العيانية لتكشف العمق الفعلي للتأثير المشار إليه أعلاه.

وتحت تأثير الريوع النفطية العالية، التي تدفقت خلال الفترة التي تلت عام 2003، اختارت "النخبة" الحاكمة الطريق الأسهل: **الاستهلاك**. فقد تحولت قطاعات واسعة منها إلى نخبة ريعية بيروقراطية نهابة.

نحن، إذاً أمام **خريطة جديدة** من علاقات القوى الطبقية والاجتماعية التي جري تشكيلها تحت وقع سياسات إدارة الأزمة من جهة، وكذلك سعي قوات الاحتلال في حينه، بالتعاون مع بعض القوى " الليبرالية "، لدفع العراق سريعا على طريق اقتصاد السوق المنفلت عبر إزالة الضوابط وفتح الاقتصاد العراقي على مصراعيه وتهيئة الأجواء للخصخصة الواسعة.

والخلاصة أن هذه القوى أرادت الانفتاح بلا حدود، وسعت لتقليص نفوذ القطاع الحكومي، والحد من تدخل الدولة وإخراجها من الحقل الاقتصادي، والترويج لاقتصاد السوق باعتباره "الدواء الوحيد" لحل مشكلات الاقتصاد العراقي. أدى التفاعل السريع والواسع مع رأس المال العالمي ومراكزه والقوى المرتبطة بمشروعها محلياً إلى **تأسيس** قطاع تابع، دون أن يتمكن هذا القطاع من تحقيق الأهداف التنموية المتوخاة لإخراج الاقتصاد العراقي من أزمته البنيوية العميقة بسبب لا تكافؤ العلاقة.

إن الملاحظات السابقة تدفعنا الى التساؤل الآتي: **هل هناك تأثيرات للدخول الريعية، والذي تمثله بشكل أساسي الريوع النفطية، على الاقتصاد والطبقات الاجتماعية في العراق بعد 2003؟**

الجواب عن ذلك: نعم. فالفكرة بسيطة: النظام السائد في العادة لا يقيم سيطرته على العنف فقط ولكن أيضاً على توزيع العطايا والمنافع لفئة (أو مجموعة فئات) تصبح هي قاعدته الاجتماعية. ففي فترة النظام السابق لعبت الريوع النفطية هذا الدور ولاحظنا كيف تقلصت قاعدة النظام الاجتماعية بعد الحصار الاقتصادي وبالتالي تقلص الريوع المذكورة، والأمر نفسه يجري خلال الفترة التي تلت عام 2003، فعندما تتعاظم الموارد المتأتية من الريوع النفطية أساسا يربح النظام قواعد يضمن ولاءها بالمال، وبزيادة حصة هذه "القواعد" من الموارد الاجتماعية، تنتشر القوة الاقتصادية بعيداً عن الدولة وتصعب إدارتها بالمنطق الأمني، مما يخلخل من النظام السياسي.

هذا بالإضافة إلى أن تفكك الدولة التي بدأ يتقاسمها "ممثلو" الهويات الفرعية، وما يمور به المجتمع من حراك، كل ذلك يضغط على القوى المتنفذة، التي لا بد وأن تراقب بقلق زحف المهمشين والفقراء، فأصبحت بعض مناطق بغداد مثلاً مجرد جزر منعزلة من الغنى في محيط كبير من الفقر

والحرمان. هنا يكون دور النظام الحاكم هو "حماية مَن يملك ممن لا يملك"!، وبذلك يصبح المالكون أسيري البيروقراطية الحاكمة عندما تهددهم بـ"ثورة الرعاع". في الرأسمالية الحديثة والمعاصرة ثمة أمثلة كثيرة تشير الى الكيفية التي تسيطر فيها شريحة البيروقراطية على البرجوازية بفزاعة ثورة الفقراء والمهمشين والمقصيين من حقول الإنتاج والاستهلاك. وفي الواقع تخفف هذه الفزاعة من توتر العلاقة بين الاثنتين ولكنها لا تحلها، لأن القوى المسيطرة تدرك مدى التردي الذي وصلت إليه البلاد، وهذا التردي ينعكس على أشياء كثيرة منها قدرة الدولة على التواؤم مع مقتضيات النمو الرأسمالي وما يرتبط به من تفاوت في توزيع الثروة والاستقطاب مما أدى ويؤدي إلى تغيير أوزان اللاعبين الاجتماعيين –الاقتصاديين – السياسيين خلال الفترة التي تلت 4/9/ 2003، والذي يحتاج إلى وقفة سريعة.

على خلفية تعاظم الريوع النفطية نتيجة زيادة أسعار النفط الخام في السوق العالمية **تنامت** سمات الطابع الريعي والخدماتي والتوزيعي للاقتصاد العراقي التي وظّفتها "النخبة السياسية" في توسيع شبكة "الزبائنية" الاقتصادية – الاجتماعية – السياسية، وتطوير آليات الاستيعاب والسيطرة. وقد استفادت بعض الطبقات والشرائح الاجتماعية بدرجات متفاوتة من هذه الطبيعة المزدوجة للاقتصاد العراقي: الريعية –الخدماتية. وقد نمت في إطار ذلك فئة بيروقراطية متموضعة في الشرائح البيروقراطية الحكومية والسياسية والعسكرية والأمنية العليا التي تنحدر في الأساس من الفئات الوسطى والفقيرة. إن نقطة تكوين هذه الفئة حدثت جراء "حيازتها" جهاز الدولة، أي أنها "تملك" الدولة من خلال"حيازتها" أجهزتها. وقد آلت إلى هذه الفئة، بفعل عملية نهب المال العام الشديدة، حصة كبيرة من ثمار "النمو الاقتصادي المرتفع جداً" الناجم بالأساس عن تعاظم الريوع النفطية (1). ويعني ذلك، بمصطلحات العلوم الاجتماعية، أن هذه الطبقة قد امتلكت مصدراً اقتصادياً جديداً و"خاصاً" لقوتها يعزّز قدرتها على تطوير الشبكات "الزبائنية".

كما تنامى دور البورجوازية الطفيلية التي باتت تضم شرائح "رجال الأعمال الجدد" الذين عمل بعضهم مقاولين ثانويين للقطاع الحكومي وقبلها مع (مؤسسات إعمار العراق) التي أنشأها الاحتلال، أو في مجال الوساطة في عقود التجارة الخارجية التي كانت "العمولة" تشكل نسبةً كبيرةً من قيمتها الإجمالية. وخلال هذه الفترة نشأ التحالف "غير المرئي" بين "النخبة" البيروقراطية وبين الفئة الطفيلية في إطار ديناميات العلاقة الزبائنية بينهما.

ويمكن القول أن الطبيعة الريعية للاقتصاد العراقي واعتماد الموازنات المالية السنوية بشكل شبه كلي على الريوع النفطية المتأتية من صادرات النفط، كل هذه المعطيات تساهم في تفسير عزوف السلطات الحاكمة عن إجراء الإصلاحات المطلوبة. ويمكن القول إن الدخول الريعية تؤثر سلباً في عملية التحول إلى الديمقراطية، فاعتماد المالية العامة

للدولة على الدخل الريعي أكثر من اعتمادها على الضرائب المستحصلة من المواطنين المكلفين، يضعف أثر مقولة "لا ضرائب من دون تمثيل نيابي للمواطنين" كأحد دوافع التمثيل الديمقراطي. ومن هنا ليس مفارقةً أن تترافق الريعية مع التسلطية، وأن تشكل أساس استقلالها عن المجتمع (2).

بعد 2003 وفي إطار عمليات "الانتقال الديمقراطي" (3) في العراق عندما كان الهاجس الرئيس فيها هو التحول نحو اقتصاد السوق، التي ابتدأتها سلطة الائتلاف المؤقتة الحاكمة (بقيادة الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر) بأخذ زمام المبادرة للقيام بـ "إصلاحات سريعة" في البنية التحتية وفق رؤى اعتقدت أنها تسهل انتقال ما اسماه احد الباحثين (4) رأسمالية الدولة الريعية المركزية إلى اقتصاد السوق الحر على غرار نموذج model أوربا الشرقية في الانتقال إلى اقتصاد السوق، وبسبب عمليات الاصطفاف المشار إليها أعلاه بتكثيف يلاحظ تغيّر أدوار اللاّعبين.

وبعد ما يقارب العشر سنوات على رحيل النظام الدكتاتوري وتدشين "المرحلة الانتقالية"، لم تلد بلادنا اقتصاداً بملامح محددة لعدم وجود رؤية vision واضحة لدى القوى المتنفذة في وقت غابت فيه أنماط من الشراكة بين السوق والدولة لتكتفي البلاد بعلاقة سوق غير مكتمل الانتقال. وهكذا لم يوفر "الاقتصاد الانتقالي" في العراق بعد العام 2003 من أسس الاقتصاد الانتقالي الكلي إلى اقتصاد السوق إلا مسببات الصراع المتمثلة بالتحرر المالي الواسع وخلق سوق مالية توازي تحرر منفلت في التجارة الخارجية، في حين لم تشهد عناصر الاقتصاد الانتقالي الأخرى أي حراك ممكن أن يتكامل مع "التحرر المالي". وهكذا فان "الديمقراطية المالية" الراهنة هي اليوم واحدة من مصادر الصراع وتوليده المستمر عبر إشكالية لم تُحل بين رأسمالية الدولة ورأس المال المالي الأهلي (5).

نتج من عملية إعادة تعريف أدوار اللاعبين الاجتماعيين – الاقتصاديين– السياسيين بنتيجة تطبيق وصفات صندوق النقد الدولي وتدشين المرحلة الانتقالية، أي "التحرير الاقتصادي"، بتوليد نظامٍ جديدٍ، يشكّل "رجال الأعمال الجدد" قاطرته، وتشكل منظومته في احتواء القطاعات الشعبية، وإدماجها في ديناميات المشاركة السياسية والمجتمعية، وأدوات ضبطه السياسي والاجتماعي (6). وبالمقابل فقد وصل برنامج " التحرير الاقتصادي " إلى مفرق طرق مفضيا إلى أزمة بنيوية عميقة بإنتاجه لشروطها.

لقد حكمت هذه الخلفيّة الاجتماعيّة – الاقتصاديّة اندلاع حركات الاحتجاج التي شهدناها خلال عام 2011، وكانت الإجراءات القمعية التي لجأت إليها السلطة لتعكس هشاشة السلطة، لا قوّتها، لأنّ اللجوء إلى القوّة المباشرة من خلال الأجهزة "الصلبة" هو تعويض الهشاشة البنيوية للدولة. تعكس تلك الإجراءات أن الائتلاف الحاكم القائم على نظام المحاصصات الطائفية – القومية بات غير قابل للاستمرار وفق ديناميّاته السّابقة، ووهنت استراتيجيّاته

في الهيمنة، وتقوّضت قواعد عقده الاجتماعي حيث لم يعد قادراً على الحكم بالوسائل القديمة من دون أن يتحوّل إلى قوّة قمع عارية، كما صار المجتمع غير قابل لاستمرار الانصياع له من دون تغيير جوهري في بنياته. ويدلل على ذلك تنامي دور المؤسسات الأمنية والعسكرية في تأمين الهيمنة من خلال الاستخدام الفعلي لهذه المؤسسات أو التهديد الدائم باستخدامها.

ثمة ملاحظة مهمة لا بد من إبرازها هنا ونقصد بذلك التسييس المتعاظم لقطاعات من "البرجوازية الجديدة"، وتحتاج هذه الملاحظة إلى دراسات عيانية وملموسة للبرهنة عليها. ولكن يمكن ملاحظة هذه الاتجاهات بالعين المجردة أيضا! فنظرة سريعة إلى الأحزاب الحاكمة والبرلمان تبيّن أنهما أصبحتا الساحة الأساسية لنشاط "الرأسماليين الجدد" السياسي. ويبدو أن "رجال الأعمال الجدد" هم إحدى الفئات التي تشهد معدلا مرتفعا للتسييس في المجتمع العراقي الآن. ففي الوقت الذي تستمر بعض الفئات الاجتماعية في الانسحاب من السياسة لأسباب مختلفة، يلاحظ في ذات الوقت كيف ينشط "الرأسماليون الجدد" في الالتحاق بالأحزاب المتنفذة، وإنْ بمستويات متفاوتة ترتبط بموقع الحزب المعني بصناعة القرار (بعدا أو اقترابا)، والاستحواذ على مناصب فيها، هذا بالإضافة بالطبع إلى خوض معارك شرسة من أجل انتزاع مقاعد في مجلس النواب. وعملية التسييس هذه لا تقتصر فقط على زيادة أعداد "رجال الأعمال" في مجلس النواب، ولكن على احتلالهم مناصب هامة فيه.

ربما يطرح هنا سؤال قوامه: ما الجديد في إقبال "رجال الأعمال" على الأحزاب الحاكمة؟ ألم يكن الحزب الحاكم دائماً هو الجسر الذي يعبر عليه رجل الأعمال إلى "جنة" العلاقات الحميمة بالسلطة، وبالتالي تحقيق هدفه "الأسمى": تعظيم الربح؟

للإجابة عن الأسئلة أعلاه يمكن القول إن الجديد في الموضوع هو أن بعض "رجال الأعمال الجدد" لا يدخلون الأحزاب المتنفذة اليوم من أجل تحقيق مصالح شخصية فحسب، بل إنهم يريدون التأثير في السياسات العامة لغرض تكييفها لمقتضيات نمو رأسمالية من طراز خاص، **رأسمالية ريعية وطفيلية وفاسدة ونهّابة** في الوقت نفسه.

إن النزعة السياسية المتنامية لـ"الرأسمالية الجديدة" يتم حالياً احتواؤها في مشروع "رسملة" الدولة والمجتمع بشكل تدريجي وبما لا يتعارض مع المصالح الكبرى للبيروقراطية العليا. هذا المشروع يتضمن **تسوية** بين البيروقراطية العليا والرأسمالية على اقتسام النفوذ والثروة.

وبالمقابل، كلما مالت الرأسمالية للتسييس، كلما تطلب منها ذلك الدفع نحو إدماج قطاعات من "الطبقة الوسطى" الحديثة في المجال السياسي. ولكن كيف تستطيع البيروقراطية تحقيق ذلك في ظروفنا الملموسة؟ يتم هذا عبر وسائل عدة منها تنمية "النزعة الإسلامية" لدى شرائح من الطبقة الوسطى الحديثة. غير أنه إذا كانت إضافة "التيار الإسلامي" إلى المعادلة بوسعها أن

تعطل من تحالف الرأسمالية مع "الطبقة الوسطى"، فهي لا تستطيع أن تجهضه تماماً، فالرأسمالية المسيسة والطبقة الوسطى الحديثة تحتاجان لبعضهما البعض. وهناك تيار بدأ يستجيب لمقتضيات قيام حلف رأسمالي/ طبقة وسطى حديثة ببلورة "فكر إسلامي جديد"، يتبنى فكر "الحرية" الاقتصادية جامعا بين "الحداثة" والعمامة بألوانها المتعددة.. فالمصالح الطبقية واحدة وإن اختلفت ألوان العمائم أو اللباس العصري!

هنا ثمة سؤال يطرح نفسه: هل نحن بصدد "أسلمة" الرأسمالية أم "رسملة" للإسلاميين؟ بعبارة أخرى هل علينا البحث عن جذور الظاهرة في آليات نمو الإسلام السياسي، أم في آليات تبلور طبقة تبحث عن إيديولوجيا؟ يبدو أننا أمام ما يمكن تسميته بـ"التوافق الورع"، حيث الاتجاه نحو مجتمع مفتوح بعض الشيء على العالم، مع تركيز على "آليات إسلامية" لإعادة توزيع الثروة. وما يثير الانتباه هنا أن هذا يماثل تماما نمط "مبادرة الإيمان" التي دعا إليها في حينه الرئيس الأمريكي السابق (**جورج دبليو بوش**)، التي كانت تهدف إلى تفويض بعض وظائف الدولة "للوسطاء الدينيين"! إنها مفارقة ظاهرية لكن المفاجأة تزول لأن **الأساس واحد ومشترك** عند الطرفين وهو عداؤهما المفرط للدولة ومحاولات تحويلها إلى مجرد خفير!

لقد أسهمت الروح النيوليبرالية، التي وردت إلى العراق مع "العهد الأميركي"، والتي تعتقد أن (الدولة) هي أصل العلل والشرور، إلى مفارقة جوهرية. فقد أفضى طموحها في الوصول إلى "**ما بعد الدولة**"، وتحجيم دورها، أفضى إلى إطلاق قوى "**ما قبل الدولة**" حيث هيمنت الهويات الفرعية على المشهد السياسي، وأصبحت البلاد ساحة لعمل قوى ما قبل الدولة. لقد كان غياب الدولة أو ضعفها **الفرصةَ المثالية** لأن تستعيد هذه القوى وجودَها وحيويتها.

إلى جانب هذا، كان يبدو عسيرا جدا على دولة ذات اقتصاد ريعي، على غرار العراق، أن تتخلى عن مهماتها، ولا سيما في إحداث تحوّل نحو "اقتصاد حر"، يقلّل من دور الدولة، في حين أن هذه الدولة تستحوذ على الثروة الأساسية للبلاد، وهي النفط. نحن هنا إذاً أمام تناقض بنيوي.

ولذلك، كان يبدو التحول نحو "الاقتصاد الحر" رهانا نظريا لا عمليا، فقد وُضع العراق أمام ظرف إشكالي: لقد كان من ناتج الحروب والحصار والفوضى الاقتصادية أن أصبح العراقُ أمام تركة ثقيلة، تتمثل في بنية تحتية مدمرة ومشاكل اقتصادية كبيرة، جرت الإشارة إليها في مقدمة المقال.

التبدلات في الخريطة الطبقية - الاجتماعية ودلالاتها

إن اللوحة السابقة، بخطوطها العريضة، تستدعي **التساؤل** عن جذور الوضع الراهن. والعودة إلى التاريخ تبدو هنا ضرورية ليس فقط لفهم الحاضر ولكن، وهو الأهم، للتفكير بالمستقبل.

فقد لعب **المتغير النفطي**، وخصوصا خلال "**الطفرة النفطية**" في أوائل سبعينات

القرن العشرين، دورا مهما في **توسيع** حجم وتنوع فئات ومراتب عناصر البرجوازية الصغيرة والفئات الوسطى، من خلال **تحول** أعداد متزايدة من عناصر الطبقة العاملة والأُجراء عموما الى عناصر برجوازية صغيرة "تعمل لحسابها الخاص". وكذلك نتج عن "**إعادة تدوير**" الأموال النفطية "الفائضة" داخل الاقتصاد نمو وتوسيع نشاط عناصر جديدة من الرأسمالية التجارية والسمسارية، التي بدأت تتوسط بين السوق المحلية ومراكز التجارة والمال والصناعة في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

كذلك فإن عملية الحراك الاجتماعي الهامة التي شهدتها المجتمعات العربية ومنها العراق منذ منتصف السبعينات من القرن العشرين تحت تأثير هذا المتغير، وعمليات الهجرة الواسعة للعمالة خلال السبعينات والثمانينات، قد أدت إلى حالة "**سيولة طبقية واجتماعية**" عالية، أدت بدورها إلى "ازدواج حالة التكسب" لدى فئات اجتماعية عديدة لا سيما عناصر الطبقة العاملة وصغار الفلاحين (7).

في هذه المرحلة، جرت **عمليتان تاريخيتان** في وقت واحد، وبسرعة مذهلة، وهما **عملية التراكم البدائي وعملية التراكم الرأسمالي.** وهاتان العمليتان أنتجتا فئات **ريعية، طفيلية، نهابة**، معتمدة على دور الرأسمالية العالمية التي ما زالت تهيمن على القطاع النفطي بهذه الدرجة أو تلك.

ومن جهة أخرى لا بد من تأشير حقيقة قوامها أن **صفوف** هذه "**البرجوازية الجديدة**" اتسعت بضم فئات اجتماعية عديدة إليها، وبخاصة الفئات والقوى الإقطاعية الحاكمة من قبل، والفئات الرأسمالية التجارية والمالية القديمة والبرجوازية النامية داخل الجيش والشرطة والقطاع الحكومي، أي **البرجوازية البيروقراطية**. لقد تدعمت، وان بمستويات متفاوتة، مواقع المؤسسة الأمنية والعسكرية وكبار المسؤولين فيها بفعل السيطرة على مقاليد السلطة والانتفاع بها، واستشراء الفساد والإفساد واستنزاف ثروات البلاد.

وبقدر تعلق الأمر في بلادنا، وليس وحدها طبعا، وبسبب الفورة النفطية في أوائل السبعينات من القرن الماضي، فقد حدث "**تلاحم متين**" بين جناحي البيروقراطية، المدني والعسكري، وكان لذلك تأثير كبير بل وحاسم في اتجاهات التطور التي شهدتها البلاد خلال الفترة التالية، والتي شهدت حربين خلال عقد واحد وما ترتب عليها من خسائر مدمرة.

في ضوء الملاحظات أعلاه **تتميز** هذه "**البرجوازية الجديدة**"، ذات **الطبيعة الريعية**، بأمور عدة من بينها أمران هامان هما:

الأول: إنها لا تحمل روح المشروع الرأسمالي القائم على الإنتاج وتحمّل المخاطر الطويلة الأجل والمشاركة في دفع عملية التراكم الرأسمالي، وقسم كبير منها يتعلق بالملكية العقارية أو بالتجارة الداخلية.

الثاني: إنها مرتبطة برأس المال الأجنبي بل بالاقتصاد الرأسمالي العالمي. إن **النشأة الريعية الطفيلية** لـ "البرجوازية الجديدة"، ذات الأصول القبلية والإقطاعية وشبه الإقطاعية والبيروقراطية، تجعلها ذات **روابط أمامية وخلفية** برأس المال العالمي. ومن ثم

فانه لا يتيح لها عمليا، وفي أفضل الأحوال، سوى **هامش ضيق** للاستقلال الذاتي. وهي، في جميع الأحوال، تفضل أن تؤكد روابطها تلك برأس المال العالمي حتى وان تذرع بعضها بمهاجمة "بلدان الغرب".

إن **التبدل** في الخارطة الطبقية ساهم في **تعديل** ميزان القوى داخل شرائح البرجوازية لصالح الجناح الطفيلي – البيروقراطي والكومبرادوري، في حالات أخرى، و**إعادة رسملة** الطبقات القديمة، هذه الرسملة التي تمت بوسائل متباينة من بلد لآخر. ولكن **المشترك** هنا هو أن هذا التبدل لم يمس فقط وظيفة الدولة الداخلية بل مسّ أيضا خياراتها السياسية الخارجية.

وإضافة لذلك من المفيد الإشارة **إلى** أن مأزق التنمية وما شهده من **إخفاقات** في هذا المجال لا يعزى فقط إلى **العوامل الخارجية**، على خطورتها وآثارها السلبية الكبيرة، بل يتبع كذلك من **مواطن خلل داخلية وقصور كبير في بلورة الاستراتيجيات التنموية** المطلوبة انطلاقا من الحاجات الفعلية للتطور ومراحله الملموسة والآليات المؤسسية الضرورية لتنفيذ الاستراتيجيات تلك. ويمكن الإشارة هنا إلى القضايا الآتية:

– ت**فشي ظاهرة الهدر المالي والاقتصادي واتخاذه أشكالا وصورا كثيرة** منها المبالغة في الإنفاق على مشاريع وفعاليات غير مجدية اقتصاديا.

– **تعاظم العسكرة وتجلى ذلك في الاندفاع المحموم إلى شراء السلاح والمعدات العسكرية** (التسلح)، فضلا عن انتشار الفساد بجميع أنواعه من رشاوى وسرقات وعمولات ومضاربات (8). هذا مع العلم أن النفقات المتعلقة بالأمن في العراق قد تضاعفت تقريبا خلال ست سنوات فقط وبلغ مجموعها 64.14 مليار دولار (9).

– **زيادة حدة التفاوت الاجتماعي بين الطبقات، وسيادة شرائح مختلفة من الكومبرادورية والطفيلية.**

– **وجود فجوة كبيرة في ميدان المعرفة وقصور في ميدان الإنفاق على "البحوث والتطوير" وخطط تنمية الموارد البشرية ونقل التكنولوجيا.** فالإنفاق المحلي الإجمالي على البحث والتطوير لا يزال متدنيا في البلدان العربية ومنها العراق، وذلك منذ حوالي أربعة عقود حيث يتراوح بين 0.1٪ و1٪ من الناتج المحلي الإجمالي.

وارتباطا بالملاحظات أعلاه، علينا ملاحظة نزعة مثيرة للقلق تتمثل بتعاظم الإنفاق على الأمن والدفاع (10). فقد بلغت حصة هذا القطاع 17169315.481 مليون دينار (أكثر من ١٧ تريليون دينار بقليل) من إجمالي نفقات موازنة 2012 والتي بلغت 117094839.278 مليون دينار (ما يقارب ال12 تريليون دينار)، أي أن الإنفاق على الأمن والدفاع يشكل 14.7٪ من إجمالي نفقات الموازنة. حيث يلاحظ أن هذين القطاعين أصبحا يمتصان جزءاً غير قليل من العاطلين عن العمل الذين يتوجهون للتطوع فيهما ليس انطلاقا من رغبة حقيقية في العمل في هذين المجالين ولكن لما يقدمانه من "مغريات" على مستوى الرواتب حيث يصل مجموع ما يحصل عليه الجندي أو الشرطي (وبعضهم بالمناسبة خريجو جامعات بل حتى

حملة شهادات ماجستير!!) في بعض الأحيان إلى ما يقارب المليون دينار شهريا. وهذا يعني أن الحكومة تلجأ إلى إستراتيجية خاطئة في مجال التشغيل، فبدلا من خلق مناصب عمل حقيقية في مجالات الإنتاج المادي وفي قطاعات البنى التحتية التي تعاني تخلفا واضحا، نراها تلجأ إلى توطين العاطلين وخاصة الشرائح الشابة منهم من خلال احتوائهم في الأجهزة الأمنية والعسكرية بهدف امتصاص غضب جيش الشباب العاطل عن العمل. وهنا يمكن القول انه وبالملموس يكون المجال الأكثر توليدا لـ"فرص العمل" هو مجال الأمن والدفاع وما يرتبط به من مؤسسات وفروع واذرع مختلفة أمنية وعسكرية واستخباراتية، أي تطوير المؤسسات هذه على حساب المؤسسات المدنية.

وتشير المعطيات الإحصائية المتوفرة إلى أن حصة وزارة الداخلية في إجمالي عدد القوى العاملة للوزارات والدوائر الممولة مركزيا لسنة 2012 بلغت 23.3٪ في حين بلغت حصة وزارة الدفاع 11.1٪ من الإجمالي. ويعني ذلك أن حصة الوزارتين مجتمعة تمثل 34.4٪، أي أن أكثر من 1/ 3 القوى العاملة للوزارات والدوائر الممولة مركزيا يتركز في هذين القطاعين.

وإذا استبعدنا حصة إقليم كردستان فإن حصة قطاعي الأمن والدفاع سترتفع إلى 45.3٪ من إجمالي عدد القوى العاملة أي أن ما يقرب من نصفها يتركز في هذين القطاعين، الأمر الذي يعكس حقيقة أن هذا التوسع لا يرتبط بإستراتيجية تنموية واضحة بل بإجراءات تكتيكية قاصرة لا تؤدي في الواقع إلى حلول جذرية لمشكلة البطالة بل مفاقمة البطالة المقنعة وإعادة إنتاج الفساد الإداري والمالي.

والخلاصة، نحن هنا أمام اتجاه يتمثل بان حوالي أكثر من ثلث (3/1) القوى العاملة يتركز في قطاعي الدفاع والداخلية وأن هذين القطاعين يستحوذان على 14.7٪ من إجمالي النفقات، علما أن نسبة النفقات التشغيلية في إجمالي نفقات وزارة الدفاع تشكل 98٪ في حين يخصص 2.0٪ للنفقات الاستثمارية. أما في ما يتعلق بوزارة الداخلية فإن نسبة النفقات التشغيلية تماثل الأرقام أعلاه حيث بلغت 97.6٪ في حين بلغت النفقات الاستثمارية 2.4٪ فقط.

الأرقام في أعلاه تطرح سؤالا ملحاحا: **هل نحن أمام بدايات التأسيس لعسكرة متعاظمة؟** نطرح هذه الأرقام ولا بد من إطلاق ناقوس التحذير من مخاطر العسكرة، المرتبطة بتعاظم الريوع النفطية والتوزيع السيئ لها، على بناء الديمقراطية لأنهما ضدان لا يلتقيان مهما امتدا.

الهوامش

(1) قارن مع سعد الدين إبراهيم (محرر)، المجتمع والدولة في الوطن العربي: مشروع استشراف الوطن العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988)، ص 308.

(2) لمزيد من التفاصيل قارن: عزمي بشارة، في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، 2007)، مصدر سابق، ص 79.

(3) لمزيد من التفاصيل حول الانتقال الديمقراطي ومصاعبه قارن: غرايم جيل، ديناميات السيرورة الديموقراطية والمجتمع المدني، ترجمة شوكت يوسف (دمشق: وزارة الثقافة، 2005).

(4) قارن: : د. مظهر محمد صالح، إشكالية الاقتصاد الانتقالي في العراق...، مصدر سابق.

(5) لمزيد من التفاصيل قارن: خلدون النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 3، 2004)، ص 183–186.

(6) قارن: د. مظهر محمد صالح، إشكالية الاقتصاد الانتقالي في العراق.. استقطاب مالي أم اغتراب اقتصادي؟ متاح على الانترنيت على الرابط الآتي:
http://www.alaalem.com/index.php?aa=news&id22=48779

(7) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن : د.محمود عبد الفضيل، " أزمة الرؤية اليسارية لإشكاليات الواقع الجديد "، الطريق، العدد الأول/ السنة الرابعة والخمسون، كانون الثاني– شباط 1995 ، ص 5 ولاحقا ؛ كذلك: د.كاظم حبيب، "حول بعض الخصائص المميزة للبرجوازية العربية"، جدل، الطبعة الأولى أب/1991، ص 84 ولاحقا.

(8) تشير تقارير "البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة" إلى أرقام إضافية مذهلة في هذا الصدد، حيث بينت هذه الأرقام أن مجموع ما أنفقته البلدان العربية على الأغراض العسكرية خلال العقود الثلاثة الماضية بلغ ما يقارب الـ(1899) مليار دولار خصصت لشراء الأسلحة والمعدات والأنظمة العسكرية تحت ذريعة حماية الأمن الوطني والقومي! وبالمقارنة مع التخصصات المعتمدة في الموازنات العربية للصحة والتعليم والزراعة والصناعة والخدمات يتفوق الإنفاق العسكري بمقاييس كبيرة عليها جميعا. ومن جهة أخرى فإنه وطبقا لتقرير معهد ستوكهولم لأبحاث السلام فإن حجم إنفاق الدول العربية على صفقات السلاح في عام 2009 قد بلغ 94 مليار دولار فقط !

(9) قارن: وثيقة العهد الدولي في العراق/ رؤية مشتركة والتزامات متبادلة، الجدول رقم (2) ص 27.

(10) قارن: د. صالح ياسر، الاقتصاد السياسي لموازنة 2012.. أسئلة تبحث عن إجابات واضحة، مادة نشرت على ٥ حلقات في جريدة (طريق الشعب) وعلى "موقع الطريق" على الانترنيت:
http://www.iraqicp.com/2010-11-21-18-06-01/12489--2012-1-5-.html.

المادة 81 من قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 (الأمر رقم 10)؛

المدخل لتغيير القانون

مصباح كمال

تعلم مصباح غازي عسكر كمال مبادئ التأمين في بغداد، عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية (1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية عام 1978، وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن ولا يزال يمارس العمل. نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. ساهم في إعداد معجم انجليزي - عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر.

يدير مدونة إلكترونية اسماها مجلة التأمين العراقي http://misbahkamal.blogspot.com/ **مكرسة لدراسة قضايا التأمين في العراق من موقف نقدي، أطلقها لعدم وجود مجلة تأمينية عراقية.**

مقدمة

تناولت، من موقف نقدي، في العديد من مقالاتي (1) الأحكام السلبية التي يضمها قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 (الأمر رقم 10) ومنها المادة 81 التي أشار إليها زملاء المهنة أيضاً في مقالاتهم المنشورة في **مجلة التأمين العراقي ومرصد التأمين العراقي**. ويجد موقفي حضوراً قوياً له في كتابي **قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005: تقييم نقدي** (2) وقد سرّني أن أتعرف عن كثب على موقفٍ نقدي مشابه

لموقفي من هذه المادة لدى العديد من زملاء المهنة، في الديوان والجمعية وشركة إعادة التأمين العراقية والشركات العامة والخاصة، أثناء زيارتي للعراق أوائل شهر تموز 2012. وقد حفّزني موقفهم على استعادة بعض ما كتبتُ عن القانون وهذه المادة التي وصفتها بالمادة اللعينة في مقالتي الأخيرة "نحو مشروع لصياغة سياسة لقطاع التأمين في العراق" (3) المادة لعينة لأنها واحدة من أسباب ضيق ومعاناة النشاط التأميني في العراق منذ نشر القانون في الوقائع العراقية. المقالة الحالية فيها بعض التكرار الذي اعتبره نافعاً، فكلما راجعنا ما كتبنا واقتربنا من القانون تحليلاً ونقداً، كلما سهّلنا على صانعي القرار أو المساهمين فيه، كديوان التأمين العراقي، مهمة إعادة النظر وتغيير قانون تنظيم أعمال التأمين.

مزاولة نشاط التأمين

اعتقد أن إعادة النظر يجب أن تتجاوز مجرد رصد الأخطاء والثغرات بل تمتد لتشمل الرؤية التي يقوم عليها هذا القانون. وكما بينت في دراسة سابقة (4) فإن أحكام هذا القانون تنطوي على تناقض مستتر يتيح فرصة عدم الالتزام به. فالمادتان 13 و 14 تنصان على ما يأتي:

المادة –13– لا يجوز مزاولة أعمال التأمين في العراق إلا من [قبل]:

أولا– الشركات العراقية العامة.

ثانيا– الشركات العراقية المساهمة الخاصة أو المختلطة.

ثالثا– فروع شركات التأمين الأجنبية المسجلة في العراق.

رابعا– كيانات تأمين التكافل أو إعادة التكافل.

خامسا– مؤمن أو معيد تأمين آخر يعتبره رئيس الديوان مؤهلا وذو [وذا] قدرة مالية شرط التزامه بأحكام هذا القانون.

المادة–14– أولا– لا يجوز لأي من المنصوص عليهم في المادة (13) من هذا القانون أن يمارس أعمال التأمين إلا بعد حصوله على إجازة بذلك وفقا لأحكام هذا القانون.

لكن الملاحظ، وبشهادة شركات التأمين العراقية ومستشاريها القانونيين، أن شركات التأمين وإعادة التأمين غير العراقية وغير المسجلة لدى وزارة التجارة وغير المجازة من قبل الديوان تقوم بالاكتتاب بالأعمال العراقية في أوطانها وبذلك تحرم شركات التأمين العراقية، المسجلة والمجازة من قبل ديوان التأمين العراقي وتدفع الضرائب والرسوم عن نشاطها، من حقها القانوني في الاكتتاب بأعمال التأمين على الأصول العراقية بما فيها الأشخاص. وقد نشأ هذا الوضع، الذي خسرت شركات التأمين العراقية بسببه ملايين الدولارات من الأقساط (5) مثلما خسرت الخزينة إيرادات رسم الطابع على وثائق التأمين الصادرة وكذلك إيرادات الضريبة على دخل شركات التأمين، لأن

قانون تنظيم أعمال التأمين لا يضم مواد إضافية لضبط الاكتتاب وضمان الالتزام بهاتين المادتين. فالمادة 13 تظلُّ غير فعّالة ما لم يحدد القانون، بوضوح، التزام طالبي التأمين، من العراقيين والأجانب، بإجراء التأمين على أصولهم ومسؤولياتهم القانونية لدى شركات تأمين مجازة بموجب قانون التأمين. ولكن خلافاً لذلك فإن القانون يؤكد حرية شراء منتجات التأمين وخدماته من أي شركة للتأمين أو إعادة التأمين، بما فيها ضمناً الشركات الأجنبية، كما جاء في المادة 81 من قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005.

المادة 81 وإطلاق حرية التأمين والتناقض القانوني

يرد نص المادة 81 تحت الباب السابع، أحكام متفرقة، الفصل الأول، أحكام عامة، وكما يأتي:

المادة-81- أولاً- لأي شخص طبيعي أو معنوي عام أو خاص الحق في الاختيار بشراء منتجات التأمين أو خدماته من أي مؤمن أو معيد تأمين ما لم ينص القانون على خلاف ذلك.

ثانياً- لا يجوز إجبار شخص طبيعي أو معنوي عام أو خاص على شراء منتجات خدمات التأمين من مؤمن أو معيد تأمين أو وكيل أو وسيط أو مقدم خدمات تأمين محدد، ما لم ينص القانون على خلاف ذلك.

ثالثاً- يجري التأمين على الأموال العامة والأخطار التي ترغب الوزارات أو دوائر الدولة في التأمين ضدها بالمناقصة العلنية وفقاً لأحكام القانون، ولجميع المؤمنين المجازين في العراق حق الاشتراك فيها.

سنغض النظر في هذه المقالة عن الفقرة ثالثاً رغم أهميتها وشكوى البعض من وجودها، وربما نقوم بدراستها في ورقة مستقلة في المستقبل. ويكفي أن نشير هنا إلى أن هذه الفقرة، خلافاً للفقرتين ثانياً وثالثاً، تذكر حق "جميع المؤمنين المجازين في العراق" الاشتراك في مناقصات التأمين على الأموال العامة. انطلاقاً من هذه الملاحظة نجد أن الفقرة أولاً لا تشير إلى مؤمنين مجازين في العراق، وكذا الأمر بالنسبة للفقرة ثانياً. لم تأتِ هذه الصيغة في إغفال ذكر العراق عفواً وفي لحظة غفلة بل من باب التصميم وضمن رؤية لتوجيه الاقتصاد العراقي. كما نغض النظر عن مدى شرعية قانون تنظيم أعمال التأمين في ضوء اتفاقيات جنيف حول تغيير المحتل الأجنبي لقوانين الدولة المُحتَلّة، ويكفي أن نقول إن هذا القانون لا ينسجم مع اتفاقيات جنيف التي لا تجيز للقوة المحتلة صلاحية تغيير ما هو قائم ما لم يكن هناك تهديد مباشر لأمن القوة المحتلة أو أن هناك ضرورة تستوجب التغيير. وفي هذا السياق فإن النشاط التأميني، في أي من صوره، لم يشكل تهديداً مباشراً أو غير مباشر للاحتلال الأمريكي، ولم تكن هناك ضرورة اقتصادية أو اجتماعية لتغيير القوانين المنظمة

للنشاط ما لم ندخل الاعتبارات الإيديولوجية في الحسبان (إعادة تشكيل الاقتصاد العراقي من منظور العقيدة الليبرالية الجديدة)، وفي هذه الحالة فإن الضرورة ليست عراقية، نابعة من متطلبات تنمية الاقتصاد العراقي.

المادة 81 ناقصة، كما يلاحظ القارئ، لأنها تخلو من إشارة إلى محل إقامة المؤمن أو معيد التأمين أو تسجيله في العراق أو ترخيصه من قبل الديوان ولا القانون الذي تشير إليه هذا المادة، حسب علمنا، نصٌّ خلاف ذلك ولم ينشر حتى الآن تعديل للقانون بهذا الشأن. ويلاحظ أيضاً أن هذه الفقرة تُقرُّ حق الشخص الطبيعي في الاختيار بشراء منتجات التأمين أو خدماته من أي مؤمن أو معيد تأمين دون النص على عراقية المؤمِن أو معيد التأمين (بمعنى تسجيله لدى مسجل الشركات وترخيصه من قبل الديوان).

وفّرت المادة 81 الأرضية القانونية لتسريب أقساط التأمين العراقية إلى الخارج من خلال القبول الضمني بالتأمين خارج النظام الرقابي non-admitted insurance وهو ما لا نجد نظيراً له في معظم الأنظمة الرقابية على النشاط التأميني في العالم. وقد كتبتُ في مكان آخر أن "مايك بيكنز، مفوض التأمين في ولاية أركنساس، الذي أعد نص القانون باللغة الإنجليزية، يعرف تماماً القيود المفروضة على حرية شراء التأمين في ولايته وفي الولايات الأخرى للولايات المتحدة. ومع ذلك أقحم هذه المادة تعبيراً عن العقيدة الليبرالية الجديدة في رفع الضوابط الرقابية" (6).

لقد وفرَّ قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 الغطاء القانوني للتأمين خارج العراق لدى شركات تأمين أجنبية غير مسجلة في العراق وغير مرخصة. وعدا ذلك فإن القانون يتعارض مع أحكام الدستور الدائم، فقد أكدت المادة 126 من الدستور بشأن نفاذ القوانين القائمة الآتي:

"تبقى التشريعات النافذة معمولاً بها، ما لم تُلغَ أو تُعدّلَ، وفقاً لأحكام هذا الدستور".

من التشريعات النافذة ذات العلاقة قرار مجلس قيادة الثورة رقم 192 المؤرخ 3/ 1998/12 الذي نصَّ في الفقرة ثانياً على أنه: "لا يجوز التأمين خارج العراق مباشرة على أشخاص أو أموال موجودة في العراق أو مسؤوليات قد تتحقق فيه". (الوقائع العراقية، العدد 3757، ص 618)

ويعرف القارئ المُطّلع أن هذا القرار ألغى قانون شركات ووكلاء التأمين رقم (49) لسنة 1960 الذي نصّ في المادة 57 على الآتي: "لا يجوز لأي شخص أن يُؤمن خارجَ العراق مباشرةً على أشخاصٍ أو عقاراتٍ أو أموالٍ موجودة في العراق".

ومن النواقص التدوينية لقانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 عدم إيراد نص بإلغاء قوانين التأمين السابقة أو الاحتكام إليها في حالات معينة. هناك إذاً تضاربٌ بين قانون سنة 2005، والقوانين السابقة

التي لم تخضع للإلغاء.

إزاء هذا الوضع يصبح ضرورياً القيام بالمراجعة الفنية والقانونية لقانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 وإعادة تدوينه فهو صار يُشكّل عنصراً أساسياً في توجيه النشاط التأميني. إن القانون، في صيغته الحالية، يحجّمُ دور شركات التأمين العراقية. وقد عرضت موقفي من تغيير القانون في مقالتي "نحو مشروع لصياغة سياسة لقطاع التأمين في العراق" المنشور في مرصد التأمين العراقي وقد أشرت إليه سابقاً.

الصمت الرسمي

لست أول من انتبه إلى الآثار السلبية للمادة 81 فالحديث دائر عنها لدى ممارسي التأمين في العراق. لكن الذي يثير الاهتمام أن الكتابات النقدية المنشورة بشأنها والاتصالات الشخصية ومن خلال التخاطب التي قام بها أركان التأمين العراقي مع أكثر من وزير في الماضي وحتى وقت قريب لم تسفر عن تبني أي منهم لمشروع إعادة النظر في القانون وتعديل المادة 81 ولم يظهر في مراجعات القوانين، ومنها قرارات مجلس قيادة الثورة المنحل، التي يطلع علينا بها البرلمان. ويبدو أن الحكومة والوزراء ونواب البرلمان يعانون صمماً تجاه الموضوع، أو لأن التأمين لا مكان له في جدول اهتماماتهم فهو قطعاً، حتى الوقت الحاضر، لا يدخل ضمن حزمة المنافع الشخصية (الرواتب، المخصصات، السيارات المصفحة التزود بالمسدسات والبنادق، التقاعد والجواز الدبلوماسي) التي يتبارون في التشريع لها.

تُرى من هو المستفيد من بقاء القانون على حاله رغم شكوى شركات التأمين العراقية؟ أهناك مصالح غير مرئية تقف وراء عدم تغيير القانون؟ لست عارفاً بالتفاصيل لكن أعرف أن وزيراً قد استمع لأحد أركان التأمين لكنه بعد حين نسي أو تناسى الموضوع. هل هناك من يستطيع البحث في هذا الجانب من الموضوع؟

بعض الآثار الاقتصادية

النتائج الاقتصادية لتجاهل دور شركات التأمين العراقية واضحة فأقساط التأمين المنفقة على شراء الحماية التأمينية للأصول الموجودة داخل العراق تُحوّل إلى الخارج إما جهلاً أو قصداً، بدلاً من إنفاقها داخل العراق. وهو ما يُحرِمُ هذه الشركات من فرصة النمو والنهوض للتعامل مع متطلبات تأمين المشاريع في مختلف مراحلها وما يفرضه عليها تطور الاقتصاد من تحديات فنية ومالية. وللأسف فإن هذا الوضع يعكس حالة عامة تتمثل بإعادة تصدير المنافع الاقتصادية خارج العراق بدلاً من الاستفادة منها في تعزيز التراكم الاقتصادي الوطني. ويكفي هنا أن نتذكر مصير الأرصدة في صندوق تنمية العراق والمنح والقروض

والمعونات العينية التي أقرها مؤتمر المانحين في مدريد في تشرين الأول 2003 فقد أُنفقت نسبة كبيرة منها خارج العراق بالتعكز على سوء الأوضاع الأمنية (7). أي أنها لم تصب مباشرة في حركة الاقتصاد العراقي إضافة إلى التبذير والسرقة التي تعرضت لها (8).

الأموال العراقية العامة، المنقولة وغير المنقولة، تخضع لأشكال متعددة من التسرب وسوء الاستعمال والسرقة وكلها تؤثر في حركة الاقتصاد العراقي وفي قطاع التأمين. على سبيل المثال، فإن الإنفاق على شراء الحماية التأمينية من الخارج، من دون المرور بشركات التأمين العراقية، هو أحد أشكال تسريب الأموال وهو في الوقت ذاته خسارة للدخل بالنسبة لهذه الشركات مثلما هو خسارة لمصدر ضريبي (ضريبة الدخل على شركات التأمين).

ما يعنينا من هذا كله هو الدور المحتمل لصناعة التأمين بالعراق في المساهمة في التنمية الاقتصادية (9). فالقانون، كما هو عليه، وطريقة إجراء التأمين خارج العراق تحرم قطاع التأمين من المساهمة الفعلية في التنمية في المستقبل المنظور، عندما تتضح معالم هذا القانون في التطبيق ومجافاة بعض أحكامه، كالمادة 81، لمشروع تأسيس سوق وطني عراقي مشترك للتأمين (10). وفي الواقع، ليس هناك، ومنذ تشرين الثاني 1991، سوق وطني، فدرالي حقيقي، بل هناك ميل للانعزال في إقليم كردستان كما يظهر ذلك من خلال بعض التشريعات.

إجراء التأمين خارج العراق من دون الالتفات إلى الخدمات التي تستطيع شركات التأمين العراقية تقديمها، حتى في دور الشركة الواجهة fronting company مثلاً، بحجة أن هذه الشركات لا تتوافر على الخبرات والطاقات المطلوبة، تسرق من هذه الشركات فرصة مجابهة الجديد والمعقد من الأخطار التأمينية والعمل على إيجاد الحلول لها. ولكن يبدو أن المستهدف هو إبقاء شركات التأمين العراقية ضعيفة، أطول فترة ممكنة، كي تستطيع الشركات الأجنبية النفاذ إلى السوق من خلال ما يسمى بالتجارة عبر الحدود .cross-border trading هذا النمط من تعاطي التأمين له آثاره السلبية في السوق الوطني، فهو يلغي الحاجة إلى الاستثمار في البلد المُضيّف، كما أنه يستغني عن الاعتماد على الموارد المحلية، وهو بالتالي لا يساهم في تطوير وتعزيز الخبرات المحلية، وبعبارة أخرى فإنه لا يعمل على نقل التكنولوجيا والمهارة (عدوى التقليد)، إحدى المنافع المتوخاة من الاستثمار الأجنبي المباشر.

رغم تحفظنا على ترتيبات الواجهة غير الضرورية فإنها، ضمن الظروف الحالية، يمكن أن تساهم في تطوير دور شركات التأمين (11). أولاً، آلية الواجهة مصدر لا بأس به للدخل لشركة التأمين العراقية التي تقوم بها. وهذا المصدر ما هو إلا العمولة التي يدفعها المؤمَن أو معيد التأمين الأجنبي

للشركة المحلية التي تقوم بإصدار وثيقة التأمين وخدمتها خلال فترة نفاذها. ثانياً، الدخول في ترتيبات الواجهة يوفر فرصة للشركة العراقية بالتعامل مع وثائق تأمين ذات طبيعة معقدة ربما تغطي أخطاراً غير مألوفة. وبالنتيجة، فإن ترتيبات الواجهة، إن أُحسن استعمالها من قبل الشركة العراقية، تساعد على توليد معارف ومهارات جديدة أو ما يعرف في أدبيات الاستثمار الأجنبي المباشر بانتشار الكفاءة efficiency spillover.

تحت دعاوى حرية وسيادة المستهلك يدعو البعض إلى إطلاق الحرية لطالبي التأمين من الشركات، المحلية والأجنبية، لشراء المنتجات التأمينية التي يحتاجون إليها من أسواق أخرى (عبر الحدود) إن كانت هذه المنتجات غير متوفرة لدى شركات التأمين الوطنية. مثل هذه الوصفة، التي تبدو بريئة في ظاهرها، تهمل أو تتناسى أن الشركات الوطنية تستطيع توفير ما هو مطلوب من خلال تجميع مواردها معاً والمشاركة في التغطية، أو من خلال ترتيبات إعادة التأمين الاختياري. وللسوق العراقي تجربة في هذا المجال ترجع إلى سبعينيات القرن العشرين.

إن معالجة هذه الأوضاع، أو بعض منها، منوطة بجمعية التأمين العراقية من خلال التوعية بواقع صناعة التأمين العراقية وإمكاناتها وبمختلف الوسائل المتوفرة، والعمل على ترويج صياغة موحدة لشروط التأمين والتعويض insurance and indemnity clauses في عقود مقاولات القطاع الحكومي كما هو الحال حتى في أعتى الدول الرأسمالية. وكما قلنا في مكان آخر فإن "مشروع "لبرلة" الاقتصاد العراقي يجب ألا يرتبط بتقويض الكيانات الاقتصادية المحلية في مختلف القطاعات الصناعية والخدمية وحرمانها من فرص التطور وتعظيم الاستثمارات، وكلها تشكّل مصادر جديدة وإضافية لشركات التأمين المحلية (12).

وفي هذا السياق من المناسب التذكير بالأسباب الموجبة لتشريع قانون تنظيم أعمال التأمين رقم 10 لسنة 2005، فقد ورد فيه هدف "تنظيم قطاع التأمين والإشراف عليه بما يكفل تطويره وتأمين سوق مفتوح وشفاف وآمن مالياً وتعزيز دور صناعة التأمين في ضمان الأشخاص والممتلكات ضد المخاطر لحماية الاقتصاد الوطني" (13). ولن يتحقق ذلك بتجاهل شركات التأمين العراقية وإبقائها ضعيفة من خلال أحكام ضارة في القانون وجهالة وربما سوء تصرف أصحاب الشأن في الدوائر الرسمية العراقية. وباختصار، وكما يشهد الواقع القائم، فإن أحكام القانون لا تستقيم مع الهدف "الإنشائي" المرسوم له.

نقض التنمية الحقيقية

نصُّ القانون يؤسس لنمط من العلاقات الاقتصادية بين الأشخاص الطبيعيين والمعنويين في الداخل والخارج مع ميل قوي

نحو الخارج، بين طالبي التأمين من العراقيين والأجانب وبين شركات التأمين العراقية، أو قل انه يعكس طبيعة الاقتصاد الريعي المتمثل بانعدام التنمية الحقيقية وبالتركيز على امتصاص الفائض في سلع وخدمات استهلاكية مستوردة ضمن سلوك اقتصادي يشوبه الغموض والعشوائية (14) وتغوّل بيروقراطي نتيجة التغذية المستمرة لأجهزة الدولة بأقارب أحزاب المحاصصة والموالين لها.

في ظل هذا الإطار فإن الطلب على الحماية التأمينية يتحول بفضل المادة 81 إلى الخارج، وبالتالي فإنه لا يصبُّ في تنمية حقيقية لقطاع التأمين العراقي. إضعاف كل ما من شأنه أن يخدم مشروع التنمية الوطنية "المستقلة" وتعزيز الاعتماد على الخارج وفتح السوق المحلية أمام رأس المال الأجنبي، هو ما أفرزه الاحتلال الأمريكي وهو ما قامت سلطة الاحتلال بترجمته في سلسلة من القوانين (الأوامر) ومنها القانون/ الأمر رقم 10. وخير شاهد على مصادرة مشروع التنمية الوطنية هو العقود النفطية الاتحادية وعقود حكومة إقليم كردستان الملتبسة بسبب دستور دائم قصد القائمون على تحريره ليكون ملتبساً وحمّالاً للأوجه. فالتأكيد في هذه العقود، والهرولة نحوها، هو على زيادة الإنتاج كهدف أساس (15). مثلما هرول رئيس الوزراء العراقي لتوقيع الأمر رقم 10 الأمريكي الصنع (16).

لندن

21 آب 2012

الهوامش:

(1) تعتمد هذه الورقة على الاقتباس، مع قليل من التحوير، من مقالاتي السابقة.

(2) أعددتُ نص الكتاب في صيف 2011 وتبنتْ شركة التأمين الوطنية العامة طبعه، لكنه لم ينشر حتى الآن.

(3) ورد الوصف في الهامش رقم 2. راجع:
http://iraqinsurance.wordpress.com/2012/08/06/a-policy-for-iraqs-insurance-sector/

(4) مصباح كمال "السياسات الاقتصادية في العراق والخيارات البديلة: قطاع التأمين أنموذجاً" الثقافة الجديدة، العدد 333–334، 2009. يمكن قراءة الموضوع في مدونة مجلة التأمين العراقي الإلكترونية
http://misbahkamal.blogspot.com/2009/12/2009.html

(5) قد يقول البعض إن القول بأن حجم الخسارة هو بملايين الدولارات فيه مبالغة وقد يكون الأمر كذلك في غياب رصد علمي وتقييم كمي لخسارة الأقساط. لكن ملايين الدولارات غير المحددة هنا تبدو معقولة عند نسبتها إلى حجم ميزانية الدولة.

(6) مصباح كمال "نحو مشروع لصياغة سياسة لقطاع التأمين في العراق"، مرصد التأمين العراقي:
http://iraqinsurance.wordpress.com/2012/08/06/a-policy-for-iraqs-insurance-sector/

(7) يذكر د. سنان الشبيبي، محافظ البنك المركزي العراقي، في مقابلة قصيرة MEED Gulf Economic Review, January 2006, pp 36-37 دور المصارف الأجنبية التجارية في تدريب بعض المصرفيين العراقيين في الخارج، ويؤكد ضرورة التدريب أثناء تأدية المصرفيين لعملهم اليومي داخل العراق، ويحاجج بهذا الشأن، في ما يخص الأوضاع الأمنية، أن المؤسسات الأجنبية التي تستطيع العمل في دول تنتشر فيها الجريمة، مثل كولومبيا ونيجيريا، فإن بإمكانها التغلب على المصاعب الأمنية في العراق وتعديل الكلفة بموازاة ذلك.

(8)James Glanz, "Audit Describes Misuse of Funds in Iraq Projects," The New York) Times, 25 January 2006. Ed Harriman, "Cronyism and Kickbacks," London Review of Books, 26 January 2006.

(9) تناولنا دور التأمين في التنمية الاقتصادية في ورقة غير منشورة كتبت لمؤتمر كانت نقابة الاقتصاديين في إقليم كردستان تنوي عقده في أربيل في 2002/11/16 حال تطور الأوضاع دون انعقاده. مصباح كمال، "هل هناك دور اقتصادي للتأمين في كردستان العراق؟" (تموز 2002). وتابعنا جانباً منه في دراسة أخرى غير منشورة: " تطوير قطاع التأمين في كردستان العراق: ملاحظات أولية (لندن أيار/ حزيران 2006)

(10) راجع دراسة فؤاد شمقار "النظام رقم 9 لسنة 2011: نظام التأمين الإلزامي للمركبات"، مرصد التأمين العراقي:
http://iraqinsurance.wordpress.com/2012/04/23/compulsory-motor-insurance-regulation-iraqi-kurdistan/

(11) ممارسة دور شركة الواجهة fronting company يجب أن لا يكون نمطاً ثابتاً في تعامل شركات التأمين العراقية مع الزبائن الكبار من الشركات الأجنبية التي تعمل في العراق ولها علاقات قائمة مع وسطاء وشركات تأمين في بلدانها الأصلية. يجب أن تبقى الواجهة ترتيباً مؤقتاً، أو حسب ما تقتضيه الظروف مستقبلاً، وذلك لضمان عدم تقليص الدور الاكتتابي لشركات التأمين العراقية وتحويلها لمجرد وكلاء يعملون بالعمولة وهو ما لا يستقيم مع الدور الحقيقي لشركة التأمين: الاكتتاب بالأخطار وتحمل مسؤولية تعويض المطالبات. هو إجراء مؤقت يعكس ضعف القاعدة المادية للشركات العراقية وصغر حجم إعادة التأمين الاتفاقي المتوفر لها حالياً. ويتوجب على الشركة التي تقوم بدور الواجهة الاطمئنان إلى سلامة الوضع المالي للشركة الأجنبية التي تتعامل معها وإعفائها من المسؤولية من قبل المؤمن له الأصلي في حالة فشل الشركة الأجنبية في تنفيذ التزاماتها تجاه المؤمن له.

للمزيد من المعلومات عن ترتيبات الواجهة يمكن الرجوع إلى دراستنا: "ترتيبات الواجهة: محاولة أولية لتقييم نقدي،" التأمين العربي، مجلة الاتحاد العام العربي للتأمين، العدد 95، 2007. يمكن قراءة النسخة الالكترونية في مرصد التأمين العراقي:
http://iraqinsurance.wordpress.com/2011/09/19/fronting-arrangements-critical-assessment

(12)البيان الاقتصادية، بيروت، العدد 410، كانون الثاني/يناير 2005، ص 429.

(13) الوقائع العراقية، العدد 3995، 2005/3/3، ص 28.

(14) د. مظهر محمد صالح "الاقتصاد الريعي المركزي ومأزق انفلات السوق: رؤية في المشهد الاقتصادي العراقي الراهن"، موسوعة نينوى
http://www.neinawa2.com/news3/news.php?action=view&id=20

(15) لمن يرغب في متابعة القضية النفطية يمكن الرجوع إلى كتابات الخبير النفطي فؤاد قاسم الأمير، وقد صدر له مؤخراً كتاب بعنوان الجديد في القضية النفطية العراقية، بغداد، 2012.

(16) للاطلاع على خلفيات الأمر رقم 10 يمكن الرجوع إلى كتاباتي السابقة المنشورة في مجلة التأمين العراقي ومرصد التأمين العراقي.

التوسّع الرأسمالي وتشويه التشكيلات الاجتماعية الوطنية

لطفي حاتم

لطفي حاتم، كاتب وباحث عراقي، حاصل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون، عميد كلية القانون والسياسة في الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له ثلاثة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ آراء وأفكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر. في هذا المقال يحاول الدكتور لطفي حاتم الإجابة عن العديد من الأسئلة التي طرحها تطور الاحتجاجات الشعبية التي شهدتها العديد من البلدان العربية ويبحث في علاقة الطور المعولم من التوسع الرأسمالي بهذه الاحتجاجات.

أنتجت الاحتجاجات الشعبية سجالاً فكرياً سياسياً حول قواها الاجتماعية المحركة ومضامينها السياسية، فضلا عن آفاق تطورها، وطرحت على الباحثين والكتاب كثرة من الأسئلة، منها ما علاقة الطور المعولم من التوسع الرأسمالي بهذه الاحتجاجات؟ ومنها ما علاقة الليبرالية الجديدة وسوقها الحرة بالتغيرات الاقتصادية الاجتماعية الجارية في بلداننا العربية؟ وأخيرا ما الأسباب الواقعية لعدم تبلور قيادة سياسية قادرة على قيادة الكتل الاجتماعية المشاركة في العملية الاحتجاجية نحو أهداف سياسية اجتماعية تلبي تطلعاتها الاقتصادية؟

محاولة التقرب من مضامين الأسئلة المثارة والإشكالات الناتجة عنها تتطلب التعرض إلى مستويات متعددة؛ منها المستوى الاقتصادي الذي افرزه الطور الجديد من التوسع الرأسمالي، ومنها مستوى الإقصاء الاجتماعي الذي أفرزته وصفات السوق الحرة وتخلي الدولة عن وظائفها الاقتصادية، ومنها مستوى تراجع

الفكر الديمقراطي العلماني بتياريه اليساري والقومي.

استنادا إلى تلك المستويات ولغرض حصر السجال الفكري بأطره الفكرية والسياسية والاجتماعية سنعمد إلى ملاحقة تاريخية مكثفة لمراحل تطور رأس المال وسمات التهميش الاجتماعي الناتجة عنها وصولا إلى الإقصاء الطبقي الذي افرزه الطور المعولم من التوسع الرأسمالي، وذلك عبر موضوعات عامة قابلة للإغناء والتطوير والاختلاف.

1- المرحلة الكولونيالية واختلال التشكيل الطبقي للدولة الوطنية

ـ قبل تعرضنا للتهميش الاجتماعي المرتبط بمراحل التوسع الرأسمالي لا بد لنا من التعريف بمفهوم التهميش والإقصاء الذي أراه في إزاحة طبقات وشرائح اجتماعية عن مواقعها الإنتاجية نتيجة لقوانين الاستقطاب والإلحاق، وما يفرزه ذلك من تفتيت لحمتها الطبقية وتشتيت مصالحها الاجتماعية وصولا إلى إلغاء مساهمتها السياسية والاجتماعية في التشكيلة الاجتماعية للدولة الوطنية.

ـ إن التعريف المكثف المشار إليه يترابط مع تطور مراحل رأس المال، ويتجلى بأشكال ومديات مختلفة، ورغم ذلك فان التهميش الذي تشترطه حركة رأس المال، يهدف إلى تعديل البناء الطبقي للتشكيلات الاجتماعية، من خلال إزاحة طبقات اجتماعية، ونمو شرائح وطبقات اجتماعية أخرى، تبعا لطبيعة القوانين الاقتصادية الناظمة لمراحل رأس المال وحركته التوسعية (1).

ـ امتازت الدول الوطنية التي نشأت في المرحلة الثانية من التوسع الرأسمالي والتي أقامتها الدول الكولونيالية، بهشاشة بنائها السياسي، وضعف تشكيلتها الاجتماعية، بسبب طبيعة المرحلة الكولونيالية المتسمة بتصدير البضائع، والبحث عن أسواق جديدة، واستنادا إلى ذلك جرى تخريب الطبقة البرجوازية الفتية وإعاقة نموها اللاحق، الأمر الذي احدث تشوهاً اجتماعيا في بناء التشكيلة الاجتماعية الوطنية وألقى بالمهام الوطنية والديمقراطية الملقاة على البرجوازية الوطنية على عاتق قوى وشرائح طبقية أخرى خاصة الطبقة الوسطى.

ـ إن تعطيل الدور الاقتصادي والسياسي للبرجوازية الوطنية منح الشرائح الاجتماعية الأخرى إمكانية التعايش مع الكولونيالية وبهذا السياق برزت الشريحة التجارية التي أنعشتها وكالة البضائع الأجنبية، وما يشترطه ذلك من مراعاة مصالحها الطبقية مع القوى الكولونيالية، كما انتعشت الشريحة العقارية التي عززت وشائجها الاجتماعية السياسية مع القوى الاجتماعية المتحالفة والوافد الخارجي.

ـ أفضى تهميش الطبقة البرجوازية الوطنية باعتبارها وحدة اجتماعية أساسية في بنية أسلوب الإنتاج الرأسمالي، إلى تشويه التطور الاجتماعي والاقتصادي للدولة الوطنية، ومهد الطريق أمام سيادة المستوى الأيديولوجي والسياسي في الحياة السياسية، وما نتج عن ذلك من حصر الكفاح الوطني بقضية السلطة السياسية باعتبارها أداة التحرر السياسي، فضلا عن كونها خالقة للثروة الاجتماعية والمكانة السياسية.

2- الدولة المستقلة وتشوّه التشكيلة الاجتماعية الوطنية

أنتجت حركة التحرر الوطني العالمية المناهضة للكولونيالية دولاً وطنية ذات سيادة أضافت وحدات جديدة فاعلة في العلاقات الدولية، وعلى الصعيد الاقتصادي تبنت أغلب الدول الجديدة مسار التنمية الوطنية المستقلة، إلا أن تلك التنمية ولأسباب كثيرة لم تنتج تماسكا اقتصاديا اجتماعيا في البنية الوطنية بل بالعكس أحدثت ـ التنمية ـ تشوها في تشكيلتها الاجتماعية وبنيتها السياسية استناداً إلى المحددات الآتية:

أ- التشوّه الاجتماعي

ـ بسبب حيازتها وسائل الإنتاج واحتكارها التجارة الخارجية تحولت الدولة الوطنية إلى رأسمالي احتكاري أدى إلى إعاقة نمو البرجوازية الوطنية المعاقة أصلاً بسبب السياسة الاقتصادية الكولونيالية.

ـ أدى احتكار الدولة للتجارة الخارجية إلى عرقلة تطور الشريحة التجارية، وحصر نشاطها الاقتصادي في أنشطة اقتصادية ضيقة، الأمر الذي فتح الأبواب أمام ترابط جديد بين تلك الفئة والجهاز البيروقراطي، بسبب مواقعه المؤثرة في القرار الاقتصادي/ السياسي.

ـ إن تحجيم الطبقة البرجوازية وشريحة التجار الوطنية افرغ حقل الصراع الطبقي من قواه الاجتماعية الفاعلة، خاصة بعد ربط الطبقة العاملة بأجهزة الدولة البيروقراطية، وما نتج عن ذلك من فقدان التشكيلة الوطنية لديناميكية النزاع الاجتماعي بين أطرافها الوطنية.

ـ إن التهميش الاجتماعي للتشكيلة الوطنية وزيادة دور الدولة في الحياة الاقتصادية أفضيا إلى تضخم الجهاز البيروقراطي وأعطيا زخما لتطور الطبقة الوسطى، الأمر الذي يفسر إعلاء المستوى الأيديولوجي على معطيات الحياة الاقتصادية.

ب- التهميش السياسي

ـ سيادة الحزب الواحد واحتكار الدولة لشؤون الحياة الاقتصادية/ الخدمية تزامنا مع انعدام الديمقراطية السياسية، وما نتج عن ذلك من قوانين حرمت نشاط الأحزاب الوطنية والديمقراطية، وبالسياق ذات تحولت وظائف منظمات المجتمع المدني من وظائف رقابية إلى أجهزة سياسية تابعة لأجهزة الدولة الرسمية، الأمر الذي أدى الى التهميش السياسي وانعدام مشاركة المواطن في الحياة السياسية تحت شعارات عسكرية لمواجهة التحديات الخارجية.

ج. عسكرة المجتمع وتنامي النزعات العنفية

إن تواصل احتكار السلطة وانعدام الحياة الحزبية في التشكيلة الوطنية أديا إلى العنف والعنف المضاد، وخلق البيئة الاجتماعية والنفسية لانتشار روح التمرد، وتشكيل المنظمات السرية المكافحة من اجل الديمقراطية، والمشاركة في السلطة السياسية وبهذا المسار ساهمت شعارات الحزب الحاكم وركائزها الفكرية المتمثلة ببناء الدولة المركزية وتقوية أجهزتها الأمنية بتنمية الروح العسكرية في منظومة البلاد السياسية.

3- التوسع الرأسمالي المعولم وتهميش الدولة الوطنية

إن تأشيرنا لمصادر التهميش في مرحلتي الكولونيالية ومرحلة التحرر الوطني يشترط مواصلة البحث عن مصادر التهميش والإقصاء في الطور المعولم من التوسع الرأسمالي، ولكن قبل الخوض في تلك المرحلة ونتائجها لا بد لنا من التوقف عند بعض الموضوعات الفكرية التي تشكل مدخلا للتهميش في المرحلة المعولمة من التوسع الرأسمالي، والتي أراها في:-

الموضوعة الأولى: ارتباط عمليات التهميش والإقصاء بقوانين الاستقطاب والإلحاق المتحكمة بمسار حركة رأس المال المعولم، وبهذا المعنى فإن عمليات التهميش والإقصاء تتميز بشموليتها حيث أنها لا تقتصر على تخريب التشكيلات الاجتماعية وحسب بل تتعداها لتشمل دولا وطنية عبر تحجيم سيادتها وإضعاف دورها في منظومة العلاقات الدولية.

الموضوعة الثانية: يعتمد التهميش والإقصاء على طبيعة الطبقات أو الشرائح الاجتماعية المتحكمة في الحياة الاقتصادية على المستويين الوطني والدولي، وبهذا السياق نرى أن الإقصاء والتهميش في المرحلة المعولمة ناتجان عن طبيعة الرأسمال البنكي الطفيلي المتحالف مع المجمع العسكري والرأسمال العقاري والهادف إلى الربح السريع.

الموضوعة الثالثة: يشترط التشكل الطبقي المهيمن في العلاقات الاقتصادية الدولية إنتاج الأسس العامة للأزمة الاقتصادية العالمية، ويحدد المضمون الأساسي لمرحلة التوسع الرأسمالي المعولم ويشكل ما أسميه الكومبرادورية الجديدة.

انطلاقا من تلك الموضوعات الفكرية العامة، نحاول التعرض إلى تهميش الدولة الوطنية العربية.

- بات معروفا أن المنطقة العربية خاصة دولها النفطية تشكل مجالا حيويا للاقتصاد الدولي وبهذا المعنى فإن مصالح العامل الخارجي المتشابكة مع المصالح الداخلية باتت حاضرة عند صياغة التوجهات الاقتصادية، وما ينتجه ذلك من زيادة التأثير الأجنبي على القوى الاجتماعية المتنازعة في التشكيلات الاجتماعية العربية.

- يمثل النزاع الدائر بين القوى الدولية الرأسمالية الناهضة والاستعمارية صراعا من اجل تثبيت الهيمنة الإستراتيجية لهذا التكتل الاقتصادي أو ذلك استنادا إلى المعطيات الآتية:-

- يشكل قانون الاستقطاب الرأسمالي القانون الأساس في المرحلة الحالية من التوسع الرأسمالي وبهذا المعنى فإن مفاعيل هذا القانون تنتج ميول التبعية بصيغة الإلحاق التي تصبح ميولا محركة للصراع بين الدول الاستعمارية والدول الرأسمالية الجديدة.

- إن قانون التبعية بصيغة الإلحاق تشترطه حركة اقتصاد العالم وترابط مستوياته نحو بناء التكتلات الاقتصادية وبهذا المنحى فان المستوى الاقتصادي يعتبر المستوى المحدد لتطور العلاقات الدولية في المرحلة الرأسمالية المعولمة.

- إن النزاعات الدولية حول إلحاق الدول المستقلة وثرواتها الوطنية بهذا التكتل الاقتصادي أو ذلك لم تعد بين دول رأسمالية منفردة كما هو في المراحل السابقة بل بين

التكتلات الاقتصادية الدولية التي تحتل فيها الدول الكبرى مواقع قيادية.

ـ التدخل في الشؤون الداخلية وتغيير الأنظمة السياسية باتا أدوات فعلية لخدمة المنافسة الدولية ورغم أهمية المستوى السياسي في الظروف التاريخية المعاصرة إلا أن الاقتصاد الدولي الذي تعززه وحدة الإنتاج الرأسمالي العالمي، يتمتع بالأولية في العلاقات الدولية.

استناداً إلى تلك المداخل الفكرية الناظمة لسمات التهميش وشموليته في المرحلة المعولمة من التوسع الرأسمالي لا بد لنا من التعرض بملموسية إلى تجلياته العربية.

الليبرالية الجديدة والاحتجاجات الشعبية

عمدت كثرة من الدول الوطنية ومنها بلداننا العربية إلى تبني الليبرالية الجديدة وسوقها الحرة ونتيجة لذلك التبني جرت تحولات اجتماعية اقتصادية في بلدان الشرعية الانقلابية أهمها استبدال الاقتصاد الأوامري باقتصاد ليبرالي، وما أنتجه ذلك الاستبدال من تغيرات وتبدلات في منظومة الدولة السياسية وتشكيلتها الاجتماعية التي يمكن حصرها بالمعطيات الآتية:

ـ بيع قطاعات الدولة الإنتاجية/ الخدمية إلى القوى البيروقراطية المدنية/ العسكرية الماسكة بالسلطة، الأمر الذي مهد الى تحولها لطبقة اجتماعية جديدة ماسكة بالسلطة والثروة الوطنية في آن.

ـ التحول الاقتصادي في دور الدولة سمح بدخول الرأسمال الأجنبي الوافد ممثلا بالشركات الدولية والقروض المالية، وما نتج عن ذلك من تحالف اقتصادي سياسي جديد بين الطبقة الاجتماعية الجديدة الماسكة بسلطة الدولة وبين الرأسمالي الاحتكاري، وما لحق ذلك التحالف من أضرار في معيشة الطبقات الاجتماعية الفقيرة والمعدمة.

ـ مشاركة الشركات الأجنبية واشتراطات البنوك الدولية في الحياة الاقتصادية للدولة الوطنية أحدثتا تبدلات جوهرية في مواقع الطبقات الاجتماعية، حيث جرى تهميش الكثير من القوى والفئات الاجتماعية المنتجة بعد إخراجها من مواقعها الإنتاجية الصناعية/ الزراعية.

ـ تخلي الدولة عن حماية مصالحها الوطنية وابتعادها عن رعاية طبقات وفئات تشكيلتها الاجتماعية احدثا خللا كبيرا في الحياة السياسية، انعكست أثاره على الفكر السياسي السائد لمنظومة الدولة السياسية، تمثل في كثرة من الوقائع نشير إلى الأهم منها:

- سيادة النخب المالية والتهميش المتواصل لشرائح وطبقات التشكيلة الوطنية المنتجة منها أفضى الى تفكك القاعدة الاجتماعية للأحزاب السياسية وبالأخص منها القوى اليسارية الأمر الذي أنتج أضرارا على فعاليتها السياسية وضياع عدتها الفكرية وهلامية برامجها السياسية.
- أدى السخط والإحباط لدى الكتل الشعبية المهمشة وتزايد اعتمادها على الفكر الغيبي إلى اندلاع الاحتجاجات الشعبية الفاقدة للقيادة السياسية والبرامج الاجتماعية.
- غياب القيادات السياسية القادرة على توجيه الاحتجاجات الشعبية الى مسارات أكثر جذرية أفضى الى نتيجتين بالغتي الخطورة أولاهما تبوء الإسلام السياسي

لنتائج الشرعية الانتخابية، والثانية تراجع مفهوم الدولة الوطنية الديمقراطية.

خلاصة لما جرى استعراضه يمكننا التوصل إلى بعض الاستنتاجات الضرورية:

أولاً: ترابط النخب المالية الطفيلية المهيمنة على النظم السياسية مع الرأسمال المعولم وأيديولوجيته الليبرالية أفضى الى خراب وظائف الدولة الإنتاجية/ الخدمية، الأمر الذي أدى الى تعطيل دورها السياسي/ الاجتماعي المتمثل بصيانة ثرواتها الوطنية وتوازن مصالح طبقات تشكيلتها الاجتماعية.

ثانياً: يتجلى التهميش الشامل في الطور الجديد من التوسع الرأسمالي بثلاثة مستويات؛ أولها المستوى الاجتماعي متمثلا بتهميش الطبقات الاجتماعية، واستمرار تشوه بنية التشكيلة الاجتماعية الوطنية، وثانيها المستوى الجغرافي المتجسد بإفقار مناطق جغرافية وغنى مناطق أخرى داخل حدود الدولة الوطنية (2)، وثالثها المستوى السياسي المتضمن إقصاء الدول الوطنية وتعطيل مساهمتها في بناء مسار السياسة الدولية.

ثالثاً: يفضي تخريب التشكيلات الاجتماعية وقواها الطبقية الى اشتداد الاحتجاجات العفوية في صفوف القوى الاجتماعية المخربة، فضلا عن تنامي النزعة الإيمانية السلبية وما يوفره ذلك من بيئة فكرية لقوى الإسلام السياسي.

رابعاً: يتجلى التهميش على الصعيد الاجتماعي بتبدل حقل النزاعات الاجتماعية من مستوياتها الطبقية إلى نزاعات طائفية عشائرية.

خامساً: ينتج التهميش الاجتماعي لقوى التشكيلة الوطنية على المستوى الفكري السياسي وعيا سياسيا يتسم بروح سلفية إرهابية تشكل أداة اجتماعية سياسية بيد الشرائح المالية المتحكمة بمسار النظم السياسية العربية.

الهوامش

(1) بدأت عمليات التهميش الاجتماعي في بداية التراكم الرأسمالي في القرن الثامن عشر وتجلت تلك العلميات بطرد الفلاحين من الأراضي بعد ان حول النبلاء الانكليز أراضيهم لرعاية الأغنام لتزويد صناعة النسيج البريطانية وكذلك استيلاء المهاجرين البيض في أمريكا على أراضي الهنود الحمر.

(2) بعد انتقال جمهورية الصين الشعبية إلى السوق الرأسمالي جرى تهميش القوى العاملة حيث فقد ثلاثون مليون عامل مواقعهم الإنتاجية. كما تظهر اليوم في الصين مناطق غنية بجوار مناطق فقيرة مهمشة.

التفاعلات الدولية إزاء الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية

د. هاشم نعمة

د. هاشم نعمة أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب - جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه، التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة (مقاربات) الأكاديمية التي تصدر في المغرب. في هذا المقال يبحث د.هاشم نعمة أهمية العامل الإقليمي والدولي ودوره في التأثير في مجرى الانتفاضات الشعبية بالبلدان العربية وفي نتائجها الآنية والمستقبلية.

مقدمة عامة

حظيت الانتفاضات التي اندلعت في عدد من البلدان العربية باهتمام وتفاعل وردود أفعال إقليمية ودولية واسعة ربما لم تحدث بهذا المستوى لأي من الانتفاضات والثورات التي سبقتها على المستوى العربي. رغم أن هذا حدث بدرجات متفاوتة وبصفة تدريجية تماشى مع تطور ونضوج مقدمات التغيير في هذه البلدان. وهذا ينطبق على الدول في المحيط الإقليمي وبالأخص العربية أو الدولي. ولأهمية العامل الإقليمي والدولي ودوره في التأثير في مجرى الانتفاضات وفي نتائجها الآنية والمستقبلية إيجابا وسلبا، ارتأينا تحليل هذا العامل الذي سيبقى مؤثرا بقوة في المدى القريب والمتوسط بالأخص رغم أن العوامل الداخلية

تبقى المحرك الأساس في ما حدث ويحدث.

عند بداية انفجار الانتفاضات على شكل حركات احتجاجية، لم يكن للخارج تصور واضح دقيق ومتكامل عن إمكانات تطور تلك الحركات، لذلك ظل الموقف الخارجي متذبذبا وغير حاسم. ولم تحسم تلك المواقف إلا حينما بدا للجميع أن الحركة تحولت إلى انتفاضة، وأن المطالب تصاعدت إلى القمة. عندئذ أصبحت مواقف الخارج أوضح في الوقوف في الأغلب مع المنتفضين. ونجد الموقف أوضح في حالتي تونس ومصر عنه في حالة ليبيا. وربما يمكن تفسير ذلك بأهمية النفط الليبي، وبخاصة للدول الأوروبية والمتوسطية. وعندما تطلب الأمر استخدام القوة العسكرية، طلبت القوى الدولية موافقة جامعة الدول العربية (1) لتضفي على هذا التدخل طابعا شرعيا، وهذا يمكن اعتباره أحد دروس احتلال العراق وما واجهه من رفض على مستوى الرأي العام العربي بالأخص، حيث أن الانتفاضات بحد ذاتها دشنت عهد قوة الرأي العام وتأثيره في مسار الأحداث وصناعة القرار السياسي.

وفي الوقت الذي وقف فيه الرأي العام العربي، بشدة ضد التدخل الأمريكي في العراق. ساهم التعاطف الشعبي مع الانتفاضة الليبية في تعديل المواقف من التدخل الخارجي، وحتى تأييده. وهذا دليل واضح على أن موقف الرأي العام لا يبقى ثابتا ويمكن أن يتغير طبقا للتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لم تعبأ الانتفاضات كثيرا بحسابات القوى الخارجية، ولم تعول في الغالب على دعم هذا الطرف أو ذاك، بالأخص في بداية انطلاقها، بل على العكس قد كشفت الحالات التونسية والمصرية والليبية أن القوى الغربية تمثل عقبة في وجه المنتفضين، إما بسبب دعمها للأنظمة المستبدة أو نتيجة لصمتها على ما تقترفه من جرائم في حق مواطنيها. وقد أسقطت الانتفاضات كل أقنعة الزيف والازدواجية الأخلاقية والقيمية الغربية بعد أن وصل الأمر أحيانا إلى حد التواطؤ الصريح في دعم بقاء هذه الأنظمة على حساب قيم ومبادئ الحرية والديمقراطية كما كان الحال في تونس حين عرضت وزيرة الخارجية الفرنسية ميشيل إليو ماري تدريب الشرطة التونسية لقمع المتظاهرين (2). وبعد أن أيقنت فرنسا نجاح الانتفاضة، عادت وعدلت من موقفها وأفادت من هذا الدرس في ليبيا حيث كانت أشد القوى الغربية تأييدا للتدخل للإطاحة بالقذافي.

انحصرت التغيرات الجيوستراتيجية التي أحدثتها الانتفاضة الليبية في تحول موقف الدول الغربية التي شاركت في مهمة حلف الناتو، وذلك بحكم أنها كانت على علاقات سياسية، واقتصادية، وثيقة بنظام القذافي؛ إذ منحها الاستثمارات النفطية والاقتصادية. وعليه؛ فقد كانت عمليات الناتو جزءا من حماية هذه الامتيازات، وتعزيزا لنفوذ فرنسا التقليدي في أفريقيا بعد أن شكل القذافي عائقا أمام توجهاتها (3) من خلال توطيد علاقاته مع الدول الأفريقية ودعم بعضها ماديا ومع شعور فرنسا بتراجع نفوذها في مستعمرتها السابقة وبالأخص في الجانب السياسي والثقافي مع توسع وانتشار استخدام اللغة الانكليزية.

بالنسبة للاعبين الدوليين ودورهم في التأثير في مجرى الانتفاضات ونتائجها نورد هنا أبرزهم:

الولايات المتحدة الأمريكية

حكمت موقف الولايات المتحدة إزاء الانتفاضات وستبقى كذلك مصالحها الإستراتيجية في المنطقة والتنافس الدائر بينها وبين القوى الكبرى الأخرى وبالأخص روسيا والصين؛ وأن ما يبدو تغييرا في سياستها هو نابع من قناعة أن الوقوف بوجه الانتفاضات وبالأخص التي نضجت مقدمات نجاحها يعني المجازفة بتراجع تأثيرها ونفوذها في المرحلة التي ستعقب سقوط هذه الأنظمة. ومن قناعة أخرى تشير إلى أن هذه الأنظمة باتت غير قابلة للتطور وأدت مهمتها واستهلكت قياداتها وهي تساهم في نمو ظاهرة التطرف الديني والعداء إلى الولايات المتحدة. وهذه السياسة اتسمت بالمرونة مقارنة بروسيا وليس بالمبادئ وهي تعبير أمين عن مصالح الشركات الاحتكارية الكبرى والمتعددة الجنسية.

ودعما لقولنا نورد هنا قول الدبلوماسي الأمريكي جايمس لاروكو الذي يعبر عن وجهة النظر الأمريكية الرسمية "سواء كنا نتحدث عن تونس أم مصر أم غيرهما من دول المتوسط العربية وحتى في ما وراء ذلك. فإن الولايات المتحدة غالبا ما كانت تختار المصالح على حساب القيم. إني أقرّ بذلك في شكل كامل. إلا أن هذا يمكن ويجب أن يتغير الآن... لقد وفرت شعوب المنطقة فرصة للولايات المتحدة لكي تكون شريكة كاملة، في الشرق الأوسط الجديد، وسيتطلب ذلك تعديلا في سياستنا، وأنا متأكد من أننا سنقوم بذلك" (4). من هذا النص يتبين أن الولايات المتحدة كانت في حالة ترقب إزاء الانتفاضات ليتضح لها ميزان القوى الداخلي كي تعدل سياستها بما يتوافق بشكل كامل مع مصالحها. وهي في الواقع تفضل التعامل مع أنظمة مستبدة تتسم بمركزية القرار بدل التعامل مع أنظمة ديمقراطية يملك فيها الرأي العام دورا مؤثرا في توجهات صانعي القرار السياسي والاقتصادي. أما الحديث عن القيم فهو النفاق بعينه، لأن تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية يشير إلى أنها لم ترسم أبدا في أي مرحلة من مراحلها على أساس قيم الحرية والديمقراطية التي تتحدث عنها.

إذاً بعد أن بدأت الولايات المتحدة تستوعب صدمة الانتفاضات عكفت دوائرها البحثية والسياسية والاستخباراتية على بلورة إستراتيجية جديدة متكاملة للتعاطي مع الواقع الجديد، تكفل لها حماية مصالحها وتحسين صورتها في الشارع العربي، كما تتضمن برنامجا لدعم الانتفاضات والأنظمة الناتجة عنها عبر التحرك في ثلاثة اتجاهات: اقتصادي، سياسي وثقافي.

في الاتجاه الاقتصادي، عمدت الإدارة الأمريكية إلى مساندة الديمقراطيات الوليدة في مصر وتونس من اجل تجاوز التداعيات الاقتصادية السلبية للانتفاضات، فأعلن أوباما إسقاط بلاده مليارى دولار من ديون مصر وتونس مناصفة كما حث المؤسسات الاقتصادية الدولية على تقديم الدعم والشراكة التجارية للبلدين وضخ الاستثمارات لهما. وفي قمة الثماني في فرنسا في آذار 2011، دُعي رئيسا الحكومتين الانتقاليتين في تونس ومصر وأمين الجامعة العربية للمشاركة في بحث خطة دول الثمان لدعم الدول العربية الطامحة للديمقراطية، وتعهد البيان الختامي للقمة

بتقديم 20 مليار دولار لدعم مصر وتونس.

وفي الاتجاه السياسي، ومع نزوع السياسة المصرية الجديدة، نحو تبني نهج مستقل حيال إيران والقضية الفلسطينية، هرعت الإدارة الأمريكية لصياغة الخطط الكفيلة بكبح جماح تلك السياسة. وبالتوازي حرص أوباما على مد جسور الثقة مع الأنظمة العربية الجديدة وإظهار دعمه الواضح للانتفاضات، كما جدد التزام بلاده بتحريك عملية السلام في الشرق الأوسط استنادا لمبدأ الدولتين.

وفي الاتجاه الثقافي، ظهرت مقترحات أمريكية بضرورة التعاطي مع العرب من منظور مغاير للصورة النمطية السائدة في الغرب، والتي طالما روجت لفكرة أن الشعوب العربية غير ثورية لا تتوق للديمقراطية والتغيير، كما ظهرت طروحات أمريكية بضرورة مراجعة التصنيفات الأمريكية التقليدية للقوى السياسية الفاعلة في البلدان العربية ما بين "معتدلة" و"غير معتدلة" وتبني معيار جديد يصنفها إلى "قوى شرعية" وأخرى "غير شرعية" (5). ولو تم اعتماد هذا التصنيف حقيقة فإنه سيمثل تغيرا مهما تجاه الأنظمة المستبدة التي ما زالت الولايات المتحدة تدعمها.

ومثلت الانتفاضة الليبية اختبارا للإستراتيجية الأمريكية. فقد كان الصمت أولا. ثم مع تصدع النظام بدأت البيانات تصدر باستحياء، تعبر عن اهتمام، ثم قلق، ثم استنكار لما يحدث في ليبيا من قمع المتظاهرين، ثم مناشدات لضبط النفس، ولوقف العنف. ومع أن تطورات الأوضاع في ليبيا كانت تشير الى أن السكان المنتفضين سيتعرضون لمذبحة ولن تنتهي إلا بإسقاط النظام، كان الموقف الأمريكي متأخرا وضعيفا.

واستمرارا لهذا الموقف، تبنت الولايات المتحدة سياسة عدم تصدر المشهد في ما يتعلق بعملية إعادة الإعمار في ليبيا، مثلما فعلت في الحملة العسكرية للناتو التي مهدت لسقوط القذافي. كما قامت الإدارة الأمريكية بالإفراج عن مليار ونصف المليار دولار من الأموال الليبية المجمدة في البنوك الأمريكية من دون تقديم مساعدات مالية أخرى، أسوة بالدول الحليفة الأخرى التي قدمت مساعدات للثوار الليبيين، في ظل رفض الرأي العام الأمريكي تمويل إعادة إعمار جديدة في الشرق الأوسط بعد تجربتي العراق وأفغانستان، وهو ما وضع قيودا على طبيعة الدور الأمريكي وقدراته في التأثير في مسار الوضع في ليبيا (6).

عدم قدرة الولايات المتحدة على الوفاء بمتطلبات ما بعد الانتفاضات ناتج عن الأزمة المالية والاقتصادية. وهو ما أكدته وزيرة الخارجية، هيلاري كلينتون، حيث قالت في 16 آب/ أغسطس 2011 إن الولايات المتحدة قد تخسر فرصتها في إعادة رسم السياسات في الشرق الأوسط، إذا تسببت ضغوط الميزانية في تقييد الدعم الأمريكي للقوى الديمقراطية الناشئة في دول، مثل مصر وتونس. وأضافت: "الولايات المتحدة أمامها فرصة في الوقت الراهن في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ولكنها غير واثقة من أنها ستتمكن من انتهازها، لأنها لا تملك الموارد لذلك" (7). وينبغي أن ينظر للتصريح هذا بأنه موجه أيضا للرأي العام الأمريكي والقوى السياسية الداخلية التي تعارض تقديم المساعدات.

إن حجم التأثير والنفوذ الذي ستتمتع به الولايات المتحدة في ترتيب الأوضاع في البلدان التي أطيح بأنظمتها سيتوقف بدرجة كبيرة على طبيعة المرحلة الانتقالية وتفاعلاتها السياسية – الاجتماعية لبناء دولة مدنية ديمقراطية، وعلى المنظومة السياسية التي تدير الحكم ومتانة النسيج الاجتماعي وبعده عن النزاع الديني والطائفي والعرقي الذي يشكل مدخلا سهلا للتدخل في الشؤون الداخلية من خلال شعور قادة المكونات السكانية والسياسية المتنازعة بأنهم بحاجة للدعم الخارجي لتقوية مواقعهم في أرض النزاع وهذه ما عكسته تجربة العراق المريرة.

روسيا

كانت روسيا وما زالت تفضل أن تكون علاقاتها مع الأنظمة العربية مستقرة. فاستقرارها يعزز الاستقرار في المناطق الجنوبية منها. لذلك لم تعلن روسيا تأييدا واضحا للانتفاضة في أي بلد عربي، فقد التزمت الصمت إزاء الأحداث لحين نضجها وإزاحة السلطة الحاكمة، كما في تونس ومصر. في حين نجد أنها وقفت موقف الحياد أو المتابع من الحالة البحرينية واليمنية. والمؤيد بوضوح للنظام في ليبيا وسوريا، مع اختلاف نمط ودرجة التأييد. ولكن مع الحرص في الوقت ذاته على بقاء قنوات اتصالها مفتوحة مع المعارضة الليبية والسورية. وفيما بعد إذا كان التوازن هو السمة الغالبة على موقف روسيا من الانتفاضة الليبية، فإن دعمها للنظام السوري أوضح ما يكون، حيث أبدت دعما دبلوماسيا وعسكريا له في مواجهته للاحتجاجات الشعبية.

وينظر للدعم الروسي للنظام السوري بأنه منسجم مع السياق العام لطبيعة علاقاتهما التحالفية منذ عام 1970، فسوريا تضمن لروسيا مصالحها ونفوذها في مواجهة التنافس الغربي على منطقة الشرق الأوسط. ومن بين دوافع روسيا من الانتفاضات بالأخص الحالة السورية يمكن ذكر: البحث عن دور ينطلق من حسابات المصالح القومية، ودروس الحالة الليبية حيث أن انهيار حكم القذافي أشر انتهاء النفوذ الروسي في ليبيا، ولم يعد عليها بفائدة حيث تم كل شيء باسم حلف الناتو. وهو ما قد يضع ليبيا لمدة لا بأس بها ضمن نسق أمني واستراتيجي يسيطر عليه الغرب. والخوف من الإسلام السياسي وتأثيره على المسلمين في روسيا. ومن وصول قطار التغيير إلى إيران والقوقاز وأسيا الوسطى التي تعد منطقة إستراتيجية حيوية لروسيا في صراعها على النفوذ مع الولايات المتحدة والإتحاد الأوروبي. لذلك يعد العالم العربي بمثابة خط الدفاع عن آسيا الوسطى والقوقاز (8).

إن الموقف الروسي من الانتفاضات بالأخص الانتفاضة السورية قد اثر سلبا في علاقتها مع العالم العربي على المستوى الرسمي والشعبي. حيث أن استمرار الخسائر البشرية بهذا الحجم واستمرار النظام السوري بهذا القمع المنهج ضد المطالبين بالتغيير ينظر له بأنه ناتج عن الدعم الروسي للنظام وتعطيل محاولات مجلس الأمن لتبني قرارات تساهم في إضعافه ومن ثم تغييره. وسيساهم هذا الموقف بعد نجاح الانتفاضات بتراجع نفوذ روسيا في المنطقة ومن ثم يكون دورها ضعيفا في التأثير في

مجرى التحولات السياسية والاقتصادية التي تعقب هذا النجاح. وهذا يعكس في جانب منه توجهات السياسة الداخلية في روسيا حيث يتم التضييق على فسحة الديمقراطية لذلك لم تؤيد روسيا أية تيارات أو حركات تريد بناء نظام ديمقراطي في أي بلد. ويعكس أيضا ضعف حساباتها الإستراتيجية وقلة مرونة سياستها الخارجية مقارنة بسياسة الدول الغربية التي تتسم بالبراغماتية.

دول الخليج

هناك نقاط تشابه واختلاف في موقف دول الخليج من الانتفاضات رغم التطابق الكبير في بنية نظمها السياسية القائمة على الوراثة التقليدية. ورغم انضوائها تحت مظلة مجلس التعاون الخليجي إلا أن المراقب يرصد اختلاف في وجهات النظر وفي المواقف إزاء قضايا معينة طبقا للحسابات الداخلية والإقليمية والدولية لكل بلد ومنها مثلا الموقف من هذه الانتفاضات. لذا فإن المواقف وحجم التدخل تباينا من دولة لأخرى. فنرى السعودية أكبر دول المجلس لم تؤيد أي انتفاضة باستثناء الانتفاضة السورية وهذا راجع في الأساس إلى حسابات جيوستراتيجية تهدف لإضعاف دور إيران المنافسة لها في المنطقة وعزلها حيث يعد النظام السوري أقوى حلفائها. ومن جهة أخرى سلطت الانتفاضات الضوء بشكل مباشر على ضعف البنية السياسية لهذه الدول وعكست الحاجة إلى إجراء إصلاحات سياسية ودستورية ديمقراطية. وربما ساهم هذا في بناء موقفها تجاه ما يحدث لامتصاص جزء من ردة فعل الشارع الخليجي والظهور بالمساند للمطالب الشعبية في البلدان العربية.

ورغم ادعاء دول الخليج في البداية أنها غير معنية برياح التغيير، وأن لديها حصانة خاصة ضد حركة الإصلاح الديمقراطي، إلا أن الحقيقة عكس ذلك تماما. فرياح التغيير طرقت أبوابها، وتعاملت مع ما حدث عام 2011 بجدية تامة خاصة بعد أن رأت ما يحدث في البحرين (9). لذلك بعد اندلاع الانتفاضة في تونس ثم مصر وليبيا وامتدادها إلى اليمن، أدركت جميع دول الخليج أنها ليست بعيدة عن "الربيع العربي". ولأول وهلة اتخذت موقفا متحفظا متمثلا في اعتبار المشكلة داخلية، مع الإعراب عن الأمل في حل الأزمة سلميا، وحث الولايات المتحدة–وفق بعض التقارير– على عدم التخلي عن الرئيس مبارك. ووصل الأمر إلى اقتراح تعويض مصر عن المعونة الأمريكية إذا لزم الأمر (10).

وكانت انتفاضتا تونس ومصر ملهمتين لقطاعات شعبية واسعة في الخليج خاصة فئة الشباب وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، وجرت محاولات عديدة في العالم الافتراضي، وعلى ارض الواقع لنقل هذه التجارب والدعوات لمسيرات شعبية ورفع مطالب إصلاحية، أصطدمت جميعا بالحالة الخليجية، حيث قوى البقاء والاستمرار أقوى بكثير من قوى الإصلاح والتغيير، وحيث وظفت الحكومات مواردها وإمكاناتها الضخمة، بما في ذلك خلق 130 ألف وظيفة جديدة معنية بالأمن وحدها من أجل منع انتقال عدوى التغيير إلى المنطقة (11) واتخاذ قرارات سريعة لدعم القدرة الشرائية للمواطنين تمثلت بزيادة الرواتب والمنح

والامتيازات.

وحرصت دول الخليج العربية ، الغنية بالنفط، على دعم التيارات الإسلامية في المنطقة. وهذا الدعم يساهم في إضعاف دور القوى والأحزاب الديمقراطية ومن ثم يقلل من إمكانية وصولها إلى السلطة. فأنظمة الخليج تجد من السهل عليها أن تتعامل ولو بحذر مع حكومات تقودها أحزاب دينية معتدلة مثل الأخوان المسلمين والتي يمكن تعديل مواقفها للقبول بشرعية الأنظمة الحاكمة بدل التعامل مع حكومات تقودها أحزاب وطنية ديمقراطية تهدف إلى تنفيذ إصلاحات سياسية ودستورية جذرية باتجاه بناء دولة مدنية ديمقراطية تضعف من شرعية الأنظمة الوراثية. لذا رأينا أول زيارة يقوم بها الرئيس المصري محمد مرسي إلى الخارج كانت إلى السعودية والإدلاء بتصريحات ذات توجه طائفي تهدف إلى تعزز شرعية النظام السعودي.

أكثر الدول الخليجية التي تفاعلت بقوة مع الانتفاضات هي قطر وقد جاء قرارها بالمشاركة في التدخل الدولي من خلال الناتو في ليبيا بمثابة تحول في سياستها التي كثيرا ما اعتمدت دبلوماسية الوساطة ومحاولة الظهور بمظهر الوسيط المحايد. وقدمت قطر للمنتفضين دعما ماليا ومعنويا كبيرا، وتغطية قناة الجزيرة التي سلطت الضوء على الممارسات الوحشية لنظام القذافي. وكانت قطر من أولى الدول التي اعترفت بالمجلس الانتقالي الليبي، واستضافت أول مؤتمر دولي لإعادة إعمار ليبيا بعد مقتل القذافي.

ونتيجة الدور الذي لعبته قطر وقناة الجزيرة في دعم الانتفاضات، تتعرضان لاتهامات علنية بالتدخل في شؤون هذه الدول. ولم تقتصر تلك الاتهامات على المستوى الرسمي فقط، بل الشعبي أيضا، احتجاجا على ما يوصف بالتدخل القطري في الشؤون الداخلية، ومحاولة فرض أجندة سياسية خاصة. كما انتقد بعض المسؤولين الليبيين دور قطر في مرحلة ما بعد القذافي. كما تثار في مصر اتهامات حول تمويل قطر للجماعات السلفية، ومن ثم محاولة التأثير في شكل النظام السياسي الجديد.

ويمكن الإشارة إلى محدد مهم للسياسة الخارجية القطرية يتمثل في رغبة قطر في تحقيق المكانة الإقليمية والدولية، من خلال الخروج من دائرة الهيمنة السعودية على دول الخليج العربية. وقد انتهجت قطر واحدة من أكثر السياسات الخارجية ابتكارا في المنطقة من خلال الجمع بين متناقضات والمحافظة على شبكة تحالفات غاية في التعقيد والتضارب في الوقت نفسه (12).

وبعد نجاح الانتفاضات أعلنت السعودية وقطر والإمارات العربية عن اتجاهها لتقديم ودائع في البنوك المركزية، ودعم المشروعات الصغيرة، وذلك للمساعدة على مواجهة البطالة التي ارتفعت معدلاتها بنسب كبيرة، تجاوزت 20٪ في المتوسط، نتيجة ما صاحب الانتفاضات من آثار سلبية في مصادر الدخل القومي، مما تسبب في تراجع معدلات النمو الاقتصادي إلى أرقام سالبة بلغ 4.3٪ في مصر حتى حزيران/ يونيو 2011، فضلا عن تراجع الاحتياطي النقدي لدى البنك المركزي المصري بنحو 11 مليار دولار منذ بداية الانتفاضة قي 25 كانون الثاني/ يناير 2011 (13).

وبالنسبة لانتفاضة اليمن ونتيجة الجوار

الجغرافي المباشر لها مع دول الخليج العربية وخشية من أن انهيار النظام ستعقبه حالة من الفوضى، ستكون لها تداعيات مباشرة أمنية وسياسية وإنسانية على هذه الدول أقلها تدفق اللاجئين بأعداد كبيرة إليها. ورغبة منها في المساهمة في إعادة تشكيل البنية السياسية لتأمين جوارها الاستراتيجي لذلك حرصت دول الخليج أن يكون التحول في اليمن سلميا وتدريجيا مع خروج رأس النظام من السلطة دون أية متابعات قانونية؛ لذلك طرحت مبادرتها التي لاقت القبول من اغلب أطراف المعارضة ومن النظام في حين رفضتها قطاعات واسعة من المنتفضين لأنها أبقت كامل النظام السابق عدا رأسه. ومع أن هذا لم يكن مطلب المنتفضين لكن لا يمكن التقليل منه لأن اضطرار الرئيس علي صالح للتنحي جاء انصياعا لقوة ضغط الانتفاضة.

تركيا

خرجت الحكومة التركية من انتفاضتي تونس ومصر بأقل الخسائر والأضرار بعدما كشفت عن موقفها منذ البداية في رفض بقاء الرئيسين التونسي والمصري في السلطة، لكنها لم تحسم موقفها من الانتفاضة الليبية إلا بعد مطالبتها القذافي بالرحيل. أما في الحالة السورية فإنها فوجئت بالانتفاضة بعدما كان الرئيس بشار الأسد يطمئنها أن سوريا محصنة ووضعها في مأزق بسبب تصاعد الاحتجاجات مع تعنت الاستجابة للمطالب الشعبية (14). وعلى عكس تعاملها مع الحالة التونسية والمصرية، وبما يقترب من الحالة الليبية قليلا، تعتقد أنقرة، بما لها من معطيات موضوعية وجيوسياسية، وبما لها من ثقل ومن علاقات مع سوريا (15)، أنها قد تكون قادرة على إقناع الأسد باستخدام النصيحة أو بالضغط كي يقود عملية تحول سياسية حتى لا تدخل سوريا والمنطقة، في حالة من الفوضى فتتكبد تركيا خسائر كبيرة لما لهذا السيناريو من انعكاسات سلبية عليها، ولذلك فإن موقفها من الأزمة السورية اتسم بالتدرج (16). حيث بدأ من مرحلة النصح والإرشاد التي كانت من أبرز سماتها المطالبة بتشكيل حكومة جديدة تضم الأحزاب والتيارات السياسية والاجتماعية الفاعلة كافة، ووقف العنف ضد المدنيين والتراجع عن خيار الحسم الأمني والعسكري، كذلك العمل على تسريع الإصلاحات الدستورية والسياسية والاجتماعية والتعامل بجدية مع مطالب الأكراد.

أما المرحلة الثانية فقد كانت مرحلة إعادة تقييم الوضع، وأبرز سماتها سلسلة من التصريحات السياسية تحذر من الحل الأمني والتهديد بعواقب وإجراءات ضدها، انتهاء بمرحلة التحول والضغط، التي تجسد فشل أنقرة في إقناع دمشق بأخذ نصائحها وتوصياتها، واختيار أنقرة دعم المعارضة بفصائلها وأطيافها كافة لعقد اجتماعات لها في تركيا. ولمزيد من الضغط على السلطة السورية أعلن في إسطنبول في 2 تشرين الأول/ أكتوبر 2011، تأسيس المجلس الوطني السوري. ودعا رئيس الوزراء التركي أردوغان في الشهر نفسه الأسد للتنحي عن السلطة، وفرضت تركيا عقوبات اقتصادية ومالية على سوريا. وأعلن أن تركيا ستواصل فرض العقوبات وتزيدها

تدريجيا (17).

يمكن تلخيص دوافع الموقف التركي بما يأتي: الحفاظ على الصيغة التوافقية بين المبادئ وتحقيق المصالح والمحافظة على الرصيد الشعبي لحزب العدالة والتنمية الذي أيد بقوة الانتفاضة السورية. وعدم تجاوب الرئيس السوري مع النصائح التركية. ومخاوف انهيار السلطة وما يعقبه من فوضى وتداعيات ذلك على الصعيد الإقليمي من الناحية الأمنية والسياسية والاقتصادية. وخشية تعزيز وجود حزب العمال الكردستاني وعملياته انطلاقا من سوريا. والخوف من تقسيم سوريا وانفصال الأكراد. وتدفق اللاجئين السوريين إلى تركيا وما يشكله من تداعيات اقتصادية واجتماعية وأمنية (18). ثم أن موقف تركيا هذا يسير في اتجاه موقف الدول الغربية ولا يتقاطع معه. وهي غير مستعدة للتضحية بمصالحها الإستراتيجية مع الدول الغربية التي هي أكثر أهمية وديمومة مقارنة بمصالحها مع نظام مستبد لا بد أن يتغير. وهي تسعى جاهدة منذ سنوات للدخول في الاتحاد الأوروبي. وما زالت عضوا في حلف الناتو الذي دخلته عام 1952. وما زالت حريصة على البقاء فيه رغم صعود حزب العدالة والتنمية ذي المرجعية الإسلامية للحكم الذي اعتمد سياسة يمكنه أن يختلف مع الغرب في أمور معينة من دون المساس بالتحالف الاستراتيجي.

وكان وزير خارجية تركيا أحمد أوغلو قد صاغ خطوط فكر الحكومة الاستراتيجي، مستندا إلى موقع تركيا الاستراتيجي ودورها في السياسة الدولية، والذي يعتمد مقاربة جيوبوليتيكية ترى أن السياسة الخارجية للدولة هي محصلة لتفاعل ثلاثة أبعاد هي: التاريخ السياسي، الهوية الثقافية، الجغرافية السياسية والإستراتيجية للدولة والإقليم المجاور.

وكان هناك تردد في موقف تركيا من الرئيس الليبي، إذ كانت العلاقات معه طيبة، لأنه سمح باستثمارات تركية في ليبيا بلغت ثلاثين مليار دولار في سوق التشييد والبناء والعقارات. ولكن إزاء تدهور الأوضاع، بدأت أنقرة تدعو القذافي للتنحي عن الحكم. وفي شهر مايس/ ايار، أغلقت تركيا سفارتها في طرابلس، واعترفت بالمجلس الانتقالي في ليبيا. وكان هذا الاعتراف الذي تأخر بعض الوقت ضرورة حيوية لساسة تركيا في الشرق الأوسط. وقد سارع وزير خارجية تركيا بحسم الموقف بزيارة بنغازي وتقديم الدعم المالي الفوري لتوفير السيولة النقدية لدفع رواتب وأجور العاملين (19).

من هنا يتبين لنا أن السياسة التي تبنتها تركيا جعلت منها لاعبا إقليميا ودوليا رئيسيا لا يمكن تجاوزه في المنطقة بخلاف الدور الذي كانت تلعبه قبل مجيء حزب العدالة والتنمية للحكم حيث كانت القرارات الإستراتيجية يتم البت بها من قبل العسكر الذي تم إضعاف دوره وباتت القرارات المهمة يبت فيها مجلس الوزراء.

إيران

أسهمت الانتفاضات في زيادة الاشتباك بين دول الخليج العربية وإيران، وانتقل بعد الانتفاضة السورية إلى توتر عربي – إيراني نتيجة دعم إيران للنظام السوري، بشكل افقدها جزءا كبيرا من شعبية تمتعت بها

سابقا ضمن اتجاهات الرأي العام العربي. حيث انتقلت إيران من الهجوم الاستراتيجي إلى مرحلة الدفاع عن مواقعها، ليس ضد أمريكا وإسرائيل، بل ضد انتفاضة شعبية تهدد مواقعها ونفوذها.

تشعر إيران بأن التغيير في سوريا يستهدفها جيوستراتيجيا إذ يكسب اللاعبون الآخرون نقاط قوة، في حين تعجز هي – بسبب طبيعة نظامها– عن تجيير هذا التغيير لصالحها أو على الأقل الحد من الخسائر.

وتؤشر جميع المعطيات أن الدور الإيراني سيتقوقع في المنطقة، وسيعتاش على حكومات قريبة منه مذهبيا، دون أن يعني استدامة هذا الدور، خاصة في ظل الاختلالات البنيوية التي تعيشها إيران داخليا، وتأثير انحسارها الخارجي في قوة النظام في مواجهة المعارضة الداخلية التي يفترض أنها سوف تتعزز نتيجة لتأثير الانتفاضات العربية وفشل السياسة الخارجية الإيرانية (20).

إن محددات الموقف الإيراني من الانتفاضة السورية تمليها اعتبارات المصالح الإستراتيجية والأمن القومي والتنافس والصراع الإقليمي على النفوذ في المنطقة بالأخص مع السعودية واعتبارات الصراع مع الدول الغربية وبالأخص مع الولايات المتحدة (21) والمرجعية المذهبية ومقدار توظيفها لصالح الاعتبارات في أعلاه وليست لها أية علاقة بما يسمى بالمبادئ الإسلامية في نصرة الشعوب المستضعفة والمظلومة؛ وأوضح دليل موقفها من النظام السوري الذي يضطهد شعبه في الوقت الذي أيدت فيه الانتفاضات في البلدان العربية الأخرى.

أهم الاستنتاجات

– لم يكن المحيط الإقليمي والدولي مهيئا لتبني موقف واضح من الانتفاضات التي فاجأته لذلك اتسم رد فعله في البداية بالارتباك والتردد والانتظار.

– وفي النهاية موقف الخارج وتدخله أملتهما مصالح الدول وخشيتها من أن تخرج الانتفاضات عن مسارات يصعب التحكم بها. وقد جارى موقفها مسيرة تطور الانتفاضات وأثر في مجراها ونتائجها بدرجات متفاوتة.

– تعتمد درجة تأثير الخارج في تشكيل النظم السياسية التي تعقب نجاح الانتفاضات على طبيعة المرحلة الانتقالية وتفاعلاتها وتوازن القوى السياسية والاجتماعية ودرجة تماسك النسيج الاجتماعي الداخلي.

– من السابق لأوانه الحديث عن ظهور تكتلات إقليمية جديدة بين الدول التي نجحت فيها الانتفاضات قبل اكتمال تحولات المرحلة الانتقالية.

– لم تحدث انعطافات مهمة في السياسة الخارجية للدول التي نجحت فيها الانتفاضات وفي معظمها تسير على وتيرة السياسة السابقة نفسها.

– مهما كانت درجة تأثير سياسة الولايات المتحدة والدول الأوروبية في مجرى ونتائج الانتفاضات فإنها لا يمكن أن تحتفظ بالنفوذ السابق نفسه في المنطقة بعد أن أصبح الرأي العام قوة مؤثرة في معادلة صنع القرار السياسي.

2012/9/3

الهوامش

(1) راجع مصطفى علوي "كيف يتعامل العالم مع الثورات العربية؟"، السياسة الدولية، العدد 184، 2011، ص 36–41.

(2) راجع خليل العناني "الثورة المصرية..التداعيات الإقليمية والدولية"، شؤون عربية، العدد 145، 2011، ص 79–81.

(3) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، التوازنات والتفاعلات الجيوستراتيجية والثورات العربية، الدوحة، 2012، ص 9–10.

(4) جايمس لاروكو "الولايات المتحدة والثورات العربية"، شؤون الأوسط، العدد ١٣٨، 2011، ص54–59. جايمس لاروكو مدير مركز الشرق الأدنى وجنوب آسيا للدراسات الإستراتيجية، جامعة الدفاع الوطني في الولايات المتحدة الأمريكية، وسفير سابق في الكويت، كما عمل في السفارة الأمريكية في تل أبيب.

(5) راجع بشير عبد الفتاح "أمريكا والربيع العربي"، شؤون عربية، العدد 146، 2011، ص 66–67.

(6) راجع عصام عبد الشافي "العامل الدولي: تراجع الدور الأمريكي في البيئة الإستراتيجية الجديدة"، السياسة الدولية، العدد 186، 2011"، ص 91.

(7) المصدر نفسه، ص 92.

(8) للمزيد راجع معمر فيصل سليم خولي "تأثير الانتفاضة الشعبية في سوريا على العلاقات التركية الروسية"، شؤون عربية، العدد 150، 2012، ص 168–176.

(9) للمزيد راجع عبد الخالق عبد اللّه "انعكاسات الربيع العربي على دول مجلس التعاون الخليجي"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2012، ص 7.

(10) عزمي خليفة "التأرجح: موقف دول الخليج من ثورة 25 يناير في مصر"، السياسة الدولية، العدد 187، 2012، ص 50–51.

(11) عبد الخالق عبد اللّه، مصدر سابق، ص 7.

(12) مروة فكري، "ما بعد القوة الناعمة: السياسة القطرية تجاه الثورات العربية"، السياسة الدولية، العدد 187، 2012، ص 162–163.

(13) حمدي عبد العظيم المال والسياسة: التمويل الخارجي للتفاعلات الانتقالية داخل الدول العربية"، السياسة الدولية، العدد 186، 2011، ص 76.

(14) معمر فيصل سليم خولي، مصدر سابق، ص 161– 163.

(15) العلاقة المميزة بين تركيا وسوريا من أبرز إنجازات حزب العدالة والتنمية الخارجية. حيث تحولت العلاقة بين الدولتين إلى علاقة إستراتيجية، وتم حل العديد من المشكلات العالقة بينهما. وتم عام 2009 إنشاء مجلس تعاون إستراتيجي يضم 16 وزيرا من البلدين. وبلغ عدد الاتفاقات التي وقعتها سوريا مع تركيا في الجلسة الأولى للمجلس الإستراتيجي قرابة الـ56 اتفاقية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاستثمار والمياه والمصارف، وغيرها. وتم تنفيذ كل هذه الاتفاقيات في الوقت المحدد لها تماما، وهو ما يلفت لدى أهمية الالتزام بين الدولتين وجدية العلاقة بينهما. راجع معمر فيصل سليم خولي، مصدر سابق، ص 159–161.

(16) علي حسين باكير "محددات الموقف التركي من الأزمة السورية الأبعاد الآنية والانعكاسات المستقبلية"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2011، ص 7.

(17) راجع معمر فيصل سليم خولي مصدر سابق، ص 161– 163.

(18) راجع خالد عبد العظيم "العثمانية الجديدة..." السياسة الدولية، العدد 187، 2012، ص 23–26.

(19) المصدر نفسه، ص 23–26.

(20) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مصدر سابق، ص 20–31.

(21) قال محسن رضائي أمين سر مصلحة تشخيص النظام في إيران إن "سوريا والعراق وإيران وأفغانستان يشكلون حزاما من الذهب في الشرق الأوسط، والولايات المتحدة تسعى بجميع الوسائل إلى امتلاك القرار في دول هذا الحزام" أنظر جريدة الشرق الأوسط عدد 19–8–2012.

ذخائر اليورانيوم المنضب.. مستجدات علمية

د. كاظم المقدادي

الدكتور كاظم المقدادي أكاديمي وباحث بيئي عراقي مقيم في السويد. حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الطبية من الأكاديمية الطبية البلغارية في صوفيا ومتخصص بطب الأطفال وبطب المجتمع. وهو باحث ومتخصص بالصحة والبيئة وبالتلوث الإشعاعي والأضرار الصحية والبيئية لاستخدام أسلحة اليورانيوم المنضب. اختير د. المقدادي عضواً في لجان تحضيرية وعلمية للعديد من المؤتمرات والورش العلمية. وهو منسق الحملة من أجل تنظيف البيئة العراقية من المخلفات الحربية المشعة. له كتب عدة والعشرات من الدراسات والبحوث والأوراق العلمية، المنشورة في العديد من المجلات العلمية، أو المقدمة في مؤتمرات وورش عمل علمية دولية، إضافة إلى نشره مئات المقالات والتقارير العلمية المنشورة في العديد من المجلات العراقية والعربية وعلى شبكة الانترنيت. والى جانب ذلك ينشر دورياً في مجلة "البيئة والتنمية" حول ما يستجد في البيئة والتلوث البيئي في العراق. في هذا المقال يبحث د. المقدادي في المستجدات العلمية بشأن أسلحة اليورانيوم المنضب وأضرار استخدامها.

تمهيد

منذ عقدين والجدل العلمي يتواصل بشأن أسلحة اليورانيوم، التي استخدمت وجربت لأول مرة في ميادين القتال "الحية" في الحرب على العراق عام 1991، ومن ثم في دول عديدة أخرى وضد العراق مجدداً في عام 2003. وأجريت عليها تطورات كبيرة، وأنتج منها الجديد، وحققت نجاحات فائقة – بالمعيار العسكري، من حيث قدرتها التدميرية الهائلة لآليات " العدو" والفتك بالبشر والحيوان والنبات، التي فاقت الأسلحة الأولى بنحو 400 ضعفاً.

لقد بذل خبراء البنتاغون وأعوانه كل ما بوسعهم لإخفاء أسرار ذخائره المصنعة من اليورانيوم المنضب والتغطية عليها، تارة بالتكتم والتعتيم، وأخرى بالنفي والتضليل، وحتى الكذب الفج. وأنفق الملايين من الدولارات على دراسات ليخرج معدوها

باستنتاج واحد: " لا ضرر" من استخدام تلك الأسلحة على الإنسان والبيئة. بيد أنه برغم كل ذلك، مالت الكفة لصالح جبهة العلماء والخبراء والباحثين المناوئين لهذه الأسلحة، خصوصاً بعد أن كشف العلم الحديث، الجاد والمستقل، الكثير من أسرارها...

المؤلم والمريب أن يتواصل في العراق، على أيدي المسؤولين المتنفذين في البيئة والصحة وغيرهما تجاهل كارثة استخدام تلك الأسلحة وتداعياتها الصحية والبيئية، والمشاركة الفاعلة في التعتيم وتشويه الحقائق، رغم موت ضحاياها، وفي مقدمتهم أطفالنا، يومياً أمام أعينهم. ولا تفسير لهذا الموقف غير المسؤول، المجرد من الحرص الوطني وغير المهني، سوى الجهل وعدم الإلمام العلمي أو الوقوع في فخ البنتاغون وتضليلاته وحبائله الخادعة. ومنهم من لم يخرج من متاهاتها، وما أنفك يتخبط في تصريحاته.

هذه الورقة تسلط الضوء على الكثير من الحقائق والمستجدات العلمية ذوات العلاقة بطبيعة الأسلحة التي استخدمت في الحرب على العراق وأضرارها البيولوجية، التي يجهلها الكثيرون، علهم يستفيدون منها ويغيروا، في ضوئها، مواقفهم المتزمتة وغير العلمية.

طبيعة ذخائر اليورانيوم

عقب أول استخدام لها في عام 1991، كشف العلماء بعن ان هذه الذخائر مصنعة من "اليورانيوم المنضب" Depleted ura-nium، وبينوا لاحقاً بن هذه المادة ما هي إلا ناتج ثانوي by-product لعملية تخصيب enrichment اليورانيوم للحصول على تراكيز عالية للنظير235-U، الذي هو عنصر عالي الإشعاع وقابل للانشطار، لاستخدامه في مفاعلات الطاقة الذرية كوقود وفي إنتاج القنابل النووية.

إن اليورانيوم المنضب (واختصاره DU) هو "مصطلح صناعي" للنفايات الناتجة عن تخصيب خام اليورانيوم- حسب تعبير العالمة برتل .(1) Rosalie Bertellوعرفته هيئة التنظيم النووي الأمريكية (NRC) بأنه ذلك اليورانيوم الذي تقل فيه نسبة النظير U-235 عن 0.711 ٪ (2). وحسب التعليمات الصادرة عن البنتاغون بخصوص المواصفات العسكرية، فإن نسبة النظير U-235 في اليورانيوم المنضب لا بد أن تكون أقل من 0,3٪، ولكن الواقع العملي يفيد بأن البنتاغون يستخدم الـ DU المحتوي على U- 235 بنسبة لا تقل عن 0.4 ٪ (3).

آخذين بنظر الاعتبار طبيعتها وتداعيات استخدامها الصحية والبيئية. يرى الكثير من العلماء والباحثين، ونحن منهم، ان أنسب ما يلائم ذخائر اليورانيوم، التي استخدمت لحد الآن، هو تسميتها "الذخائر المشعة". وسندلل على صحة هذه التسمية لاحقاً بما يكفي من أدلة علمية.

لقد فنّد العلم مزاعم البنتاغون وأكاذيبه كافة بشأن الـ DU وأسلحته، كاشفاً أن نفايات نووية ثانوية لعملية تخصيب اليورانيوم، حاوية العديد من النظائر المشعة، الموجودة في اليورانيوم الطبيعي، حيث

يشكل النظير U-238 النسبة الغالبة فيها، لكنه يمتلك أطول عمر نصف Half-Life (4)قرابة 4.5 مليارات سنة. ولا تختلف النظائر المشعة فيه عما في اليورانيوم الطبيعي، قبل وبعد تخصيبه، إلا بفارق النسب، حيث تقل نسبة النظير U-235 بعد عملية التخصيب من 0.72 إلى 0.20 والنظير U-234 من 0.0058 إلى 0.0008. والنظير الأخير رغم أن نسبته ضئيلة، إلا أن نشاطه الإشعاعي يمثل 48.9 ٪ من مجموع النشاط الإشعاعي الصادر عن اليورانيوم الطبيعي، وهي أعلى نسبة، حيث أن النشاط الإشعاعي الصادر عن نظير U-235 يمثل 2.3 ٪ ، بينما الصادر عن U-238 يمثل 48.8 ٪. ويرجع سبب ذلك إلى ارتفاع النشاط الإشعاعي النوعي Specific radioactivity للنظير U-234، حيث يبلغ 6200 مايكروكيوري/ كغم. علماً أن هذا النشاط لليورانيوم الطبيعي يساوي 0.67 مايكروكيوري/ كغم، بينما لليورانيوم المنضب يقارب 0.40 مايكروكيوري/ غرام (5) ، أي نحو 400 مايكروكيوري في الكيلوغرام الواحد، وهو ما يفوق النشاط الإشعاعي النوعي لليورانيوم الطبيعي بنحو 570 مرة.

ويذكر أن الولايات المتّحدة تمتلك أبحاثا ودراسات كثيرة عن أخطار اليورانيوم المنضّب، الأمر الذي تطلب من وكالة حماية البيئة هناك أن تضع خططاً مفصّلة لحماية الناس والبيئة في مواقع خزن المادّة (6). ويتم، إزاء المخاطر الإشعاعية لهذه النفايات، عزلها عن البيئة الخارجية، ضمن متطلبات السلامة النووية. ولا يسمح لأحد بالتعامل معها إلا لمختصين متدربين على السلامة النووية (7). بيد أنه برغم كل إجراءات السلامة المتخذة، خلقت هذه النفايات مشكلات بيئية كبيرة، ومتاعب للإدارة الأمريكية، وانبثقت حركة مناهضة ومتصاعدة ضدها من حماة البيئة والمناوئين لأسلحة اليورانيوم. وهو ما اضطر خبراء الصناعة النووية البحث عن طريقة للتخلص منها، فوجدوا أفضل طريقة هي توظيفها في صناعة الأسلحة.

الأمر المهم الآخر، هو احتواء الذخائر الحربية التي استخدمت في الحروب الأخيرة على نظائر أخرى شديدة الإشعاع ليست طبيعية، وإنما تُنتج في المفاعلات النووية، مثل البلوتونيوم و .U-236 فقد عثر العالم الأمريكي (من أصل كرواتي) دوراكوفيتش Asaf Durakovic على النظير U-236، إضافة لـ DU في أجساد مرضى من قدامى المحاربين. وعرض نتائج أبحاثه أمام (المؤتمر الأوروبي للطب النووي) الذي انعقد في باريس عام 2000. كما نشرت أعماله في كتاب بعنوان "اليورانيوم الناضب... الحرب الخفية"، الذي حظي باهتمام واسع من وسائل الإعلام الفرنسية (8). وأثبتت 4 مختبرات علمية معروفة عالمياً وجود هذا النظير في شظايا قذائف وجدت في (كوسوفو) أطلقها سلاح أميركي. فأعلن البرفسور (بيير روسيل) الخبير الفيزيائي بالمعهد الوطني للبحث العملي بباريس، أن كمية النظير التي وجدت في ذلك الوقت ضئيلة، لكن المشكلة لا تكمن في الكمية وإنما تكمن في أن النظير U-236 لا يمكن إنتاجه إلا في مفاعل ذري، حيث

تصاحبه عناصر أخرى أكثر إشعاعية. وهو بالذات نفاية مشعة طويلة العمر وبغيضة، وقد وجدت في الوقود النووي المستهلك، وفي عملية إعادة معالجة اليورانيوم المصنعة من الوقود النووي المستهلك (9). وأعلن خبراء في مجال الإشعاع والطب النووي، من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، تشكيكهم في ادعاءات "عدم وجود خطورة " لذخائر اليورانيوم ولوجود جزيئات اليورانيوم في مجرى الدم والعظام. وأعلن جون فرانسوا لا كرونيك- مدير (الوكالة الوطنية للوقاية من الإشعاعات) التي تشرف على سلامة العاملين في مصانع الطاقة النووية في فرنسا: لقد وجد اليورانيوم المنضب مخزّنا في العظام، وما دام قد دخل العظام فانه سيصل إلى النخاع. ويمكن لأي نوع من الإشعاع أن يسبب سرطان الدم ارتباطا بطول فترة التعرض له (10).

لماذا يستخدم اليورانيوم المنضب في الأعتدة الحربية؟

يعود سبب استخدام الـ DU في الأعتدة الحربية لسببين:

أولهما، ارتفاع كلف التخلص منه كناتج عرضي من عمليات التخصيب، التي تخلف كميات كبيرة منه، حيث تمتلك الولايات المتحدة وحدها مئات ملايين الأطنان. وبما أن عملية التخلص منه جوبه برفض واسع ومقاومة شديدة من قبل المنظمات البيئية، وحماة البيئة هناك، قامت الإدارة الأمريكية بمنح كميات كبيرة منه مجاناً لمعامل الأسلحة للتخلص منها ولتحويلها الى أسلحة.

ثانيهما، وهو الأهم، كثافة اليورانيوم المنضب العالية (18,95 ميغا جرام/ م3)، حيث تبلغ 1,7 أكبر من كثافة الرصاص، وتساوى تقريباً كثافة التنجستين والذهب وهذه الكثافة تمكنه من اختراق الحديد بسهولة. ولذا يتم استخدامه في تصنيع الأعتدة المضادة للدروع. علماً أن شريحة رقيقة من اليورانيوم المنضب يمكن لها أن تمتص كمية أكبر بكثير من الإشعاعات المخترقة (أشعة غاما) مما يمكن أن تمتصه شريحة ذات سمك أكبر بكثير مصنوعة من الرصاص أو الحديد، وهذه ميزة فريدة ومهمة. وعدا هذا، فاليورانيوم المنضب مادة سريعة الاشتعال pyrophoric، حيث تسبب الحرارة الناتجة عن ارتطام الطلقة بالهدف احتراق الدروع وصهرها مهما كانت سميكة ومتينة، إلى جانب سهولة اختراقها..هذه الميزة وصفها العالم غونتر Siegwart- Horst Günther :" أشبه بقص قطعة زبد بسكين حادة"(11).

بفضل هذه الخصائص يكثر استخدام اليورانيوم المنضب في التطبيقات العسكرية، في الأسلحة والمعدات الحربية. وتقوم معامل الأسلحة بتصنيع الأعتدة الخارقة- المضادة للدروع من عيار 30 و mm120 ويستخدم كذلك في زيادة كفاءة التدريع لبعض دبابات Abrams، علاوة على تصنيع أنواع من الأعتدة ذات العيارات الصغيرة لزيادة كفاءتها في اختراق الدروع. كما وصنعت منه قنابل ضخمة وصواريخ بعيدة المدى لضرب المواقع البعيدة، وتحت الأرض، والعالية أيضاً.

هل ذخائر اليورانيوم المنضب "آمنة" حقاً؟

لم يعد سراً ما سببه استخدام هذه الذخيرة من أضرار بايولوجية للبشر نتيجة لما تنتجه من سموم إشعاعية وكيميائية، حيال إشعاعاتها الجلية، فان الصفة Depleted ومرادفها العربي:"منضب" أو "مستنفد"، أو "مضعف"، أو "ناضب"،الخ، المضافة لليورانيوم،هي صفة ليست فقط غير علمية، وغير دقيقة، وإنما هي خادعة ومضللة، أراد منها خبراء البنتاغون والصناعة الحربية التغطية على خطورة هذا المعدن الخسيس - Metal of dishonor كما وصفه العلماء (12)، والادعاء كذباً وزوراً بأن هذا النوع من اليورانيوم "ليس مضراً" بالصحة والبيئة – كما أسلفنا، مانحين إياه توصيفات كاذبة لتمرير مزاعمهم بأنه "ضعيف" من حيث سميّته الكيميائية، و"واطئ المستوى" من حيث اشعاعيته، بينما الواقع يؤكد أن الشيء الوحيد الواطئ أو الضعيف فيه هو ثمنه، فهو رخيص بشكل بخس (يكلف الكيلوغرام الواحد منه دولارين فقط)..

من هنا، جاءت الكثير من التحذيرات الموضوعية للعديد من العلماء المعروفين في العالم. فقد أعلنت العالمة سلاتر Alice Slater:" لا تخدعك تسمية (يورانيوم منضب)، التي توحي لأول وهلة بأنها تعني الوقود النووي المستنفد، الذي لا ضرر فيه. إنه مادة سامة جداً ومسرطنة". وقالت العالمة برتل: لقد حولوا المقاتلين في حرب "عاصفة الصحراء"، مع الشعبين العراقي والكويتي، ضحايا لآخر التجارب الحربية على الكيان البشري. وأرى أن التغاضي عن ذلك جريمة مدانة ". وأعلن العالم روكي Doug Rokke : " ان استخدام اليورانيوم المنضب جريمة ضد اللّه والبشرية، ويجب ان تتوقف". ووصفت العالمة لورين موريه Leuren Moret ذخائر اليورانيوم بـ "الأسلحة الغريبة" Exotic Weapons، محذرة، في لقاءات لها في 42 بلداً، من مخاطر ما يسمى بـ "اليورانيوم المنضب" (13). ووصف العديد من العلماء والعسكريين الأسلحة المستخدمة، بـ" الرصاصة القذرة" و"القنابل القذرة" و"الصواريخ القذرة" المهددة للبشرية ولكافة الكائنات الحية، والتي حولت الأرض إلى كوكب للموت "(14).

غبار اليورانيوم المنضب

للتأكد من خطورة ذخائر اليورانيوم المنضب يتعين التعرف إلى طبيعة غبار اليورانيوم وتأثيراته. فقد ثبت علمياً أن التأثير الإشعاعي الكامل لليورانيوم المنضب يحدث بعد ستة أشهر من الإنتاج. وعند استخدام ذخيرته يحترق اليورانيوم "المنضب" فيها فور اختراقها للهدف (المدرعة، مثلاً)، مولداً درجات حرارة عالية جداً، تصل (3000–6000) درجة مئوية، ويتحول قرابة 70 ٪ منه إلى سحابة من غبار دقيق جدا مؤلف من أوكسيد اليورانيوم (15) Uranium Oxides، حيث تخلف القذيفة الكبيرة المنفجرة حوالي كيلوغراماً من غبار أوكسيد اليورانيوم

(16). وتنتج قذيفة "الطلقة الفضية" Silver Bullet الواحدة، عيار 120 ملم ما بين 0.9 و 3.1 كيلوغراماً من غبار اوكسيد اليورانيوم (17). أما القذيفة المخصصة لإصابة الدبابات أو المدرعات فتنتج نحو 3 كيلوغرامات من الغبار المشع، الذي يلوث مساحات كبيرة حول الهدف المضروب.

يتكون غبار أوكسيد اليورانيوم من دقائق سيراميكية مجهرية قابلة للاستنشاق او الابتلاع، يبلغ حجمها اقل من 5 ميكرون (18). بل وتحتوي على 44٪ من أكاسيد اليورانيوم المتحررة دقائق بأحجام تقل عن 1 ميكرون (19) (20). هذه الجسيمات النانوية Nano-particles تعمل وكأنها غاز أكثر من كونها جسيمات. ويبقى غبار اليورانيوم المنضب محمولا في الهواء لفترات زمنية طويلة، وهذه هي اخطر طريقة للإضرار بالسكان المدنيين في مناطق القتال (21)، فرأت دراسات ميدانية ان هذا الغبار يستطيع أن ينتقل الى مسافة 26 ميلاً (22). ورأت أخرى انه يستطيع قطع مسافات اكبر (23)، عبر الرياح والمياه الجارية. فقبل أكثر من عقد تناقلت وكالات الأنباء تقريراً لعلماء من دول البلقان كشفوا فيه وصول التلوث الإشعاعي الناجم عن قصف يوغسلافيا بأسلحة اليورانيوم خلال حرب البلقان الى بلغاريا وألبانيا والنمسا ورومانيا واليونان، وهي تبعد عنها بمئات الكيلومترات. وفي ما بعد وجد الغبار المشع بعد 10 سنوات من حرب الخليج. وأكد بحث للعالم البريطاني باسبي Chris Busby بقاء الغبار المشع الصادر عن أسلحة اليورانيوم المنضب في الجو لمدة تصل الى 10 سنوات وبمستويات خطرة. وأوضح بأن عينات الهواء التي أخذت في عام 2000 من ساحات معارك حرب الخليج. أظهرت ان مستويات الجسيمات المعالجة بالطاقة الموجودة في هواء تلك المناطق تزيد بـ 10 أضعاف في مدينة البصرة و 20 ضعفاً في بغداد (24). وفي ما بعد، وجد (باسبي مورغان) وصول الغبار المشع لحرب الخليج الى أوربا (25).

وكان بيئيون أمريكيون قد وجدوا قبل أكثر من ثلاثة عقود، في منطقة يقع فيها مصنع لمعالجة اليورانيوم المنضب، كمية 5– 10 أطنان مترية من غبار اليورانيوم المنضب مستقرة في الهواء والتربة وأسطح المنازل وغيرها القريبة من المصنع. فتم غلق المصنع في عام 1984، وتمت إزالة التربة الملوثة. لكن في عام 2006، أي بعد 22 عاماً، أثبتت عينات الغبار المأخوذة مجدداً من المنطقة وجود اليورانيوم المنضب في التربة وفي أجساد العاملين في المنطقة، ونتائج الدراسة نشرتها مجلة "علوم البيئة" (26). لو قارنا هذه النتائج بتلوث البصرة باليورانيوم المنضب سنجد أن هناك 114.80 طن متري من هباء اليورانيوم المنضب تنتشر عبر الرياح الى مناطق واسعة في العراق ودول الخليج، ومن ثم يتغلغل هذا التلوث إلى مناطق واسعة مع كل عاصفة رملية تضرب هذه المناطق. ويقدر أن القوات المسلحة الأمريكية والبريطانية خلفت في عام 2003 ما يقارب الـ 420 طناً متريا من غبار اليورانيوم المنضب، وهي كمية كبيرة وكافية كي تغطي التربة في كامل العراق بعد انتشارها عبر الرياح (27).

اليورانيوم و"متلازمة حرب الخليج"

لليورانيوم المنضب خواص سمية كيميائية وإشعاعية – سنأتي عليها بعد قليل – بسببها أصيب مئات الآلاف من الذين تعرضوا له بالسرطانات وحالات مرضية غريبة غير قابلة للعلاج، وتوفي منهم الآلاف. ولم تقتصر ضحاياه على الذين استخدمت ذخيرته ضدهم، فتعرضوا لها مباشرة أو بصورة غير مباشرة، وإنما طالت حتى الذين استخدموا تلك الأسلحة، حيث وصل عدد قدامى المحاربين الذين يعانون "متلازمة حرب الخليج" في عام 2006 الى أكثر من نصف عدد القوات (720 ألفاً) التي كانت منتشرة في 1991. والعدد يتزايد سنوياً.

لقد أكدت المسوح الميدانية انتشار إشعاعات الأسلحة المستخدمة في ميادين القتال وحولها (28). وتوقع خبير الفيزياء النووية العالم الأميركي ديتز Leonard Ditz ظهور إصابات إشعاعية كثيرة لدى الجنود الأميركيين في المستقبل، لأن مفعول أوكسيد اليورانيوم المتولد من إنفجار ذخائره طويل الأمد (29). وفعلاً، وجد العالم الكندي شارما Hari D.Sharma اليورانيوم المنضب في بول ودم عسكريين كنديين وبريطانيين وأمريكيين، شاركوا في حرب عام 1991، ولدى مدنيين عراقيين من البصرة وغيرها (30). وتوقع، في ضوء نتائج العينات التي فحصها، أن يموت بالسرطان ما بين 5 – 12 في المئة من الذين تعرضوا لليورانيوم المنضب، موضحاً: قد يستغرق ذلك 20 عاما، أو أقل، وقد تصبح نسبة المتوفين اكبر أو اصغر. ولكن، في كل الأحوال، ثمة خطرا واضحا وكبيرا. وأكد شارما أن (100) ألف مواطن في البصرة وحدها أصيبوا بالسرطان بين عامي 1991 و 1998، وأن (75٪) منهم أطفال، وسجلت حالات من الإسقاط والاعتلال العصبي والتشوهات الجنينية أكثر بكثير مما كان معتادا (31). وتأكيداً لنتائج شارما، أجرى العالم (دوراكوفيتش)، وهو خبير دولي بالإشعاع والطب الذري، تحليلات مختبرية للعسكريين الذين يعانون "أعراض" حربي الخليج والبلقان، ووجد اليورانيوم المنضب في بول، ودم، وشعر، وعظام جنود أمريكيين وكنديين وبريطانيين وغيرهم، وهو أول من أكد علمياً صلة تلك الأعراض باليورانيوم المنضب (32). الى هذا، أكد العالم الألماني (غونتر) أن غبار اليورانيوم المنضب المستنشق سامّ جدا ويمكن أن يؤدّي إلى السرطان والتشوهات الخلقية. وبينت نتائج دراساته تشابه أعراض حرب الخليج لدى جنود التحالف وأطفالهم وتطابق العاهات الولادية لدى أطفال قدامى المحاربين الأمريكان والعراقيين (33).

حقائق وأدلة علمية دامغة لم يفلحوا بطمسها

* تأكد كذب المزاعم القائلة بان اليورانيوم المنضب يحتوي فقط النظير U-238 وأنه "ليس مضراً".

* ربطت دراسة برعاية الجيش الأمريكي في عام 1990 السرطان باليورانيوم المنضب، وفندت "عدم" خطورة أشعة ألفا، مؤكدة: ليست هناك جرعة من الانخفاض

بحيث يكون احتمال تأثيرها صفراً (34). وأكد العالم (دوراكوفيتش) أنه حتى أصغر جرعة ألفا داخلية تمثل خطر إشعاع ناشط وعال (35). ونشرت مجلة The New Scientist تأكيدات بأن لا وجود لحد أدنى من الإشعاع يمكن الجزم بأنه آمن (36).

* كشفت التحريات الميدانية في العراق التي أجراها البروفسور (غونتر) عن أن الجرعة الإشعاعية على سطح قذيفة اليورانيوم المستخدمة (الخرطوشة) كانت 11 مايكروسيفرت (Sv) في الساعة (37)، بينما الجرعة السنوية المسموح بها في ألمانيا هي 300 مايكروسيفرت. أي أن التعامل مع مثل هذه القذائف يعطي الجرعة السنوية في يوم واحد (38). وأظهرت الدراسات التي أجريت بعد انتهاء حرب الخليج بان نسبة النشاط الإشعاعي في المناطق التي جرى فيها استخدام هذا النوع من الأعتدة بلغت 270 ميلليراد في الساعة (39)، أي ما يزيد على 30 ضعفاً لأقصى ما يتعرض له العاملون في الصناعة النووية (40).

* تبين أن اليورانيوم المنضب يحتوي على حوالي 30 ٪ من إنبعاثات العنصر شديد الإشعاع (41) U-235 وعند تحلل اليورانيوم المنضب ونواتج تحلله تنبعث إشعاعات ألفا وبيتا وغاما، التي تشكل بدورها تعرضاً إشعاعياً داخلياً وخارجياً للذين يتعاملون مع القذائف الحربية أو المعدات القتالية المصنعة من الـ DU (42) وكان البروفسور (دوراكوفيتش) قد أكد أن 1 ملليغرام من اليورانيوم يطلق خلال سنة 390 مليون من دقائق ألفا، و780 مليونا من دقائق بيتا، بالإضافة إلى أشعة غاما. وإن نظير U–238 ينتج المليغرام الواحد منه في اليوم الواحد نحو مليون و 70 ألفاً من جسيمات ألفا. ويطلق كل جزيء من أشعة ألفا ما بين – 2.2 4.15 مليون إلكترون فولت (Mev million - electron-volts) وعند بلع او استنشاق هذا القدر من الطاقة فانه يدمر اقرب 6 خلايا إليه في العضو، ويحتاج تفكك الحامض النووي DNA المخزون في الخلية 6–10 إلكترون فولت ev electron volt فقط. وهكذا فان أشعة ألفا قادرة على أن تسبب، بطاقتها الإشعاعية والتأينية العالية، تدميراً خلوياً Cellular damage جسيماً للبناء الحيوي لجسم الإنسان مهاجمة الرئتين والعقد اللمفاوية والكلى والدم والعظام والدماغ والمعدة والمبايض وحتى الأجنة بأكملها. هذا بالإضافة إلى ما تبعثه نواتج التفاعل من جزيئات أشعة بيتا وغاما، والتي تسبب تلفاً إشعاعياً إضافياً. وبالرغم من أن اليورانيوم المنضب لا يشكل ضرراً خارجياً ملحوظاً، إلا أنه يشكل ضرراً داخلياً جسيماً عن طريق التنفس والبلع أو الجروح الملوثة (43). وتبعثُ مُخترِقات اليورانيوم المنضب أو أجزاء منها أشعة بمقدار 300 مللي ريم/ الساعة (44)، ولذا لا يسمح بلمسها أو التقاطها من دون قفازات واقية (45).

* أثبتت دراسة للعالمة ميللر Alexandra C.Miller وزملائها بأن أيونات اليورانيوم تقوم بتحويل بعض الخلايا إلى أورام سرطانية، وتشبه مخاطر هذه السرطانات الى حد كبير تلك الناجمة عن المعادن الثقيلة

(46). وتبين ان لأشعة (ألفا) المنبعثة من اليورانيوم المنضب دورا كبيرا في تدمير الحامض النووي (DNA) وفي حدوث الطفرات والسرطانات في الخلايا التي تتعرض لها. فقد أكد العالم البريطاني كوجهيل Roger Coghill، وهو احد علماء البايولوجيا التجريبية، العلاقة بين اليورانيوم المنضب وأنواع السرطان في العراق، موضحاً أن جزيئاً واحداً من هذه المادة يستقر في العقدة اللمفاوية كفيل بتدمير جهاز المناعة بالكامل، الأمر الذي تنجم عنه أنواع خطرة من السرطان وتشوهات الأجنة. وأكد ان العلاقة بين الاثنين قائمة ظاهرياً من الوجهة البايولوجية (47). ووجد علماء أمريكان وبريطانيون ان جزيئات ألفا المنبعثة من اليورانيوم المنضب تستطيع التأثير في تركيب الـ DNA ويمكن أن تؤدي التغييرات التي تسببها إلى السرطان خلال شهور. وقد أكد أحد ضباط الجيش الأمريكي أن البنتاغون يعرف منذ منتصف الثمانينات بأنّ مشاكل جدية سيسببها استخدام الـ DU (48)

*لغبار اليورانيوم المنضب، مثله مثل أي مادة مشعة، أخطار تتمثل في الأضرار بالحامض النووي، مما يؤدي الى الإصابة بالسرطان. أما تأثيره الكيميائي فيتمثل في إلحاقه الضرر بالكليتين بشكل رئيسي، حيث يستقر جزء واحد من كل 8 أجزاء من اليورانيوم ويترسب في الكليتين. ويعتبر ترسب مليغرام واحد من اليورانيوم داخل الكليتين حالة تسمم معتبرة (49).

* كشف العلماء تآزر فعل السمية الكيميائية والإشعاعية لليورانيوم المنضب Synergic effect، أي أنهما يفعلان فعلهما معاً وفي آن واحد. ولعل الأخطر، أن لأشعة (ألفا) المنبعثة منه خاصية أخرى فريدة غير معروفة علمياً من قبل، سميت Bystander effect ترجمناها:"التأثير بالجيرة"، أثبتت مكتشفتها العالمة ميللر بان هذا الإشعاع لا يتلف الخلية المتأثرة به مباشرة، فحسب، بل ويؤثر في الخلية السليمة المجاورة لها، فتتلف هي الأخرى، وهذه تؤثر في جارتها، وجارتها تؤثر في جارتها، وهكذا دواليك (50). ويصف مصطلح الإشعاع الحاث للتأثيرات بالجيرة الحالة التي تكون فيها الخلايا التي لم تتعرض مباشرة للإشعاع المؤين تتصرف كما لو أنها تعرضت له: فتموت أو أنها تظهر عدم الاستقرار الكروموسومي وتشوهات أخرى (51). والخطر يهدد الجسم بكامله ارتباطاً بعمر النصف لليورانيوم المنضب الذي يتجاوز الـ 4 مليارات سنة.

* عقب حرب الخليج، لاحظ الأطباء العراقيون حصول تغير جذري في فترة كمون Latent period الأمراض السرطانية. فمن كانت فترة ظهور أعراضها 15– 45 سنة، أصبحت بتأثير استخدام اليورانيوم المنضب ما بين 10 أشهر و 5 سنوات. فقد ظهرت حالات السرطان واللوكيميا لدى أفراد قوات حفظ السلام في البلقان بشكل سريع جدا بالمقارنة بما حدث لسكان هيروشيما الذين لم تظهر لديهم حالات اللوكيميا الا بعد سنوات من ضرب مدينتهم بالقنبلة الذرية. ولذلك يبدو أن عوامل أخرى تساعد في حدوث هذه الحالات المرضية (52). وطرأت تغيرات كبيرة على وبائية

الأمراض السرطانية في المناطق التي استخدمت فيها أسلحة اليورانيوم. ولاحظ الأطباء عقب حرب الخليج 1991، الكثير من الحالات الغريبة لدى أبناء وبنات المناطق التي تعرضت للقصف، خصوصاً في محافظات البصرة وميسان والناصرية، ومنها: كثرة حالات الإجهاض المتكرر والولادات الميتة؛ ظهور حالات من التشوهات الولادية ليست فقط رهيبة، بل وغير معروفة من قبل، انتشار العقم لدى رجال ونساء، وبينهم من خلف أو أنجب من قبل. كثرة الإصابات السرطانية في المناطق التي قصفت بالأسلحة الغربية. انتشار الحالات السرطانية وسط عوائل لم يصب أحد منها من قبل، وأحيانا أكثر من فرد في العائلة الواحدة. ولاحظ الباحث الدكتور جواد العلي إصابة المريض الواحد بأكثر من حالة سرطانية (2 و 3 وحتى 4 حالات) في آن واحد. وانتشار أمراض سرطانية وسط أعمار غير الأعمار المعروفة طبياً، مثل سرطان الثدي لدى فتيات بعمر 10 و12 سنة، وسرطانات أخرى نادراً ما تصيب شريحة الأطفال. وارتفاع الإصابات السرطانية والوفيات بالسرطان بنسب عالية جداً، بلغت أضعاف أضعاف ما كانت عليه قبل عام 1989(53)(54). وأكدت د. منى خماس، أستاذة علم الأمراض الخبيثة بجامعة بغداد، أنه تم تسجيل تغيرات جوهرية في أنواع السرطان: معدل عمر مرضى السرطان هو أقل من السابق، بمعنى أنه قد سجلت حالات الإصابة في عمر مبكر بشكل مناقض للمعايير الدولية. وقوع إصابات ببعض أنواع السرطان التي لم تكن معروفة أو مألوفة في العراق سابقا، مثل سرطانات الدماغ والكبد، التي تم تسجيلها بأعداد متزايدة. حصول عدد كبير من التشوهات مقارنة بالطبيعي..الخ. وكل هذه الحقائق موثقة جيدا ومقدمة للمنظمات الدولية (55).

* أثبت دراسة علمية صدرت في ألمانيا بأن جزيئات اليورانيوم المنضب يمكن أن تصل إلى كل جزء بالجسم البشري بما في ذلك السائل المنوي والبويضات مما يزيد من احتمالات الإصابة بمرض السرطان وإتلاف الجينات (56).

* أثبت العالم الفنلندي بافرستوك Keith Baverstock الذي كان كبير خبراء الوقاية من الإشعاع لدى منظمة الصحة العالمية، أن استنشاق ذرات غبار اليورانيوم المنضب يولد آثارا سمية جينية على الـ DNA، وتنتشر من الرئة إلى أجزاء الجسم عن طريق الدم وتتسبب بأضرار بالغة في نخاع العظم والنظام الليمفاوي والكلى (57)(58). دراسة العالم بافرستوك هذه تم منع نشرها من قبل منظمة الصحة العالمية، وبسبب تواطؤ المنظمة هذا ترك بافرستوك العمل فيها.

* في ورقة علمية للعالمة ميللر وزملائها، مكرسة للتأثيرات البيولوجية لليورانيوم المنضب، بينت أن الدراسات المستخدمة للخلايا المستنبتة cultured cells ولقوارض التجارب، تواصل الإيحاء بإمكانية التأثيرات المكونة لسرطان الدم leukemo-genic والجينية genetic والإنجابية reproductive والعصبية neurologi-cal الناجمة عن التعرض المزمن له.

وتستخلص بان استخدام اليورانيوم المنضب من قبل العسكر سيبقى موضع جدل لحين إيجاد الحل بمزيد من البحث (59).

* اليورانيوم موثق جيدا بوصفه سماً كلوياً Renal toxin، وسماً عصبياً Neu-rotoxin، ومسبباً للطفرات Mutagen، ومسبباً للسرطان Cancerogen ومسبباً للتشوهات Teratogen محفزاً للعيوب الخلقية. وثمة أدلة متزايدة تؤكد أن اليورانيوم يمكن أن يدمر النظام المناعي، ويثبت الاستجابة الحساسية وذاتية المناعة. إن الميزة الرئيسة لتسمم اليورانيوم هو العجز الكلوي، والناجمة عن تدمير الخلايا الظهارية للأنابيب الكلوية Renal tubular epithelial cells (60)

*في عام 2007، قامت عالمة السموم وايز Sandra S. Wise وزملاؤها بتعريض سليفات خلايا ليفية fibroblasts مأخوذة من قصبات هوائية بشرية مستنبتة، إلى جسيمات أوكسيد اليورانيوم، كالموجودة في غبار اليورانيوم المنضب، ووجدوا أنها سببت طفرات في كروموسومات الخلايا، وأفنت الخلايا نفسها، وزاد خطر الإصابة بسرطان الرئة مع زيادة تراكيز الجسيمات التي تعرضت لها الخلايا البشرية، والتي أدت إلى زيادة أثر السمية الجينية geno-toxic. وتبين أن التأثيرات السمية لجسيمات اليورانيوم المنضب تسبب تكسير كروموسومات خلايا الرئة البشرية، واستحثت induced تأثيراً سمياً cyto-toxic إنتاج أثر سام على الخلايا وكلاستوجينياً clastogenic مسبباً تعطيل أو تكسير الكروموسومات في الخلايا الرئوية للإنسان (61).

* أكد (داماسيو لوبيز) من الفريق الدولي لدراسة اليورانيوم المنضب: "أن اليورانيوم المنضب نفايات خطرة وسامة ومشعة ولها علاقة بالارتفاع المهول في نسب الإصابات بالسرطان، وتشوهات الأطفال حديثي الولادة وغيرها من الآثار الصحية بين السكان المدنيين الموجودين في نطاق ساحات المعارك، والجنود المشاركين في هذه الحروب أو الأشخاص الذين يعيشون في مناطق اختبار أسلحة اليورانيوم المنضب"(62). وأكد البروفيسور الإيطالي ماسيمو زوكيتي، الخبير الدولي المتخصص في المحطات والبحوث النووية بمنطقة دينير بمدينة (تورينو) الإيطالية، أن اليورانيوم المنضب مادة مسرطنة خطرة، تؤدي إلى الإصابة بأنواع عدة من السرطانات، كما أنها تؤدي إلى تحول الجينات وبالتالي التسبب في تشوهات خلقية ولاسيما للأجنة، وفي ضوء ذلك توقع تسجيل ارتفاع كبير لنسبة الإصابة بالسرطان لدى سكان المدن وتشوهات خلقية لدى الأطفال والأجنة، أي لدى الأجيال جديدة الأنساب..... (63).

خاتمة

لعل أفضل خاتمة لهذه الورقة هو إيجاز ما أوردته العالمة (روزالي برتل) في ورقتها العلمية القيمة، التي نشرت في عام 2006 عن استخدام اليورانيوم المُنضّب في حرب الخليج وعلاقته بإصابة العسكريين بـ "متلازمة حرب الخليج " من أدلة علمية

مُقحِمة، فشكلت ردّاً واضحاً، شافياً ووافياً يفند خبراء البنتاغون وأضاليلهم الزاعمة بأنه "لم تثبت" علمياً أخطار اليورانيوم المُنضّب على صحة البشر، مسلطة الضوء على ما يسبّبه اليورانيوم المُنضّب من تلف كيمياوي وإشعاعي في الخلايا الحيّة، واستهدافه جهاز المناعة ما يفتح الباب أمام الإصابة بمجموعة من الجراثيم، وأثره المُسرطن للأنسجة، وأضراره على خلايا التكاثر ما يولّد تشوّهات خلقية متنوّعة وغيرها. وكرست برتل حيزاً خاصاً للتفريق بين غبار اليورانيوم المنضب المتولد خلال الحرب، ونظيره في مناجم اليورانيوم ومطاحنه. وتأتي أهمية هذا التفريق من تركيز معظم البحوث على غبار اليورانيوم في المناجم والمصانع، ثم استخدام نتائجها في صنع صورة عن الآثار الصحية المحتملة لغبار اليورانيوم المُنضّب في الحروب.

وبكل صراحة، عارضت برتل المنهجية التي سارت عليها (الهيئة الدولية للحماية من الإشعاع)، موضحة أن هذه المنهجية استندت إلى دراسات عن الإشعاع العالي المستوى، ما يتضمن نوعاً من الإخفاء للآثار المرتبطة بالتعرض للإشعاع الخفيض المستوى. ولذا، اعتبرت برتل أن هذه المنهجية لا تصلح لفهم التعرض لليورانيوم المُنضّب الذي يحمل أشعة خفيضة المستوى. وأشارت إلى أن مزج هذه الأشعة مع المعدن الثقيل والمواد السامة، يقدر على تخريب مُكوّنات أساسية في نواة الخلية، مع إعاقة قدرتها على إنجاز وظائفها طبيعياً والتخلّص من السموم. وأوضحت برتل أن هذا الوضع لا يقتل، لكنه يبقي المُتعرّض لليورانيوم المُنضّب مريضاً على نحو مزمن. واستعملت هذا المقترب لتفسير "متلازمة حرب الخليج" التي عاناها جنود أميركيون شاركوا في حرب الخليج عام 1991. وأكّدت برتل عدم وجود جرعة آمنة من التعرّض للإشعاع مهما كانت واطئة. وأكدت برتل أن الاستنشاق (التنفس) هو المسلك الأكثر خطورة، والى حد بعيد التعرض لأوكسيد اليورانيوم .U3O8 عقب استنشاق 3UO يذوب تدريجياً ويمر في مجرى الدم كأيونات اليورانيل التي يمكن أن تدخل كل الأعضاء والأنسجة، وتتراكم معظم أيونات اليورانيل في العظام والأسنان. وتبقى جزيئات 2UO غير الذائبة في أنسجة الرئة وتحملها تدريجيا البلعمات أو الملتقمات الكبيرة Macrophages إلى الغدد اللمفاوية في القصبات الهوائية الرغامية Tracheo-broncheal حيث تتجمع جزيئات 3UO بتراكيز عالية، ويمكن أن يسبب تراكمها تعرضاً مزمناً للأفراد المتعرضين لها. وتفسر العالمة برتل، التي كانت تعمل لأكثر من 30 عاما في حقل الإشعاع المنخفض المستوي، الأضرار المحتملة لليورانيوم المنضب في الجسم البشري: بعد استنشاق الهباء الجوي لجزيئات اليورانيوم المنضب النانوية، فإنها تعبر الحاجز الدموي في الرئة، وتصل إلى الخلايا فتنتج جذوراً حرة Free radicals. ولكون اليورانيوم المنضب معدن ثقيل فان سميّته تهاجم البروتين في الخلايا، التي تقوم عادة بمحاربة الجذور الحرة، وبذا ينتج مزيدا من هذه الجذور. وتخلق الكمية الجديدة من الجذور الحرة

مجموعة من الضغوط المؤكسدة على الجسم البشري، تؤدي إلى فشل الانزيمات الوقائية، مما يترك خلايا الجسم عرضة للفيروسات والفطريات Mycoplasma وتسبب أضراراً لنظام الاتصالات الخلوية والحبيبات الفتيلية للميتوكوندريا Mitochondria جسم دقيق في السيتوبلازم- الكاتب. ولان اليورانيوم المنضب معدن ثقيل فإنه يحل مكان المغنيسيوم الموجود في جزيئات العضو، والذي يعمل في العادة كمضاد للأكسدة، مما يدمر جهاز آلية الإصلاح في الجسم. ونتيجة لهذا التدمير فان الجسم يصاب بالأمراض المزمنة، والسرطان. وتستطيع الجذور الحرة أيضاً أن تعطل كلياً عملية تصنيع جزيئات البروتين، التي تتلوها صناعة الحمض النووي من قبل الـ RNA وبعض من الأمراض الناتجة عن البروتينات التي أخطأت طريقها وتشمل التليف الكيسي Cystic ibrosis والبوال التفه Diabetes insipidus والسرطان Cancer (64)

في ضوء ما ورد، وصفت العالمة الفيزيائية الأسترالية (هيلين كالديكوت)، وهي أحد نشطاء الجماعات المعارضة لاستخدام الأسلحة النووية، الحروب الأمريكية في منطقة الخليج بأنها حروب نووية لأنها أطلقت مواد نووية في المنطقة. وقالت إن عدد الأطفال المولودين مشوهين أو مصابين بالسرطان قد تضاعف 7 مرات في العراق في الفترة الأخيرة مقارنة بالفترة السابقة للحروب الأمريكية.

من جهتها، أعلنت العالمة الأمريكية (موريه) بأن المستقبل الجينى للعراقيين على وجه التحديد قد تم تدميره، أما البيئة في الخليج فهي بالكامل مشعة لدرجة أنه حسب التقديرات العلمية فإن هذه المنطقة سوف تظل مشعة إلى الأبد. وأضافت أن التأثيرات الإشعاعية للحرب تمتد إلى المناطق المجاورة للخليج أيضاً(65).

وارتباطاً بأخطارها على البشر والبيئة تتسع الحركة العالمية المطالبة بتحريم الذخائر المشعة ومنع استخدامها وتصنيعها ونقلها وخزنها.

الهوامش:

1- Bertell, Rosalie; "Depleted Uranium: All the questions about DU and Gulf War Syndrome are not yet answered". International Journal of Health Service 36(3), 503-520, 2006.

2- عبد الرحمن فؤاد عبد الفتاح، اليورانيوم المنضب: تطبيقاته ومخاطره، دار النفائس، بيروت، 2003، ص 30.

3- US Army Environmental Policy Instiue, Health and Environmental Consequences of Depleted Uranium Use in the US Army, Technical report, Atlanta, GA: Georgia Institute of Technology, June 1995.

4- عمر النصف Half-Life هو المدة الزمنية اللازمة للنظير المشع كي يفقد فيها ٥٠ في المئة من نشاطه الإشعاعي.

5- عبد الرحمن فؤاد عبد الفتاح (2003)، مصدر سابق، ص 30- 31.

6- Martin, Susan Taylor(Basra- Iraq= , Medical mysteries : Is depleted uranium hurting the health of Iraqis and U.S. Gulf War veterans?, ?, St. Petersburg Times, June 5,2000.

7- عبد الرحمن فؤاد عبد الفتاح (2003)، مصدر سابق..

8- مـارليس سيمونز- نيـويورك، الأوروبيون يهتمون بـأبحاث خبير أميركي حـول أضـرار اليورانيوم النـاضب، خدمة "نيويورك تايمز"- خاص بـ؟الشرق الأوسط؟، 2001/1/30

9- Uranium- 236, ftom Wikiledia, the free encyclopedia

10- مارليس سيمونز (2001)،مصدر سابق.

11- Günther, Siegwart –Horst, "Depleted Uranium and the Gulf War syndrome",Covert Action Quarterly . Spring-Summer 2000

12- أنظر كتاب:

Depleted Uranium:Metal of Dishonor, How the Pentagon Radiates Soldiers & Civilians with DU Weapons, Selections compiled and edited by the Depleted Uranium Education Project, Second Edition, International Action Center, New York City,1997

13- Leuren Moret, "Planet Earth as a Weapon and Target," World Affairs Journal,Vol. 9, No. 4, Winter 2005. [link to dont_use_this.com]

14- Documentary "Beyond Treason" with Moret, Rokke and Dennis Kyne. [link to www.beyondtreason.com] Documentary "Blowin' in the Wind" with Moret and Rokke. [link to www.bsharp.net.au]

15- Bertell, R; (2006)"Depleted Uranium- Ibid..

16- Holdstock, Douglas; A GULF in Understanding, Depeletd uranium has been blamed for ill-health in Gulf war and Kosovo veterans, but what are the risks and where do they lie?, Science & Public Affairs, February 2001

17- نعمان الهيمص ومهدي العامري، أطنان من مخلفات "القذائف الفضية"، "الشرق الأوسط"، 2005/4/24.

18- Bertell,R (2006), "Depleted Uranium: All the questions about DU and GWS- Ibid.

19- محمد الشيخلي، غبار اليورانيوم المشعّ يهدد العراق والخليج بكارثة بيئية، "البيئة والتنمية"، العدد 69، كانون1 ،2003

20- الميكرون هـو الميكرومـتر Micrometre وهو وحدة طول في النظام الدولي للوحدات تعادل جزءاً من مليون من المتر يرمز إليه بـ .µm و 1 ميكرومتر = 10 -6 متر.

21- Bertell, R (2006) -Ibid..

22- Hindin,Rita; Doug Brugge, and Bindu Panikkar, "Teratogenicity of Depleted Uranium aerosols: A review from an epidemiological perspective ", Environmental Health: A Global Access Science Source 2005.

23- Bertell,R; "Depleted Uranium- Ibid.

24- غبار اليورانيوم المنضب يبقى في الجو ١٠ سنوات، "البيان" الإماراتية،2001/1/12

25- Busby,C and S. Morgan, Did the Use of Uranium Weapons in Gulf War 2 Result in Conta- mination of Europe? Evidence from the Measurements of the Atomic Weapons Establishment Aldermaston, Aberystwyth, Green Audit, 2006

26- William, D. "Hazards of Uranium Weapons in the Proposed War on Iraq" full report.. The Eos life resources center. Oct, 2002.

ICBUW, "Statement by the DU positive testees" http://www.banddepleteduranium.org/–27

Petrson, S; DU`s Global Spread Spurs Debate over Effects on Humans, The Christian–28 Science Monitor, April 29,1999.

29– نجيب صعب، اليورانيوم بعد سنة: المخفي أعظم، "البيئة والتنمية"، العدد 74، أيار 2004

Sharma , Hari D. 2003; Investigations of Environmental Impacts from the Deployment–30 of Depleted Uranium-Based Munitions. Part I Report and Tables, December 2003. Available from the MTP

BBC. Online.December 18, 1998–31

Duracovic, A. Lecture: "Critical Evalution of the Quantative Analysis of Uranium Iso-–32 topse in the Bio?ogical Specimens of Allied Forces Gulaf War Veterans Mini Symposium", Free University, Brussels, October 26, 2000. Uranium Medical Research Centre(UMRC) Günther,S–H(2000);"Depleted Uranium- Ibid.–33

34– رانيا المصري، الاعتداء على البيئة في العراق: النفايات المشعة والأمراض، "المستقبل العربي"، العدد 259 – 9 / أيلول 2000، ص 111.

Durakovic,A, Medical effects of Internal contamination with Uranium.Croatian Medi-–35 cal Journal,Vol.40, No 1, March 1999.

Risks of low-level radiation higher than thought, by Hazel Niur, The New Scientist–36 Magazine, December 12,2001

1 Sievert (Sv) = 100 rem, 10 ?Sv = 1 millirem.–37

38– السرطان في العراق وعلاقته بأسلحة اليورانيوم المنضب ،"الجزيرة نت"، المعرفة: تغطيات 2003 :أزمة العراق ،16/7/ 2003.

1 rad = 0.01 Gy =10 milligray (1 centigray),100 rads = 1 Gy= 1 roentgen = 1 rad = 1–39 rem.

40– هيثم الزبيدي، اليورانيوم الناضب: في الخليج، نعم، في أوربا..؟ ، العرب، في 30 /4/ 1999

41– عبد الرحمن فؤاد عبد الفتاح، اليورانيوم المنضب: تطبيقاته ومخاطره، دار النفائس، 2003، ص 153.

42– المصدر السابق، ص 36.

Durakovic,A(1999), Medical effects of Internal contamination with Uranium-Ibid.–43

1 millirem = 10 ?Sv–44

45– عبد الرحمن فؤاد عبد الفتاح (2003) – مصدر سابق، ص 139.

Miller, A.C; W.F. Blakely, D .Livengood, T.Whittaker, J.Xu, J.W.Ejnik,–46 M.M.Hamilton, E.Parlette, T.St .John, H.M. Jerstenberg, H.Hsu, Transformation of Human Osteoblast Cells to the Tumorogenic Phenotype by Depleted Uranium-Uranyl Chloride; Envirnmental Health Perspectives 106, August 1998.

47– علماء يبحثون في لندن علاقة اليورانيوم الناضب بالوفيات في العراق، "الشرق الأوسط"، 2/8/ 1999

Smith, M, Army warned of uranium risk four years ago, Defence Correspondent Filed:–48 The Telegraph, UK, 11 January 2001.

Holdstock, D;(2001), A GULF in Understanding-Ibid.–49

Depleted uranium casts shadow over peace in Iraq ,by Duncan Graham-Rowe, with–50 addi -tional reporting by Rob Edwards, The New Scientist Magazine, issue 2391, 15 April 2003

Colin B. Seymour & Carmel Mothersill, OPINION Radiation-induced bystander effects–51 - implications for cancer,Abstract: Perspectives: Nature Reviews Cancer 4, 158-164 (Feb 2004)

Holdstock, D(2001); A GULF in Understanding, Depeletd uranium- Ibid.–52

Al-Ali, Jawad; Leukemia and Congenital malformations in the Basra area following the–53 Gulf War, Seminar on Health Effects of Uranium Exposure, Karolinska Institutet, 22 April,

2004.
Al-Ali, Jawad; The effects of wars and the use of depleted uranium on Iraqi Southern–54 District (Basrah), International Conference on Environmental Effects of War, The examples of Agent Orange and Depleted Uranium, ABF, Stockholm, 23-24 April 2004.
55– د. متى خماس، الحرب القذرة ضد العراق،"الجزيرة نت"، المعرفة – ملفات خاصة،العراق،2004/10/3
Schr?der, H., Heimers, A, Frentzel-Beyme, R., Scott, A., and Hoffman,W, Chromo- –56 some aberration analysis in peripheral lymphocytes of Gulf War and Balkans War veterans. Radiat. Prot. Dosim.Vol. 103,No 3, 2003, pp 211-219.
Baverctock, K.;C. Motherstill & M. Thorne, Radiological toxicity of DU, Repressed–57 WHO Document, November 5, 2001, International Physicians for Prevention of Nuclear War.
Presentation by Dr. Keith Baverstock about DU, toxicity and politics was given at the–58 ICBUW conference in the European Parliament in Brussels, 23 June 2005.
Miller,A,C; Mike Stewart, Rafael Rivas, Robert Marlot, and Paul Lison, "Depleted–59 Uranium" internal contamination: Carcinogenisis and Leukeinogenisis in Vivo. Proc. Am Assoc Cancer Res. Volume 46, 2005.
Lawrence, Glin D. and Chen Yaodong ,Peroxidation of Liposomes in the presence of–60 Uranyl Ion and Ascorbic Acid, Abstract, Health and the Environment in Iraq: Status, Needs & Challenges, International Environmental Health Conference, Amman, Jordan, September 19-22, 2005
Wise, Sandra,S; W. Douglas Thompson, Abou El-Makarim Aboueissa, Michael D.–61 Mason, and John Pierce Wise, Sr., Particulate Depleted Uranium Is Cytotoxic and Clastogenic to Human Lung Cells, Chem. Res. Toxicol., 2007, 20 (5), pp 815–820.
Depleted Uranium Shells Used by U.S. Military Worse Than Nuclear Weapons, by:–62 David Gutierrez, staff writer,Natural News, May 20, 2008.
63– الجزائر: حفيظ صواليلي "–الخبر"،2011/8/10
Bertell,Rosalie; "Depleted Uranium: All the questions about DU and Gulf War Syn-–64 drome are not yet answered". International Journal of Health Service 36(3), 503-520, 2006.
65– مها عبد الكريم ، فيلم وثائقي عن اليورانيوم المنضب، عن: ICBU، صحيفة "المثقف"، 4/6/ 2011

نصوص قديمة

وثائق تاريخية حول تفاصيل المفاوضات التي جرت بين الحكومة العراقية والشركات النفطية الاحتكارية في عام 1961

تنشر (الثقافة الجديدة) في هذا العدد مجموعة من الوثائق يبلغ عمرها (51) عاماً بالتمام والكمال. وتتضمن هذه الوثائق النص الحرفي لتفاصيل المفاوضات التي دارت بين وفدي الحكومة العراقية الذي ترأسه الزعيم عبد الكريم قاسم، وشركات النفط الاحتكارية الدولية، والتي تبين - أي المفاوضات - طبيعة المعركة التي خاضها العراق آنذاك مع هذه الشركات من اجل استعادة حقوقه المشروعة التي سلبتها الاحتكارات النفطية الدولية من خلال اتفاقيات جائرة ومنح امتيازات، أقدم عليها النظام الملكي وفرّط بحقوق الشعب العراقي للاستفادة من ثرواته النفطية.

ومن يتابع تفاصيل المفاوضات بين الطرفين، التي استمرت حوالي ثلاث سنوات، عقد خلالها (28) اجتماعا، سيكتشف من جهة إصرار الوفد العراقي على استعادة حقوق البلاد التي نهبتها تلك الشركات، ومن جهة أخرى طبيعة العقلية الاستعلائية التعسفية الاحتكارية التي دأبت على التفكير بها هذه الشركات منذ حصلت على امتيازاتها في العراق ما جعلها لا تدرك تطور الأوضاع بعد ثورة 14 تموز 1958 وقيام نظام جمهوري جديد عبر ثورة شعبية، ولا تدرك أيضا أهمية تقدم صناعة النفط نفسها ولا حقوق الشعب العراقي العادلة.

تهدف المجلة من وراء نشر محاضر الجلسات هذه إلى أن يطلع عليها الجيل الجديد من المواطنين ومن الباحثين والمنشغلين بالتاريخ والسياسة.. حيث تبين هذه الوثائق أن التاريخ شاهد صادق لا يكذب ولا يرحم في الوقت نفسه.

وننتهز هذه الفرصة لنتوجه بالشكر الجزيل إلى السيدة الفاضلة (أم دريد)، زوجة المناضل الراحل سامي احمد التي تبرعت لنا بمجموعة مواد من أرشيف الفقيد، ومن بينها هذه الوثائق التي ننشرها في هذا العدد.

(الثقافة الجديدة)

بيان عن مفاوضات النفط
صدر عن وزارة النفط
بتاريخ 10/ 4/ 1961

أولاً – كان من أهداف ثورة 14 تموز الخالدة إنقاذ الشعب من براثن الاستعمار وانتزاع حقوقه كاملة غير منقوصة، والتخلص من كل أمر يمس باستقلال العراق السياسي والاقتصادي، ورفع الغبن الذي لحق بالوطن نتيجة لتساهل حكام العهد المباد في حقوق الوطن وفي ثروات البلاد وفي عقد الاتفاقيات الجائرة ومنح امتيازات النفط للأجنبي جزافاً وتخاذل حكام العهد المباد أمام الشركات صاحبة الامتياز بحيث لم يقتصر الغبن على طبيعة الامتيازات بل شمل تطبيقها، الأمر الذي فرط بحق الشعب في الاستفادة العادلة من ثروته النفطية وأضاع الحق الطبيعي للعراق.

وبعد قيام الثورة المباركة في 14 تموز 1958، قامت حكومة الثورة التي تعمل لمصلحة الشعب بدراسات مستفيضة لأحكام الامتيازات الجائرة لشركات النفط والمشاكل الناجمة عن تطبيقها وقد توصلت إلى القضايا التي ينبغي حلها مع الشركات بالمداولات بشكل يؤمن مصلحة الوطن ولا يفرط بحقوق الشعب وحددت هذه القضايا كما يأتي:

1– احتساب كلفة إنتاج النفط والعناصر التي تتألف منها لضمان حق العراق.

2– طريقة تعيين الأسعار التي تحتسب بموجبها عوائد العراق من النفط.

3– إلغاء الخصم الذي تتقاضاه الشركات.

4– تعيين المدراء العراقيين وإشراكهم في مجالس إدارة الشركات في لندن، وإشراف الحكومة العراقية على مصاريف الشركات بما يضمن مصلحة العراق.

5– تعريق وظائف الشركات تدريجياً.

6– تخلي الشركات عن الأراضي غير المستثمرة تمهيداً لاستفادة العراق منها.

7– تنازل الشركات عن الغاز الطبيعي الفائض عن حاجة الحقول النفطية وحقول الغاز الأخرى، والحيلولة دون قيام الشركات جزافاً بالاستمرار في حرق الغاز مع علمها بضياع ثروة العراق من دون مقابل.

8– ضمان استخدام الناقلات العراقية في نقل النفط العراقي.

9– وجوب مساهمة العراق فعلاً في رأس مال الشركات بنسبة لا تقل عن 20 ٪ من المجموع العام.

10– وجوب زيادة حصة العراق من عوائد النفط.

11– دفع العوائد بعملة قابلة للتحويل تضمن مصلحة العراق.

12– رفع الغبن والضرر الذي أصاب الجانب العراقي بسبب جور الاتفاقيات ونصوصها غير الواضحة التفسير.

ثانياً: ولما كانت حكومة الثورة راغبة في حل مشاكلها مع الشركات واستخلاص حقوق الشعب منها بصورة سلمية وودية

وبنية طيبة من جانبها فقد بادرت بدعوة ممثلي شركات النفط منذ تاريخ 20/ 8/ 1958 إلى التفاوض وإيجاد حل عادل للخلافات القائمة ورفع الغبن الذي تضمنته امتيازاتها.

وقد استمرت المفاوضات ولم تنقطع بين الطرفين رغم تعنت الشركات حوالي ثلاث سنوات، عُقد خلالها (28) اجتماعاً مع مقابلات أخرى غيرها حيث تبين بنتيجتها أن شركات النفط ما زالت تفكر بنفس العقلية التعسفية الاحتكارية التي دأبت على التفكير بها منذ حصلت على امتيازاتها في العهد المباد ولم تزل غير مدركة لتطور الوضع في العراق أو تقدم صناعة النفط نفسها وغير مدركة لحقوق الشعب العادلة. ولقد اتسم موقف الوفد المفاوض العراقي إزاء ذلك بروح من الصبر والحكمة والحلم وطول الأناة وبالنيات الطيبة في سير المفاوضات، ولكن ذلك لم يجد نفعاً مع الشركات ولم يحملها على تغيير موقفها رغم الجهود المضنية التي بذلها الجانب العراقي في تبادل وجهات النظر لإقناع الشركات بوجوب الاعتراف في حق العراق العادل وتذليل العقبات التي كانت تعترض سبيل المفاوضات. لقد اشرف سيادة الزعيم الأمين عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة على الاجتماع الذي عقد بين الوفدين المتفاوضين بتاريخ 19/ 12/ 1960، في مقره بوزارة الدفاع وأوضح سيادته لوفد الشركات المفاوض وجهات النظر العادلة النهائية لحكومة الثورة التي جاءت لخدمة الشعب بشأن المواضيع التي يجري بحثها وطلب سيادة الزعيم الأمين من الوفد الإجابة عنها وعدم إطالة المفاوضات ولكن وفد الشركات التمس إمهاله بالرجوع إلى مجالس إداراتهم ووعد بالعودة بالردود المطلوبة بعد فترة وجيزة.

ثالثاً: وعند عودة الوفد واستئناف المفاوضات الأخيرة تبين بصورة واضحة وجلية بأن موقف الشركات من هذه القضايا لم يزل متعسفاً بحق العراق، وأنها تتعمد المماطلة والتسويف بقصد كسب الوقت للتحري وللاستئثار بالمناطق الغنية بالنفط ولتنفيذ أغراضها دون الالتفات لمصلحة الشعب أو لوجهة النظر العادلة التي أبداها الجانب العراقي مراراً وتكراراً، وكأنما هي صاحبة الحق في الاستفادة من ثروات العراق دون أهل البلاد، فهي لا تبدي استعداداً للاستجابة للمطاليب المشروعة العادلة التي تقدمت بها الحكومة العراقية ونظراً لهذا التعمد في إطالة المفاوضات دون جدوى ولموقف الشركات المتعسف الذي يضر بمصلحة العراق فقد اخبر سيادة الزعيم الأمين عبد الكريم قاسم وفد الشركات المفاوض في اجتماع يوم 4/6/ 1961 بان الشركات لا يمكنها بعد الآن التفريط بحقوق الشعب في العراق، ولا يمكن التلاعب بمقدراته وعليها أن تتوقف عمليات التحري والحفر خارج مناطق النفط المستثمرة فعلياً حتى يتم التوصل إلى اتفاق

عـادل بين الطـرفين يـضمن حق الشـعب والشركات، عن الاستغلال والاحتكار غير المشروع ولقد انذر سيادة الزعيم الأمين الشركات في الوقت نفسه بعدم المساس بإنتاج النفط أو تقليله أو تطويره في الحقول المستثمرة حالياً بأية صورة، وبعكس ذلك تقوم حكومة الثورة باتخاذ إجراءات أخرى لضمان مصلحة الجمهورية الخالدة وسوف تذاع وتنشر محاضر الجلسات على أبناء الشعب ليطلع عليها ويقف بنفسه على مدى الشركات وإصرارها على المضي في احتكارها وتجاهلها حق العراق المشروع الذي طالب به الوفد العراقي في سير المفاوضات بنيات طيبة وبحكمة وصبر لضمان حق العراق الذي لا يضيع مطلقاً.

رابعاً: وتود الحكومة العراقية أن تعلن بهذه المناسبة بأنها تلتزم بالعهود والمواثيق ولكن وفق مصلحة الوطن، وإنها تأسف للموقف المتعسف المخجل من قبل شركات النفط الاحتكارية وتماديها مدة ثلاث سنوات في المراوغة وإطالة المفاوضات دون جدوى وإصرارها على ضياع حق العراق رغم النيات الطيبة والصبر والحكمة وطول الأناة التي ابدأها الجانب العراقي صاحب الحق المشروع في المفاوضات وتود الحكومة العراقية أن تعلن بان الشركات سوف تكون هي إذا أصرت على عدم الاستجابة الى مطالب العراق العادلة. وما لم تبذل هذه الشركات موقفها التعسفي وتنصاع الى الحق المشروع فان حكومة الثورة المباركة تضطر لمعالجة الأمور بما يضمن حق الشعب الذي تحرر بثورة 14 تموز المباركة ولن يغمط حقه بعد الثورة الخالدة مطلقاً وقد صممت الجمهورية العراقية الخالدة على الدفاع عن حقوقها وعلى ضمان سلامتها وحريتها والتغلب على الاستعمار وكيد الكائدين.

محضر الاجتماع المنعقد في مقر سيادة الزعيم بتاريخ 1961/4/2 بين الوفد العراقي ووفد شركات النفط

الحاضرون عن الجانب العراقي:
سيادة الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة ووزير النفط ووزير التخطيط
سيادة الأستاذ محمد سلمان
سيادة الدكتور طلعت الشيباني

الحاضرون عن شركات النفط
المستر هريج
المستر اكسرجيان
المستر ستيورات
المستر بيشوف

عقد الاجتماع في الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الأحد 1961/4/2 في مقر سيادة الزعيم الأمين عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة:

الزعيم : كان عندنا مؤتمر وكان من المقرر أن ينتهي هذا المؤتمر بسرعة ولكنه طال أكثر من المقرر بسبب بعض الاستفسارات والأسئلة التي وجهها الصحفيون، وعلى كل حال إني سعيد بعودة ممثلي الشركات وبهذه المناسبة أقول انه من المقرر أن نجتمع يوم 11 آذار، ولكن تأخر الاجتماع عن موعده.

هريج: لسوء الحظ كان عندي بعض الارتباطات التي حالت دون تمكني من المجيء في الوقت المعني واني متأسف للتأخير.

الزعيم: لم يتمكن الأستاذ محمد حديد من الحضور لأنه يشكو اليوم من وعكة ألمت به، وكذلك لم يحضر عضو الوفد العراقي الآخر بسبب تمتعه بإجازة في الوقت الحاضر. واني أتأمل ان تسير الأمور بالاتجاه الصحيح – ولا اعلم ماذا فعل السيد هريج خلال وجوده في لندن بعد مضي هذه المدة الطويلة.

هريج: كنا قد نظمنا مسودات لبعض الكتب بعد الاجتماع الأخير الذي عقد مع سيادتكم، وقد سلمنا لسيادة وزير النفط نسخا منها، وقد ظهر لنا ان بعض النقاط قد تم التوصل إلى اتفاق مبدئي بشأنها وان هذه النقاط قد ذكرت بصورة صريحة من قبل الجانبين وتتعلق مسودات الكتب المذكورة بموضوع الإيجار المطلق والغاز الطبيعي والتنازل عن الأراضي، والكتاب المتعلق بالموضوع الأخير يبحث الضمان الذي تقدمه الشركات حول النشاط الذي ستبذله في استثمار الأراضي التي ستحتفظ بها في المرحلة النهائية من مراحل التنازل، أما في ما يتعلق بأسس التنازل فإننا لم نشعر بأن بإمكاننا تقديم مذكرة جديدة بهذا الشأن لأننا لاحظنا أن هناك بعض المبادئ تحتاج إلى المذكرات ولا اعلم ما هو الترتيب الذي ترغبون فيه سيادتكم لمناقشته، وهذه المبادئ تتعلق بالنقاط التي جرى بحثها في الاجتماع الأخير.

الزعيم: أي اجتماع؟

هريج: اجتماع كانون الأول الماضي.

الزعيم: عندما سافر السيد هريج وعد بان يقدم إلينا جوابا قطعيا أليس كذلك؟

هريج: لم تكن المسألة حول إعطاء جواب قطعي في ما يخص التنازل أو في ما يخص الإيجار المطلق أو الغاز الطبيعي لان موقفنا صريح بالنسبة لهذه المواضيع.

الزعيم: إذاً ماذا جلبتم معكم الآن؟

هريج: عندما سافرنا لم نسافر لجلب شيء، ولكن خلال الاجتماع الأخير جرى البحث حول التنازل، وكانت هناك ثلاث نقاط؛ الأولى تتعلق بالفترة الواجب تحديدها بين مراحل التنازل، والثانية تتعلق بشكل وحجم وعدد البقع المحتفظ بها، والثالثة تتعلق بالمعلومات الجيولوجية والجيوفيزيائية، وكما بينت لسيادة وزير النفط قبل أيام اذكر انه في ما يتعلق بالنقطة الثالثة أننا لم نصر على موقفنا بناء على رغبة الحكومة ومراعاة لبعض الاعتبارات أما بالنسبة للنقطة الثانية الخاصة بشروط اختيار المناطق والتي طلبتم

بموجبها أن ننظر في اختيار شكل هندسي عرفتموه سيادتكم بمربعات أو مستطيلات أو ما شابه فقد فكرنا كثيرا بهذا الموضوع وليس لدينا أية مقترحات حول كيفية تطبيق هذا الطلب، أما من جهة المساحة وعدد القطع فنحن لا نزال نتعهد بما اقترحناه بهذا الشأن.

الزعيم: ليست لدينا مقترحات حول أشكال معينة.

الزعيم: عندما سافرتم كانت مقترحاتنا واضحة وتم تدوينها في المحضر وأعطيت إليكم، وكان المفروض أن تجيبوا عنها بعد هذه المدة الكافية وبعد أن استمتعتم بفترة أعياد الميلاد ورأس السنة ويبدو أن السيد هريج وإخوانه قد تمتعوا بوقت طيب هناك ولا بد أن أصبحت لديهم قوة للحجة والمناقشة، أما نحن فقد زادتنا مكاسب الثورة التي حصلنا عليها خلال هذه المدة قوة وحيوية، ولكن هذه القوة نحن غير مستعدين لإفنائها في المناقشات التي كنا قد انتهينا منها ويظهر أن جانب الشركات يريد المساومة على كل نقطة من النقاط فمثلا في ما يتعلق بالقسط الأخير كنا قد اتفقنا على أن يدفع في موعده لكي تسدد حساباتنا السنوية في وقتها وكنتم قد وعدتم بالنظر في الطلب. إننا لم نطلب أكثر من حقنا حيث وددنا أن تكون السنة القادمة حسابات مستقلة ورغبنا في دفع القسط الأخير قبل حلول السنة المالية الجديدة، ولكن يبدو أن الشركات أرادت استغلال هذا الطلب للمساومة معنا كأنما نحن متوقفون على هذا القسط في حين انه حق من حقوقنا. إن الذي فهمته من وزيري المالية والنفط ان هذه النقطة قد أصبحت نقطة مساومة ولهذا أود أن أبين بأن مثل هذه القضايا تافهة ويجب أن لا تتخذ حجة للمساومة. إننا كنا قد اتفقنا على دفع القسط قبل ثلاثة أشهر وكان يقتضى إخبارنا قبل مدة مناسبة بجوابكم، تركتم ذلك حتى اللحظة الأخيرة مما يدل على المساومة وعلى كل حال نحن نشكر الشركات على تلبية رغبتنا في دفع المبالغ في وقتها. أما في ما يتعلق بقولكم إنها واجبة الدفع بعد سبعة أيام من مضي الربع المختص فيمكن عن طريق المداولة تقديم موعد الدفع دون تأخيره سبعة أيام أي أننا نرغب في أن يدفع القسط في شهر آذار نفسه ليتسنى تسديد حسابات السنة المالية.

هريج: لدي بعض النقاط التي أود بيانها بهذا الخصوص الأولى أننا لا نعتقد بأننا اتخذنا هذا الموضوع مجالا للمساومة.

الزعيم: هذا ما فهمناه.

هريج: النقطة الثانية أننا عندما سافرنا كنا نعلم أن سيادتكم طلبتم بعض الأشياء إلا أننا لم نكن قد وافقنا على ذلك لان الصعوبة في الموضوع تتعلق بالترتيبات المالية الخاصة بنا من ناحية تسلم النقود وتمويل العمليات بصورة عامة، حيث ان هذه الأمور مرتبة على أساس ان يكون الدفع في 7 نيسان وليست لدينا نقود مجمدة في البنوك.

الزعيم: كان يقتضي إجابتنا بالإمكان

او عدمه وإننا نفضل دفع حسابات كل سنة في سنتها وهذا ما نود أن يجري عليه العمل في المستقبل إلا أنكم تركتم الإجابة حتى آخر دقيقة.

هريج: إننا كنا نبذل جهودنا لتلبية رغبتكم في الموضوع.

الزعيم: أود أن يكون معلوما بأننا نفضل أن تدفع حسابات كل سنة في سنتها دون تأخير إلى السنة التالية.

هريج: الحقيقة أن في القضية صعوبات اكبر مما تتصورون سيادتكم ومن المؤسف أن تكون السنة المالية كما هي في الوقت الحاضر، والصعوبة تتعلق بإجراء الدفع خلال بضع ساعات من انتهاء ربع السنة المختص.

الزعيم : هل بيع النفط إلى العالم جرى في آخر لحظة من الشهر او من ربع السنة؟

هريج: قسم من هذا النفط لم يبع، وقسم آخر نقل، والذي قصدته ان النفط المصدر في شهر كانون الثاني مثلا لا يدفع ثمنه عادة إلا في نهاية شهر شباط.

الزعيم: لماذا؟

هريج : هذا هو الترتيب المتبع إذ يتوقف الدفع على إرسال قوائم المبيعات وأوراق الشحن.

الزعيم : المفروض أن يدفع ثمن كل شحنة بعد شحنها مباشرة ولكننا ننتظر تسلم حصتنا عنها حتى نهاية كل ربع سنوي تسهيلا للشركات ولا يهمنا هذا الانتظار ولكن الذي يهمنا في الموضوع هو عدم تأخر حسابات السنة حتى السنة التالية.

هريج : ربما يحصل بعض الصعوبات في تحقيق كل ما ترغبون به سيادتكم، فهناك مبيعات في يوم 31 آذار ولا يمكن قبض ثمنها في نفس اليوم وعلينا أن ننتظر مدة بعد هذا التاريخ لتسلم ثمنها والذي أود بيانه أن معاملة البيع تستغرق سبعة أيام عادة.

الزعيم: إننا طلبنا دفع الحسابات الجاهزة للأشهر الثلاثة الأخيرة لكي لا تبقى الحسابات للسنة المالية التالية ويمكن في هذه الحالة تأخير دفع مبلغ بسيط عن الأيام الأخيرة من الربع.

هريج: إننا مترددون في تعديل كافة الترتيبات الخاصة بإجراء الدفعيات لأنها تسبب لنا مشاكل وصعوبات وما لم نجرِ تعديلات في سنتنا الحسابية فإنه يصعب إجراء تعديل على مواعيد الدفعيات ولهذا فكرنا في إجراء دفع سلفة لحسابات هذه السنة وربما يساعد ذلك الحكومة.

الزعيم: إننا نريد أن يكون هذا الترتيب ثابتا في المستقبل أيضا، وهو حق وليس مساعدة ويمكنكم إجراء الترتيبات اللازمة لذلك وأمامكم وقت كاف طيلة السنة الحالية، ومن المخجل أن نطيل البحث حول مثل هذه المواضيع التي لا أرى مبررا للتكلم بشأنها.

هريج: كل ما أتمكن من قوله إننا سننظر في الموضوع لتدبيره وعلاوة على ذلك فلا اعتقد أن بإمكاني أن أتحمل شيئا من الالتزامات لان ذلك سيؤدي إلى تغيير كثير

من الترتيبات المالية.

الزعيم: ماذا يغير؟

هريج: المطلوب تغيير مواعيد الدفعيات التي نسير عليها لعدة سنوات وسنتنا المالية تنتهي في 31 كانون الأول.

الزعيم: إذاً ليس لذلك علاقة بالربع الخاص بآذار.

هريج: إن الموضوع لا يتوقف على الشركات فقط وإنما هو ذو علاقة بالمشترين الآخرين الذين يخضعون لقوانين ضرائب تختلف عنا، وأنا لا أود هنا تعداد الأسباب والصعوبات وإنما اذكر أنها قضية فنية وأنا شخصيا لا علم لي بتعقيداتها ونتائجها، والذي اعلمه أن تغيير ترتيبات الدفع بين الحكومة والشركات يستوجب تغيير الترتيبات الموجودة بين الشركات والمشترين ولهذا أعدكم بأننا سنتذاكر حول هذا الطلب لعلنا نتمكن من تلبيته.

الزعيم: هذا حق من حقوقنا ولا أرى داعياً لان يكون موضوعا للمداولة في المستقبل وكل ما نريده هو أن نأخذ حقنا في وقته وربما يترتب على الشركات اتخاذ بعض التدابير الخاصة ونحن نشكرها على اتخاذها هذه التدابير لدفع المبلغ في الوقت المعين.

هريج: إن من جملة الصعوبات أننا ندفع مبالغ عن حسابات غير ثابتة أي قبل أن يتم التوصل إلى احتسابها، ومن حق الحكومة طبعا أن تطالب بدفع ثمن النفط ولكن الشركات أيضا تشعر بأنها تستحق بعض الوقت لتدبير الدفع.

الزعيم: هذا صحيح ولكن نريد تسديد حسابات السنة المالية، ولهذا يقتضي دفع المبالغ في شهر آذار فقط ويمكن تأخير حسابات يوم أو يومين إلى الربع المقبل.

هريج: سننظر في الطلب ونتقدم إليكم بمقترحاتنا حوله وإن كنتُ أفضل عدم إجراء تغيير على مواعيد الدفع ولكن ما دمتم ترغبون في ذلك فإننا سننظر في المسألة.

الزعيم: هل ستخبروننا بجوابكم؟

هريج: طبعا ولكن ليس بصورة مستعجلة لان لدينا (12) شهراً قبل حلول موعد السنة المالية الجديدة.

الزعيم: إن التفكير في هذا الموضوع لا يتطلب (12) شهرا.

هريج: أتأمل أن نخبر الحكومة قبل مدة طويلة من موعد الدفع.

الزعيم: يمكنكم إخبارنا خلال شهرين أو ثلاثة ولا أعلم ما هي وجهة نظركم بالنسبة للنقاط الأخرى.

هريج: هل تحبون سيادتكم التكلم عنها حسب ترتيب معين؟

الزعيم: كنا قد طلبنا تقديم وجهة نظركم تحريرياً.

هريج: نظمنا مسودات لكتب جوابية وقدمنا نسخا منها لسيادة وزير النفط.

الزعيم: كنا قد تقدمنا باقتراحات معينة فهل كتبكم هذه لبت تلك المقترحات؟

هريج: كلا.

الزعيم: لماذا؟

هريج: لأننا نشعر بأننا لن نتمكن من الاتفاق مع الحكومة في ما طلبته.

الزعيم: حول أي شيء؟

هريج: حول الإيجار المطلق لأننا كنا قد تقدمنا باقتراحين بعد أن اقترحت الحكومة إيقاف استقطاع الأقساط السنوية لحين صدور قرار التحكيم وكان اقتراحنا الأول يتضمن إيقاف استقطاع 50 بالمائة من الأقساط السنوية، ويتضمن الثاني إيقاف الاسترداد لجميع الأقساط لمدة سنتين على أن يجري التحكيم خلالهما.

الزعيم: من يضمن أن الشركات سوف لا تحاول عرقلة التحكيم خلال هاتين السنتين؟

هريج : لا أعتقد أن لدينا أية مصلحة في عرقلة التحكيم.

الزعيم: إذا كانت نيتكم حسنة فلماذا تشترطون إجراء التحكيم خلال سنتين؟

هريج: لأن التحكيم بيد الحكومة.

الزعيم: سنذهب للتحكيم بعد انتهاء المداولات، ولو أن موافقتنا على الذهاب للتحكيم مع الشركات تنازل منا لأن حقنا واضح في الموضوع. إن الشركات تستوفي مبالغ بصورة تعسفية وكل الناس الذين يؤمنون بالحق والعدل يعتقدون بذلك ويلومون الشركات على تصرفها. لو فرضنا أن النفط لم يكن موجودا في العراق فهل كان باستطاعة الشركات استرداد بدل الإيجار المطلق الذي دفعته للحكومة. إن الإيجار المطلق دفع الحكومة مقابل عمليات التحري عن النفط وعلى أمل الحصول على الأرباح في المستقبل والشركات تعلم هذه الحقيقة.

إننا وافقنا على الذهاب للتحكيم رغبة منا في إنهاء الخلاف ويبدو أننا نبدأ المفاوضات من جديد في كل اجتماع. إننا نرغب في حل هذه القضايا والتخلص منها نهائيا ولا اعلم في ما إذا كنتم تنوون إنهاء هذه القضايا، إنكم تعلمون ستخسرونها وتحاولون إطالة المفاوضات لهذا السبب؟

هريج: إن الحكومة هي التي ترغب في الذهاب للتحكيم لا الشركات.

الزعيم: أن الحكومة ترغب في الذهاب للتحكيم لان الشركات مصرة على أخذ الإيجار المطلق ولذلك فسوف لا نتنازل عن حقنا في استرداد الإيجار المطلق حتى قبل سنة 1952 وإذا كان لدينا حق في ذلك فسنأخذه عن طريق التحكيم وسنرى النتيجة.

هريج: هذا الموضوع فيه اختلاف بارز بين وجهة نظر الحكومة والشركات وللأسباب الكثيرة التي لا أود بيانها الآن نشعر بأن من حقنا استرداد بدل الإيجار المطلق بينما تشعر الحكومة بأن الشركات مخطئة في ذلك والإجراء المنصوص عليه في الاتفاقية لحل الخلاف في مثل هذه الحالة لا يتضمن نصاً بإيقاف الاسترداد وإنما الحكومة هي التي طلبت ذلك ونحن قدمنا مقترحاتنا تسهيلاً لإجراء التحكيم وليس لدينا ما نضيفه على الاقتراحين اللذين قدمناهما بهذا الشأن. إني شخصياً وزملائي نفضل العمل بالاقتراح

الأول الذي يقضي باستقطاع 50٪ من الأقساط السنوية لحين صدور قرار التحكيم لان هذا الاقتراح يضع الطرفين في موضع المستفيد خاصة، وان كلا من الطرفين يشعر بأن النتيجة ستكون ايجابية بالنسبة له.

الزعيم: هل تنص اتفاقية 1952 على استرداد بدل الإيجار المطلق؟

هريج: لم تنص الاتفاقية على عدم استرداده.

الزعيم: كيف يجوز استقطاعه في الوقت الذي لم تنص الاتفاقية فيه على ذلك؟

هريج: إننا نعتقد أن النصوص العامة في الاتفاقية تسمح بذلك.

الزعيم: قبل تنفيذ اتفاقية 1952 هل ورد نص على استرداد بدل الإيجار المطلق؟

هريج: كانت لدينا اتفاقيات أخرى مبنية على دفع حصة مقطوعة عن كل طن.

الزعيم: في جميع الأحوال ليس لديكم حق في استرداد الإيجار المطلق والدليل على ذلك أن اتفاقية 1952، كانت تتضمن نصاً باسترداده ولكن هذا النص حذف باتفاق الطرفين قبل توقيع الاتفاقية لأن عدم استرداده أمر مفروض ولا أعلم في ما إذا كنتم تريدون شهوداً على ذلك؟

هريج: لقد سبق أن جرى بحث هذه النقطة عن طريق محامي الطرفين وكان جواب محامينا أن هذه المسألة من جملة الأشياء التي ستنظرها هيئة التحكيم.

الزعيم: هذا تعسف لأننا وافقنا على الذهاب للتحكيم ونحن أصحاب الحق ويمكننا مع ذلك أن نوقف استقطاعه من دون الذهاب للتحكيم في ما إذا وافقت الشركات على حل المسألة من دون تحكيم.

هريج: أعتقد أن الحكومة قررت الذهاب للتحكيم بناء على عدم موافقة الشركات على إيقاف الاستقطاع.

الزعيم: إننا نرى أن من الأصلح أن تتوقف الاستقطاعات إلى نهاية التحكيم الذي سندخله خلال مدة لا تتجاوز الستة أشهر من انتهاء المفاوضات.

هريج: لقد وافقنا على إيقاف الاستقطاع خلال مدة أطول من هذه المدة وهي سنتان.

الزعيم: إني اعلم ذلك ولكن لا أريد أن يعلق إيقاف الاستقطاع على شرط أننا سندخل التحكيم خلال ستة أشهر أو سنة، فلماذا تضع الشركات هذا الشرط التعسفي؟ فهمنا أنكم أخذتم الأراضي وحصلتم على الامتيازات وتعسفتم بحقوق العراق وما زلتم تستفيدون من أراضينا لحد الآن ولكن الم يكفكم هذا التعسف لكي تضيفوا تعسفات أخرى جديدة؟ إننا يمكن أن ندخل التحكيم بشرط أن تتوقف الاستقطاعات حتى صدور قرار التحكيم على أن تتعهد الحكومة بالذهاب للتحكيم خلال مدة تتراوح بين 6–12 شهراً.

هريج: يؤسفني عدم تمكني من الموافقة على إيقاف الاستقطاع مطلقاً بدون بعض التقييدات.

الزعيم: إن التعهد الذي اقترحنا أن تقدمه الحكومة هو نوع من التقييد.

هريج: لا أظن أننا ننظر إليه بمنظار التقييد.

الزعيم: بأي منظار تنظرون إليه إذاً؟

هريج: إننا نعتقد أننا محقون بإجراء الاستقطاع وهذا هو سبب إحالة المسألة للتحكيم.

الزعيم: كم سنة جرى العمل على الاستقطاع؟

هريج: منذ تنفيذ اتفاقية 1952.

الزعيم: أي تسع سنوات.

هريج: بالنسبة لشركة نفط العراق ثلاث سنوات وبالنسبة لشركة نفط الموصل تسع سنوات، وبالنسبة لشركة نفط البصرة ثماني سنوات.

الزعيم: إذاً يجب إيقاف الاستقطاع ثماني سنوات ونصف وهي مدة معادلة للمدة التي جرى خلالها الاستقطاع ثم نذهب للتحكيم خلال سنة واحدة لأنكم استمررتم في الاستقطاع ثماني سنوات ونصف ونحن ساكتون عن حقنا، ومن العدل ان تنتظروا انتم مدة مساوية ومع ذلك فان إجراءات التحكيم سوف لا تطول مثل هذه المدة.

هريج: هل هذا الاقتراح هو تطبيق لمبدأ المناصفة؟

الزعيم: إن هذا الحل المنطقي بالذهاب للتحكيم خلال 6 – 12 شهراً واني واثق بأن التحكيم سوف لا يستغرق أكثر من سنة أو سنة ونصف، لان كلا من الطرفين وراءه. واني سأكون وراء التحكيم لأني سأطالبكم بالمبالغ المستقطعة سابقاً حتى قبل سنة 1952.

هريج: يظهر أننا ندور في حلقة مفرغة حول الموضوع لأننا نعيد مناقشة أشياء قيلت في السابق وأخشى ألا أتمكن من إضافة شيء.

الزعيم: أخشى أن تخسروا ما لديكم أيضاً إذا لم ترضوا بالحق. هل تريدون تمشية الأمور كأصدقاء أم بالباطل.

هريج: إذاً هذه ليست مفاوضة وان الحكومة قررت الذهاب للتحكيم.

الزعيم: إن هذه مفاوضة للاتفاق على الأسس والمبادئ التي ستذهب بموجبها للتحكيم. إنكم تريدوننا أن نصرف الوقت على هذه الأمور ولا ننصرف إلى القضايا المهمة.

(أعقب ذلك سكون لدقائق عدة)

هريج: إذا كنتم تنتظرون شيئاً أقوله فليس لدى ما أقول.

الزعيم: إنكم لم تأتوا بشيء جديد بعد هذه المدة الطويلة ويمكن القول إنكم جئتم لإطالة أمد المفاوضات ومحاولة تأجيلها لمدة طويلة.

هريج: كلا يا سيادة الزعيم وإنما المسألة أننا لن نتمكن من الموافقة على طلبكم.

الزعيم: ما هو وجه التعسف في طلبنا؟

هريج: اعتقد أنني بينت وسأحاول الآن بيان ذلك ثانية بأننا نشعر بأن من حقنا استرداد المبالغ المدفوعة عن الإيجار المطلق ولكن الحكومة لم توافق على ذلك ولم نتمكن

من حسم الخلاف عن طريق المداولات ولكون الاختلاف بين وجهات النظر كبيراً جداً وحيث أن الإجراء المنصوص عليه في الاتفاقية هو أن تذهب الحكومة للتحكيم في مثل هذه الحالة فان الطريق الاعتيادي أن تطلب الحكومة من الشركات تعيين محكمتها ولكن يبدو أن الحكومة تطلب من الشركات ان تعترف بحقها في إيقاف الاستقطاع في حين لا تعتقد الشركات بذلك لأنها محقة في موقفها، وإذا كانت الحكومة راغبة في الذهاب للتحكيم فلا مانع لدى الشركات بل هي راغبة في ذلك. إن سيادتكم تطلبون إيقاف الاستقطاع خلال مدة التحكيم ونحن لا نشعر بإمكان الاتفاق على هذا المدى وقد سبق أن قدمنا اقتراحين لملاقاة رغبتهم ولا نتمكن من الذهاب أكثر من ذلك.

الزعيم: لقد سبق إيضاح هذه النقاط وسبق أن أخبرناكم بأنكم تستقطعون مبالغ لا تنص الاتفاقية على جواز استقطاعها وأنكم قائمون بذلك منذ سنة 1952، من دون حق وقد طلبنا منكم إيقاف الاستقطاع لحين صدور قرار التحكيم وهذا الطلب لا يؤثر في موقف الشركات إذ لا يعني إيقاف الاستقطاع اعتراف الشركات بحق الحكومة.

هريج: لهذا السبب نحن مستعدون لملاقاة رغبتكم في منتصف الطريق وذلك بقبول احد الاقتراحين.

الزعيم: لم نوافق على الاقتراحين المذكورين لأنه مضت مدة طويلة وانتم تقومون بالاستقطاع لحين صدور قرار التحكيم بشرط ألا يكون لذلك تأثير في حقكم إن وجد هذا الحق!

هريج: متأسف لأني لا أتمكن من قول شيء.

الزعيم: إن رأيك واضح وهو انك لا ترغب في إيقاف الاستقطاع لئلا يفسر ذلك باعتراف الشركات الضمني بعدم حقها في الاستقطاع. هل تدفع الشركات فائدة عن المبالغ التي استقطعتها منا في ما إذا كان قرار التحكيم في صالحنا؟

هريج: سنلتزم بقرار الحاكمين في ما إذا قرروا ذلك.

الزعيم: إنكم تحاولون تعقيد الأمور لكي تطول المفاوضات.

هريج: آسف لعدم تمكني من بيان شيء أكثر مما بينته.

الزعيم: أود أن نقنع الشركات بان تلاقي رغبات الحكومة ولا تتعسف في جميع الأمور العادلة التي طلبتها. يبدو أنكم لم تأتوا بجديد بالنسبة لما سبق أن قدمتموه.

هريج: إذا كان القصد أننا لم نأت بالجواب عن جميع ما طلبتموه فهذا صحيح ولكننا جئنا بمقترحات مناسبة.

الزعيم: كما نتوقع أنكم جئتم بأجوبة مكتوبة بالمقترحات النهائية.

هريج: قدمنا جواباً تحريرياً.

الزعيم: لم يتضمن هذا الجواب شيئاً جديداً أو مطمئنا. إنكم ذاهبون بعيداً في الخيال وأرجو ان يكون معلوماً انه لا تتمكن أية جهة – بعد الثورة – من غمط حقوقنا ولو

أدى الأمر إلى إيقاف ضخ النفط من الآبار بالقوة. يكفي إنكم ضحكتم على الشعب وعلى الحكومة السابقة مدة طويلة ولم تكن هذه الصرائف التي ترونها إلا نتيجة لسرقة ثروتنا. إننا لا نقبل أن يتعسف علينا احد ويمكننا أن نعمل كأصدقاء لان هناك منافع متبادلة.

(استراحة لمدة ربع ساعة)

هريج: ربما لم افهم إحدى النقاط التي تفضلتم بها فقد اخبرني زملائي بأنكم قلتم إذا توقفت الشركات عن الاستقطاع فستكون الحكومة مستعدة لإيقاف الموضوع عند هذا الحد فهل هذا صحيح؟

الزعيم: كلا ليس ذلك صحيحاً إننا قلنا انه لو كانت الشركات قد أوقفت الاستقطاع لما ذهبنا إلى التحكيم، والآن إذا ما وافقت الشركات على إيقاف الاستقطاع فسوف لا نطالب بالمبالغ المستقطعة قبل سنة 1952، أما إذا لم يحصل اتفاق على ذلك فإننا سنذهب للتحكيم ونطالب بالمبالغ المستقطعة قبل سنة 1952 ايضاً. ولهذا فان في الاقتراح ربحاً للشركات في ما إذا وافقت على إيقاف الاستقطاع.

هريج: يبدو أن زملائي لم يفهموا الموضوع.

الزعيم: ما هو المقصود من سؤالك وما هي وجهة نظركم لهذا الأمر؟

هريج: اخبرني زملائي بهذه المسألة ووددت التأكد منها فقط.

(أعقب ذلك فترة سكوت لبضع دقائق)

الزعيم: هناك نوع من الصوم في القرآن هو الصوم عن الكلام (صوم زكريا) حيث كان البني زكريا يصوم ثلاثة أيام لا يكلم الناس خلالها.

هريج: هناك بعض المنظمات المسيحية وبعض الرهبان ايضاً يمتنعون عن الكلام على سبيل النذر، هل تودون معالجة موضوع آخر؟

الزعيم: إن الحاضرين الآن جميعاً قد ابيض شعرهم عدا واحد أو اثنين فالشعر الأبيض قليل في رأسهم وأعني بهذا أننا في خريف الحياة فدعونا نعمل خيراً لبلدنا وكذلك انتم اعملوا خيراً للشركات. إننا نطالب بحق وطننا وحق شعبنا من الأمور العادلة ونتمكن من أخذ حقنا في أية لحظة. لقد كانت تصرفات الشركات السابقة تعسفية نتج عنها إزالة العهد السابق ولهذا يقضي حل الأمور على أساس الصداقة وعلى أساس عدم وجود تعسف. إن القضاء على العهد السابق ليس معناه القضاء على رجال ومجيء آخرين غيرهم للحكم ولكم القضاء عليهم بعقبة التخلص من المآسي التي كانت في عهدهم وإننا نريد إزالة هذه المآسي عن طريق التفاهم لا عن طريق الغبن وإبقاء الأوضاع كما كانت عليه في العهد الماضي، إنكم إذا أصررتم على موقفكم التعسفي فلا شك أنكم ستختمون حياتكم بالتعسف بينما إذا حلت الأمور على أسس عادلة فتكونوا قد أديتم خدمة للشركات وختمتم حياتكم بعمل صالح وكذلك الحال

بالنسبة لنا فنحن أيضاً في خريف حياتنا ونريد أن نعمل خيراً لبلدنا ولا يمكن ان نقبل تعسفا ونحن إذ نطالب بحق بلدنا الصريح الواضح والفارق بيننا وبينكم الآن هو أننا نتصلب في سبيل حماية شعبنا أما انتم فان تصلبكم في سبيل حماية التعسف وضرب الصداقة. إنني اعتقد انه لا يجوز لنا الانتقال من موضوع إلى آخر دون حله إذ ليس من المصلحة في شيء إبقاء الأمور معلقة.

هريج: لا بد أن سيادتكم تشيرون إلى موضوع الإيجار المطلق ولا شك أن الموضوع واضح بالنسبة لحقوق الطرفين ولهذا فان إحالته لشخص ثالث لبيان ما هي هذه الحقوق هو الطريق الصحيح.

الزعيم: الشيء الوحيد المختلف عليه الآن هو أنكم تقومون باستقطاع مبالغ لا تدخل ضمن الاتفاقية ويقضي الحق بإيقاف استقطاعها ريثما يؤيد الشخص الثالث ذلك.

هريج: أبين بكل احترام أن هذه وجهة نظر جهة واحدة لأننا نقول انه يحق لنا إجراء الاستقطاع.

الزعيم: قمتم بالاستقطاع لمدة تزيد على ثماني سنوات من دون حق.

هريج: هذه هي نقطة الخلاف لأننا نعتقد أننا على حق.

الزعيم: إننا نعتقد أن الإيجار المطلق غير داخل في الاتفاقية ونطالب بإيقاف الاستقطاع لحين أن يقرر الشخص الثالث شيئاً للعمل بموجبه.

هريج: اعتقد أن الشخص الثالث سيقول هل الاستقطاع واجب أم لا.

الزعيم: إن الذي نطلبه هو إيقاف الاستقطاع إلى أن يقول الشخص الثالث كلمته.

هريج: اقترحنا طريقتين لتلبية هذا الطلب وأخشى ألا أتمكن من الموافقة على إيقاف الاستقطاع نهائياً.

الزعيم: هل هناك اقتراح ثالث؟

هريج: كلا.

الزعيم: ليس لدى الحكومة غير اقتراحها السابق فإذا صدر قرار التحكيم بجانبكم فيحق لكم عندئذ استعادة المبالغ التي أوقف استردادها كما سيكون لنا الحق في استرداد المبالغ التي تم استقطاعها فيما إذا كان القرار بجانبنا ولا داعي لجعل الشركات مَدينة ومن الأحسن أن تكون دائنة.

هريج: استمعت الى جميع بياناتكم إلا انه ليس لدي ما أضيفه.

الزعيم: ما هو المبلغ الذي تم استقطاعه حتى الآن؟

هريج: حوالي السبعة ملايين باون.

الزعيم: والباقي.

هريج: أكثر من هذا وهذه أرقام تقريبية ويمكننا تزويدكم بالأرقام الحقيقية.

الزعيم : لقد استقطعتم ما يقرب من الـ (50 بالمائة) من المبلغ الأصلي. ألا يكفي ذلك وتعملون على إيقاف الاستقطاع ريثما تظهر نتيجة التحكيم.

هريج: هذا لا يختلف عما تفضلتم به في السابق.

الزعيم: اقترحتم استقطاع 50 بالمائة فإذا اتبعنا هذا الأسلوب فأنكم قد استقطعتم فعلا حوالي 50 بالمائة ويجب إيقاف الاستقطاع أما إذا جرى العمل على استقطاع آخر بمقدار 50 بالمائة فمعنى هذا أن المستقطع سيكون 75 بالمائة.

هريج: إن التحكيم سيقرر احد أمرين إما حقنا في اخذ 100 بالمائة أو لا شيء.

الزعيم: هذا صحيح ولكن في الوقت الحاضر من التعسف أن تأخذوا أكثر من 50 بالمائة وإذا لم توافقوا على ذلك فإننا نعتبر موقف الشركات هنا موقف المتعسف ويدل على عدم التعاون وإنها لا تريد التوصل إلى نتيجة.

هريج: لا اعتقد أن موقفنا يبرر ذلك إذ تعتقدون سيادتكم أن استرداد المبالغ بمثابة الغبن بينما نحن لا نعتبره كذلك.

الزعيم: هل تنص الاتفاقية على ذلك؟

هريج: نعم ولو أن الكلمات ليست صريحة.

الزعيم: هذا هو السبب الذي يجعلنا نطالب دائما بان تكون الاتفاقيات واضحة.

هريج: الاتفاقات تقبل التفسيرات.

الزعيم: لماذا لا نجعلها لا تقبل التفسيرات ولماذا تكون التفسيرات دائما في غير صالحنا.

هريج: يمكن تصحيح ذلك بالذهاب للتحكيم وأود أن أذكركم بأن الحكومة أخبرتنا قبل سنتين بأنها ستذهب للتحكيم.

الزعيم: لو أن رجال العهد المباد لم يذهبوا مع عهدهم بعد الثورة لجرت محاكمتهم على جرائمهم الكبيرة بحق هذا البلد لدخولهم باتفاقيات غير واضحة. إن تفسير أي ناحية من نواحي الاتفاقيات يظهر أنها تقبل تفسيرات غمط حق العراق ولكن هذه التفسيرات لا تنطلي على رجال القانون. اعتقد أنكم تريدون إنهاء المشكلة ولا تريدون التعسف تجاهنا لأنكم استوفيتم 50 بالمئة وتريدون استيفاء أكثر من ذلك بدون نص صريح في الاتفاقية. إن المفاوضات لن تطول وإذا كنتم تعتزمون إطالتها فإننا غير مستعدين لذلك.

هريج: اعتقد أن هذه المسألة مسألة تحكيم لا مسألة مفاوضة.

الزعيم: إنها مسألة مفاوضة وتحكيم. المفاوضة على الأسس والتحكيم على النتائج وعلى سبيل المثال اعرف أن هناك شخصاً مديناً لشخص آخر ومع علمه بأنه مدين يريد أن يذهب الدائن إلى المحاكم ليستحصل حقه وهو يقصد من وراء ذلك كسب الوقت.

هريج: هل هذا الشخص طبيعي؟

الزعيم: كلا لأنه مدين فعلا ولا داعي لاضطرار الطرف المقابل للذهاب للمحاكم. إني أرى أن التاريخ سيحاسب السيد هريج وزملاءه وفي الحقيقة يقتضي النظر إلى الأمور بمنظار آخر، كما نظر حزب العمال الى قضية الهند والباكستان وغيرهما من المستعمرات حيث نظر إليهما بمنظار بعيد فجعل من هذين البلدين صديقين بينما كان تطور الزمن كفيلا بتخليصهما من الاستعمار

ووضعهما في عداد الأعداء لبريطانيا إلا أن نظرة حزب العمال جعلت منهما دولتين مستقلتين صديقتين لبريطانيا ولهذا يجب أن ننظر إلى المفاوضات بمنظار الصداقة والحكمة ويجب أن تعتقدوا أن حق الشعوب لا يضيع.

هريج: إننا لا نعتقد بأننا نضيع حقا.

الزعيم: مضت ثلاث سنوات ولم نحصل على حقنا فهل أوقفتم استقطاع الإيجار المطلق؟ هل تم التنازل عن الأراضي؟ هل رفعتم حصة الحكومة؟

هريج: عرضنا أشياء لم تقبلها الحكومة وإذا كانت الأمور التي ذكرتموها من حقوق العراق فما هي حقوق الشركات إذاً؟

الزعيم: إن تطور الزمن يستوجب تغيير الاتفاقيات والمعاهدات بين فترة وأخرى ولا شك في أن لجوء الحكومات إلى تعديل اتفاقيات عام 1870 و1883 وغيرها عن طريق المفاوضات كان نتيجة حتمية لتطور الزمن. إنني لا أرى موجبا للتأخر أكثر من هذا ويمكنكم الإجابة عما طلبناه تحريريا على أن نجتمع مرة أخرى.

هريج: هذه مسودة جوابنا عن إحدى النقاط ونحن مستعدون لكتابتها بشكل جواب نهائي.

الزعيم: وبالنسبة لبقية المواضيع.

هريج: بالنسبة للتنازل سبق أن نظمنا مسودة جواب ونريد التكلم بشأنها قبل صياغتها بشكلها النهائي.

الزعيم: بحثنا الموضوع طويلا وعلمتم وجهة نظرنا بالنسبة لهذا الموضوع وللمواضيع الأخرى ولا داعي لإطالة المناقشة إذ ما هو القصد من المناقشة هل هو تدوين المحاضر أم التوصل إلى نتيجة ووضع اتفاق؟

هريج: أكون مسرورا لو توصلنا إلى نتيجة يتفق عليها.

الزعيم: أمامكم مقترحاتنا ونريد أجوبتكم عنها ولا يمكن بأي حال من الأحوال الموافقة على رأيكم بالنسبة للإيجار المطلق ولو أن المسألة بسيطة والسبب في ذلك أننا نعتقد أن من الظلم والتعسف إصرار الشركات على رأيها خاصة وان ليس في اقتراحنا خسارة لها.

هريج: هل افهم من هذا أنكم لا تريدون كتابة جواب حول هذا الموضوع؟

الزعيم: نريد جوابا ومن الأصلح أن يكون الجواب بدون تعسف وهذا أمر يعود للشركات.

هريج: يبدو لي من مناقشات اليوم انه لا فائدة من الإجابة لأنكم لا توافقون على ذلك.

الزعيم: اكتبوا جوابكم وأرجو أن لا يكون فيه تعسف. ولا اعلم أجوبتكم بالنسبة للمواضيع الأخرى.

هريج: اعددنا مسودات حول الإيجار المطلق والغاز الطبيعي وضمان الاستفادة من الأراضي المحتفظ بها وكنا نود المذاكرة حول عدد وأشكال القطع التي نود الاحتفاظ بها.

الزعيم: إذا لم نتفق أخشى ان نضطر إلى ان نصدر أمراً بإيقاف عمليات التحري

عن النفط في جميع مناطق العراق لأننا لا نريد أن نكون الجهة المغبونة دائما وأرجو ان يكون معلوما بأني لا أتكلم جزافا وإنما اعني ذلك بالفعل ولا شك في ان السيد هريج سيكون مسؤولا أمام التاريخ.

هريج: افهم من هذا أننا سنقدم الأجوبة أولا قبل استئناف المناقشة.

الزعيم: يبدو أنكم لا تزالون تشعرون بالتعب على الرغم من الإجازة الطويلة ونحن غير مستعدين لإطالة المفاوضات إلى سنوات عدة. اقترح أن تعودوا إلى المقترحات الأخيرة وتقدموا لنا أجوبتكم النهائية عنها تحريريا على أن نجتمع في الساعة الرابعة والنصف من مساء الخميس القادم.

(انفض الاجتماع في حوالي الساعة التاسعة والنصف مساءً).

محضر الاجتماع المنعقد في مقر سيادة الزعيم الأمين بتاريخ 1961/4/6 بين الوفد العراقي ووفد شركات النفط

الحاضرون عن الجانب العراقي:

سيادة الزعيم الأمين عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة

سيادة الأستاذ محمد سلمان

سيادة الأستاذ محمد حديد

الحاضرون عن شركات النفط:

المستر هريج

المستر اكسرجيان

المستر رايلاند

المستر ستيورات

المستر بيشوف

(عقد الاجتماع في مقر سيادة الزعيم الأمين عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة في وزارة الدفاع حوالي الساعة الخامسة إلا ربعا من مساء يوم الخميس 1961/4/6).

الزعيم : يلاحظ أن الكتب الموجهة من قبلكم قد وقع واحد منها فقط وهو الكتاب المتعلق بالإيجار المطلق. أما الكتابان الآخران فيبدو أنهما على شكل ملحوظات وهما يتعلقان بالتنازل عن الأراضي غير المستثمرة والغاز الطبيعي ولم نجد ذكرا للمواضيع الأخرى. لقد درسنا الكتاب المتعلق بالإيجار المطلق ولاحظنا أن ما جاء فيه لا يتفق وما طلبته الحكومة.

هريج: إن ما جاء في الكتاب يتفق وما قيل في الاجتماع الأخير.

الزعيم: لم نكن قد وافقنا على ما قيل في الاجتماع الأخير...

هريج: كنتم سيادتكم قد بينتم ملاحظاتكم في الاجتماع الأخير حول الإيجار المطلق إلا أننا شعرنا بأننا لا نتمكن من تغيير الوضع.

الزعيم: اعتقد أن بإمكان الشركات أن تغير الوضع ولا تبقى على وضعها التعسفي

السابق وذلك في ما إذا كان لها رغبة في استمرار المداولات.

هريج: بأي شيء ترون التعسف سيادتكم؟

الزعيم: إذا قلنا مبدأ المناصفة نلاحظ أن الشركات قد استقطعت لحد الآن حوالي (50٪) من المبالغ المدفوعة عن الإيجار المطلق وتقضي العدالة أن تتوقف عن الاستقطاع وبذلك يبقى حوالي (50٪) غير مستقطع ثم نذهب للتحكيم. هذه هي وجهة نظرنا في الموضوع ولا شك أن استمرار الشركات على الاستقطاع ما هو إلا عمل تعسفي.

هريج: هل تقصدون سيادتكم أننا نترك الـ (50٪) الأولى ونحتكم على الثانية؟

الزعيم: كلا. لا أقصد هذا وإنما قصدت أننا نذهب للتحكيم وإذا ظهر أن الحق بجانبنا فعندئذٍ نأخذ الـ (50٪) المستقطعة أيضاً بالإضافة الى المبالغ التي أوقف استقطاعها. أما إذا كان الحق بجانب الشركات فإننا سندفع الـ (50٪) التي أوقف استقطاعها وهذا هو العدل الذي لا يتردد في قبوله أي شخص والأكثر عدالة من ذلك هو أن تعيد الشركات ما استقطعته إلى الحكومة وتحسم القضية دون اللجوء الى التحكيم ولكن يبدو ان الشركات لا تقبل بهذا الأمر وانما تريد الذهاب للتحكيم ولهذا سنذهب للتحكيم لئلا يلحق الغبن بالطرفين. أرجو ان يعلم السيد هريج أنني لو كنت أتفاوض على قضايا شخصية لما شاهدني في هذا الموقف ولكني في الواقع أتفاوض للحصول على حق الشعب والبلد ولا يمكن أن نفرط بهذا الحق. ان النقطة الأساسية في الموضوع وهي دليل على حسن نيتنا أننا وافقنا على الذهاب للتحكيم ولهذا نريد أن تثبت الشركات حسن نيتها أيضاً.

هريج: إننا نرى أن اقتراح سيادتكم بإيقاف الاستقطاع لم يحدد بمدة معينة.

الزعيم: يتوقف الاستقطاع إلى أن يقول التحكيم كلمته فإذا كان الحق للشركات فتستمر على الاستقطاع وإذا كان الحق للحكومة فتعيد إليكم الباقي من المبالغ.

هريج: اعتقد أن الاقتراح الذي تقدمنا به لإيقاف الاستقطاع لمدة سنتين يفي بالغرض.

الزعيم: إننا نرى انه لا يفي بالغرض لأن إجراءات التحكيم قد تستغرق أكثر من سنتين والمهم أن يتوقف الاستقطاع خلالها.

هريج: كنتم سيادتكم قد استفسرتم عن الوقت الذي تستغرقه إجراءات التحكيم وأجبنا بأنها تستغرق حوالي (12) شهراً.

الزعيم: إن الحكومة مستعدة للذهاب للتحكيم خلال مدة تتراوح بين (6 – 12) شهراً ويقتضي إيقاف الاستقطاع خلال مدة التحكيم والحكومة مستعدة لإعطاء تعهد بالذهاب للتحكيم خلال المدة المذكورة.

هريج: الذي يهمنا هو موعد انتهاء التحكيم لا المباشرة به.

الزعيم: والذي يهمنا أن يتوقف الاستقطاع حتى نهاية التحكيم وأني متأكد من أن نتيجة التحكيم ستكون في صالحنا.

هريج: النتيجة ستكون حسب رأي

المحكمين.

الزعيم: وكذلك مدة التحكيم ستكون بيد المحكمين أنفسهم.

هريج: الذي أود بيانه أننا لا نتمكن من الموافقة على إيقاف الاستقطاع إلى أمد غير مسمى.

الزعيم: أن الأمد مسمى وهو إلى نهاية التحكيم.

هريج: هذا غير محدد.

الزعيم: انه محدد بانتهاء التحكيم وقد يبدو ان هذا اجل مجهول إلا أن المؤكد ان التحكيم سينتهي خلال مدة معينة ومع ذلك اذا فرضنا ان التحكيم سوف لا ينتهي فان الشركات ليست هي الخاسرة وإنما هي الرابحة لان نتيجة التحكيم ستعطيها الحق بالمطالبة بالمبالغ المستقطعة وربما نفكر في اخذ تعهد من الشركات بعدم محاولة عرقلة التحكيم.

هريج: إن التحكيم متوقف على الحكومة لأنها هي التي ستباشر اتخاذ الإجراءات اللازمة له.

الزعيم: إننا سنعطي تعهداً بالذهاب للتحكيم خلال (6- 12) شهراً وهذا وعد ثابت.

هريج: والمدة التي سيستغرقها التحكيم.

الزعيم: هذا بيد المحكمين.

هريج: إن سرعة التحكيم تتوقف على الضغط الذي يستعمله المدعي.

الزعيم: إننا سنستعمل الضغط لأننا دائنون للشركات لا مدينون لها وهذا واضح.

هريج: إننا ننظر إلى القضية من جهة أخرى، إذ نعتقد أننا نخسر شيئاً من إيقاف الاستقطاع.

الزعيم: لتكن الشركات هي المدعية على الحكومة ولتستعمل ضغطها لإنهاء التحكيم بسرعة بالإضافة الى الضغط الذي ستستعمله الحكومة.

هريج: ليست عندنا قضية لنذهب إلى التحكيم من اجلها.

الزعيم: إننا سنذهب للتحكيم وأؤكد أننا سنستعمل الضغط لإنهاء التحكيم بسرعة.

هريج: يؤسفني جدا أن أقول إننا لا نتمكن من الموافقة على إيقاف الاستقطاع بدون أن يحدد ذلك بأجل معين.

الزعيم: إن الأجل محدد بنهاية التحكيم.

هريج: يؤسفني عدم تمكني من قبول ذلك. إننا نفكر بحل آخر للموضوع وسأقدمه لسيادتكم وهو أن توافق الشركات على إيقاف الاستقطاع لمدة سنتين اعتباراً من بدء التحكيم وإذا لم تنته إجراءات التحكيم في نهايتها بناء على عدم حصول تأخيرات من قبل الجانبين (الحكومة والشركات) فعندئذ يمكن زيادة المدة إلى ثلاث سنوات بدلا من سنتين، واعتقد انه ربما من الاصوب ان يترك للمحكمين ان يقرروا في ما اذا كان هذا الإجراء منصفاً أم لا؟

الزعيم: يبدو من هذا أن الشركات هي الدائنة وليست المدينة. إن الشركات هي

المدينة ومن الضروري أن توقف الاستقطاع.

هـريج: اسمحـوا لي أن أبين أننـا لا نبحث الآن جوهر القضية وإنما نتكلم عن إجراءات التحكيم.

الزعيم: إن جوهر القضية هو الذي دفعنا للذهاب إلى التحكيم لأنكم تستقطعون مبالغ لا حق لكم باستقطاعها أو ربما نحن نعتقد ذلك لان الاتفاقيات لم تنص عليه وحيث أن الشركات استقطعت حوالي (50٪) من هذه المبالغ فمن المنطق ان تتوقف عن الاستقطاع لحين انتهاء التحكيم مع العلم أن الاستقطاع يجب أن يتوقف اعتباراً من بداية سنة 1960 وبهذه المناسبة هل استقطعتم عام 1960؟

هريج: نعم إلا حسابات سنة 1960 لم تنته بعد وإذا رشحت الحكومة محكمها قبل (30) أيلول القادم فمن الممكن استبعاد المبالغ المستقطعة من حسابات سنة 1960.

الزعيم: أرى من الضروري أن يحال الموضوع منذ الآن الى المدققين لاستخراج هذه المبالغ واستبعادها من حسابات سنة 1960 لتكون تلك الحسابات صافية كما أن الحكومة تتعهد بالذهاب للتحكيم خلال (6-12) شهراً. ولا أرى داعياً لان يتعسف

السيد هريج بحقنا الواضح خاصة وانه سوف لا يضيع حق الشركات بعمله هذا لان الحق متوقف نتيجة التحكيم. وأود أن يكون معلوماً بأننا غير مستعدين للاستمرار بالمفاوضات اذا لم ننه المواضيع واحدا بعد الآخر خاصة بعد ان قدمنا مختلف الحلول العادلة.

هريج: معنى هذا أن كل ما نتمكن من عمله اليوم هو ان نعيد تقديم الكتاب المتعلق بالإيجار بالشكل النهائي الذي تريدونه هل تريدون سيادتكم بحث موضوع آخر؟

الزعيم: إذا وافقتم على الاقتراح فيمكن متابعة بحث المواضيع الاخرى وإلا فلا.

هـريج: كنت أود أن استوضح عن الموقف فقط.

الزعيم: إننا ننذر الشركات بوجوب عدم القيام بأية عمليات للتحري ما لم تنته المفاوضات والاكتفاء بعملياتها على الآبار المنتجة فقط لأنه يظهر ان الشركات تحاول إطالة المفاوضات لتحصل على المناطق الجيدة.

هريج: هل تأمرون بإيقاف عمليات التحري اعتباراً من اليوم؟

الزعيم: إننا ننذركم ايضاً بأنه إذا انخفض إنتاج النفط عن الإنتاج المقدر فسنكون في حل من التزاماتنا.

هريج: أود أن استوضح هل علينا أن نوقف عمليات التحري من اليوم؟

الزعيم: طبعاً وحتى انتهاء المفاوضات لأنه مضت ثلاث سنوات ولم توافقوا على أي حق من حقوقنا التي نطالب بها.

هريج: معنى هذا أننا يجب أن نفكر مجدداً بموضوع الإيجار المطلق.

الزعيم: إننا غير مستعدين لإطالة المفاوضات لسنوات عديدة والملاحظ أن

الشركات تتعامل معنا بنيات غير طيبة وهي تريد التحري عن النفط لتحصل على المناطق الجيدة وتستفيد من إطالة المفاوضات بحيث تترك في النهاية الأراضي غير الصالحة للحكومة، وهذا أمر غير عادل مطلقاً.

أود ان تعلموا بأننا سننذر قوات الجيش بوجوب استعمال القوة لإيقاف عمليات التحري.

رايلاند: هل يشمل ذلك الفرق الجيوفيزيائية أيضاً أم انه يقتصر على الفرق الجيولوجية فقط؟

الزعيم: المقصود هو إيقاف عمليات التحري بمختلف أنواعها وسوف لا نصبر أكثر من هذه المدة للحصول على حقنا. وأود أن أؤكد أن على الشركات ألا تخفض إنتاجها وإذا ما خفضت الإنتاج فإننا سنتخذ إجراءات أخرى.

هريج: هل تسمحون لنا بالذهاب؟

الزعيم: أني آسف أن تنتهي المفاوضات على هذا الشكل. أما الأماكن التي يسمح للشركات بممارسة عملياتها فيها الآن فهي الحقول المنتجة فقط واعتقد أن السيد هريج كان يتوقع هذه النتيجة ولكن الخسارة ستكون على الشركات.

هريج: سننظر في قضية الإيجار المطلق على أساس أن سيادتكم غير مستعدين للمفاوضة ما لم تنته.

الزعيم: بالفعل ويمكنكم تقديم جوابكم النهائي يوم غد.

هريج: قد لا نتمكن من ذلك وربما يكون بعد غد.

الزعيم: لا بأس في ذلك.

(انفض الاجتماع في حوالي الساعة السادسة مساءً).

طاولة مستديرة

طاولة مستديرة:
الإسكان في العراق.. الواقع والتحديات*

عقد المركز العراقي للدراسات والبحوث المتخصصة طاولة مستديرة في 2012/6/22 تحت عنوان: "الإسكان في العراق.. الواقع والتحديات".

من المعروف أن الإسكان يعد التحدي الأكبر لأي مجتمع في العالم، وفي العراق صار يحتل الأهمية القصوى في حياة أي مواطن، إن ما قدم حتى الآن من جهود فكرية وموارد مالية وطبيعية لم يرتق لمستوى هذا التحدي الكبير.. لذا بادر المركز العراقي للدراسات والبحوث المتخصصة الى إقامة هذه الندوة التعريفية، طارحا هذه المشكلة، هادفا إلى بلورة مقترحات حلول لها، إسهاما منه لرفد الجهد الوطني العام في موضوعة الإسكان باعتبارها مشكلة سياسية مضافة لجوانب أخرى من مالية وقانونية وفنية وإدارية.

ونظرا لأن حل هذه المشكلة يصب في الجانب الإنساني والاجتماعي لذا يعتبر التأكيد على أن الإرادة والأداة السياسيتين هما عامل حاسم لحل هذه المشكلة وكان لا بد من اتخاذ قرارات سياسية وإستراتيجية

طويلة الأمد من قبل الوزارات والجهات ذوات العلاقة والمعنية بإيجاد حلول واقعية.

ويمكن القول أن لمؤسسات الإسكان مهمات أساسية وضرورية ملحة ألا وهي تأمين السكن للمهمشين ومن هم دون خط الفقر بالإضافة الى مهام التنسيق والدعم والتطوير.

كما تناولت الطاولة بعض أساليب وطرق هذا النوع من الإسكان من خلال استعراضها بعض التجارب العالمية، مؤكدة مفاهيم عملية تخص هذا الموضوع. كما قدمت حلولا وتوصيات مناسبة، حيث اعتبرت مسألة توفير الأرض المناسبة لإقامة مشاريع الإسكان من أهم معوقات التنفيذ والتي تتطلب مراجعة موضوع الكثافة السكانية.

وبالمقابل، تم التطرق إلى مشروع قانون هيئة التنمية العقارية والبنوك والمؤسسات المالية معتبرة إياها الموارد الأساسية لتمويل الإسكان على وفق خطط التمويل العقاري والإمكانات المتاحة لهذا التمويل. وفي أدناه محاور الندوة التي تمت بحضور نخب من المعنيين والمتخصصين ومنظمات مجتمع مدني، وقدمت فيها خمس مداخلات رئيسية هي:

1- ملاحظات حول سياسات الإسكان في العراق – أ. رائد جاهد فهمي، وزير العلوم والتكنولوجيا السابق (وقد سبق أن نشرت هذه المساهمة في العدد 352 من مجلة المجلة).

2- طرق تنفيذ المشاريع السكنية – أ. د. مظفر الجابري، خبير تخطيط وإسكان.

3- إسكان المهمّشين، معايير وسياسات – أ. موفق الطائي، خبير معماري.

4- أزمة السكن والحلول المعمارية – د. ماجد الصوري، خبير مالي.

5- الإسكان و التشريعات النافذة – أ. جبار الخزرجي، خبير قانوني.

ننشر في أدناه نص المساهمات الأربعة الأخيرة آملين ان تساهم في توسيع دائرة النقاش حول هذا الموضوع الحيوي الذي سبق لـ (الثقافة الجديدة) ان نشرت في العدد 346 مواد طاولة مستديرة عقدت في 30 / 2010/10، وعلى قاعة جمعية المهندسين ببغداد وضمت في ذلك حين عددا من المهتمين والمتخصصين من مهندسي وزارة الاعمار والإسكان ورجال الأعمال والعاملين في قطاع المقاولات ومهندسين عاملين لمناقشة وضع الإسكان في العراق وما نشرته في حينه وزارة الاعمار والإسكان حول سياسة الإسكان الوطنية في العراق لسنة 2010.

طرق (تنفيذ) المشاريع السكنية
جزء مهم من حل الأزمة الإسكانية

أ.د. مظفر الجابري
خبير تخطيط حضري وإسكان

هناك جهود حثيثة تبذل من اجل إيجاد أفضل الطرق التي تؤدي إلى توفير:

- أعداد من الوحدات السكنية التي يمكن أن تسد الحاجة الماسة.
- والطلب المتزايد للحصول على السكن الإنساني اللائق في بلد يتجه نحو التنمية الاقتصادية والاستقرار والتقدم.

ونود هنا أن نقدم مجموعة من المبادئ على طريق المساهمة لتفهم المشاكل والحلول.

المبدأ الأول: خطة إستراتيجية

إن الدراسة التي قامت بها وزارة الإعمار والإسكان مشكورة بالتعاون مع منظمة

(الهابيتات) ومؤسسات عالمية متخصصة، وكانت بعنوان (سياسة الإسكان الوطنية في العراق) في عام 2010، يمكن اعتبارها قاعدة علمية يتم الانطلاق منها لمعالجة الأزمات والتلكؤ في توفير المعروض السكني بأعداد كبيرة لتلبية الحاجة الملحة والمتفاقمة للوحدات السكنية.

المبدأ الثاني: التشييد الفردي للسكن

إن نظام التشييد الفردي للسكن الذي كان سائدا في العراق ولا يزال في اغلب الحالات .. أصبح نظاما متخلفا عالميا .. نظرا للإهدار الكبير في مواد البناء والكلف الإضافية ثم سلبيات التنفيذ. وقد أصبح من المتفق عليه عالميا، إنشاء مجمعات سكنية متكاملة مع الخدمات الاجتماعية والعامة والفضاءات العمرانية كافة ، وبغض النظر إن كان بناءً عموديا أم أفقيا.

المبدأ الثالث: توفير السكن للمهمّشين

لدينا في العراق، كما في معظم دول العالم النامية، مجموعات ليست قليلة من عديمي الدخل أو المهمشين أو الفقراء أو مناطق العشوائيات. وهؤلاء يفترض أن تقوم شركات القطاع العام (الدولة) حصرا بتشييد وتوفير الوحدات السكنية لتلبية حاجاتهم الآنية.

المبدأ الرابع: شركات القطاع الخاص

أشارت دراسة (سياسة الإسكان الوطنية في العراق 2010) إلى أهمية دور القطاع الخاص، في تنفيذ مشاريع الإسكان. وهذا يتماشى مع ما نص عليه الدستور العراقي، الذي يؤكد أهمية دور القطاع الخاص في العمليات التنموية. وان تهيأ لها الإمكانية لأخذ زمام المبادرات في توفير مخزون سكني يساهم بفاعلية في رفد سوق السكن في العراق وإشباع الحاجة السكنية المطلوبة.

وحيث نشعر بان هناك فراغا ملموسا في وجود شركات الإسكان للقطاع الخاص، شركات منظمة يعتد بها ويعتمد عليها. لهذا نعتقد بان على وزارة الإعمار والإسكان ممثلة بشركاتها المعروفة بخبرتها وتقاليدها أن تقوم بدعم ومؤازرة وتدريب ملاكات شركات القطاع الخاص وربما الدخول معها بشراكات وبصورة تدريجية، ليتسنى لشركات القطاع الخاص التطور والتنظيم والمعرفة التقنية المطلوبة والأداء المقبول، في توفير (السكن الملائم) الذي أشار إليه الدستور العراقي في (المادة 30 أولا) . لأنه وكما هو معلوم بان الحاجة السكنية هي بأعداد كبرى. وليس من المستساغ وطنيا ولا علميا الاعتماد الكلي على الشركات الأجنبية في توفير هذه الأعداد السكنية المطلوبة. ولا بد من خلق شركات محلية تتطور مع الزمن للقيام بهذه المهمة، وكما هو موجود في معظم دول الجوار.

المبدأ الخامس : تقديم الأرض بصورة مجانية للإسكان

موضوع توفير الأرض من قبل الدولة بصورة (مجانية) ليس له مبرر. وقد أثبتت الممارسة العملية أن هناك كثيراص من المحاذير والمنزلقات في هذا الاتجاه. وان المطلوب هو تكوين (سعر) للأرض، يضاف إلى سعر الوحدة السكنية، وفي المحصلة يمكن أن يكون هناك دعم من الدولة لبعض الشرائح من المواطنين عند شراء الوحدات السكنية.. وبهذه الطريقة يمكن أن يكون هناك (ترشيد) للأراضي وطريقة التعامل مع استعمالات الأرض في المدينة.

المبدأ السادس: توفير مواد البناء

من اجل تنفيذ وتشييد المجمعات السكنية بالأعداد الكبرى المطلوبة. فإن من الضروري دراسة توفير مواد البناء الضرورية، التقليدية والمبتكرة. وهذا يتطلب الدعم الجاد والتوجيه الضروري والتأهيل المطلوب لشركات مواد البناء في كل من القطاع العام والقطاع الخاص، لكي يمكن لها أن تلبي الحاجة المتصاعدة من المواد التي تتطلبها خطط الإسكان الطموحة.

المبدأ السابع: الابتكار والإبداع في التصاميم المعمارية

من اجل تلبية متطلبات خطط الإسكان الوطنية وبالأعداد الهائلة المطلوبة والى شرائح متنوعة من السكان؛ يتعين تقديم نماذج متنوعة من الوحدات السكنية، يبرز فيها الابتكار الفني والإبداع التصميمي الذي يستطيع أن يساهم في الترشيد في المساحات، مع تقديم وتلبية أكثر المتطلبات على وفق المعايير المعتمدة.

سكن المهمّشين
موفق جواد الطائي
معمار وأكاديمي

أكدت الدراسات الإستراتيجية والباحثون في مجال الإسكان في العراق أن أهداف سياسة الإسكان هي:

1- إعداد منهاج وتنفيذ المبادئ المعتمدة لحماية حقوق الإنسان المقرة في وثائق الأمم المتحدة، والمحددة لأولويات السكن للقطاع الأكثر فقراً (حد الكفاف) المهمشين مع الشروع بمشاريع تسعف هذه الشريحة من التشرد.

2- دور الدولة محدد بإنتاج بيئة سكنية تتفق والحاجة القياسية للإسكان والتخلي عن دور المجهز للإسكان.

3- جعل الإسكان قطاعا منتجا واستثماريا، والسيطرة على المضاربات الاحتكارية في سوق السكن وخصوصا مضاربات الأرض السكنية التي كان قد تم توزيعها من دون سياسة إسكانية قويمة.

كما حددت دراسات أخرى دور الدولة بما يأتي:

1- تأهيل وتحديث الهيكل التنظيمي لمؤسسات الإسكان للتمكن من إدارة الإسكان بمفاهيم ونظم عالمية وطرق علمية وتكنولوجية مناسبة بعيدة عن مزاجيات المسؤولين والمدراء العامين غير المتخصصين بشؤون الإسكان كما حدث في الإدارات السابقة.

2- تطوير الهيكل التنظيمي للقطاع المصرفي الممول للإسكان وصياغة نظام متطور للادخار والتسليف الإسكاني واللجوء إلى المصارف العالمية التي تسلف بربح قليل جدا.

3- تنشيط قطاع المقاولات الحكومية وشبه الحكومية والخاصة.

4- تأمين نظم عالمية معتمدة لإعداد الهيكل التنظيمي للمتابعة والإشراف وإعداد العمل الاستشاري الرصين والمواصفات العلمية والسيطرة النوعية وكذلك نظام مؤسسات لتطوير الأرض، وبموجب التصاميم الأساسية والإقليمية، وجعلها في متناول منفذي الاستراتيجيات والسياسات الخاصة بتأمين الأرض لمشاريع الإسكان المزمع تنفيذها.

5- تحسين وتطوير الرصيد السكني الموجود وخصوصا الدور المتهرئ.

هناك الكم الهائل من الدراسات والمشاريع

والندوات والموارد التي صرفت لأجل تحسين واقع الإسكان وقد نفذ منها بعض المشاريع الرائدة وخصوصا أيام ثورة تموز الخالدة وعلى يد أبو الفقراء عبد الكريم قاسم ومثل دراسات ومشاريع (دوق سيادس) و(بول سيرفس) وكذلك لاحقا كثير من أطاريح الدارسين وبحوث أساتذة الجامعات. لكننا ومع الأسف لا نجد انعكاساً لذلك على الواقع الحالي، وقد تفاجئنا مؤخرا بإغفال سكن المهمشين في الدراسة الأمريكية القيمة للإسكان والتي يفترض أنها ستحل محل دراسة مخطط الإسكان الشامل للعراق المعدة من قبل (بول سيرفس) والتي لو كان قدر لها أن تنفذ لكنا أحسن دولة في مجال السكان في الشرق الوسط وذلك لما تحمله من أفكار ريادية في مجال الإسكان.

أصبح من الضروري توجيه الأنظار لإسكان المهمشين وتبني إسكان هذه الشريحة التي همشت فوق تهميشها بسبب مخطط الإسكان الجديد وكذلك سياسات الدولة السابقة لهم حيث كانت تعتبرهم أعداء لنظامهم ولا يستحقون المساعدة.

من هم يا ترى المهمشون؟ وهنا يختلف الكثير حول المفهوم وخصوصا في بلد النفط. ولكننا ولغرض هذه الدراسة نجد أن الواقع الاقتصادي قد جعل من ربع الشعب العراقي دون مستوى خط الفقر وهذا كافٍ لجعلهم مهمشين. ومن هؤلاء توجد فئة في أسوأ حال وهم دون حد الكفاف ويشكلون تقريبا 11٪ من الشعب والذين بالكاد يجدون الطعام وهم شبه مشردين ورغم عدم وجود تعداد سكاني دقيق لكن منظمات الأمم المتحدة تقدر توزيع نسبهم (من 11٪) بالشكل الآتي:

1- كبار السن وغير متمكنين عن العمل 40٪.

2- نساء حوامل ونساء غير متمكنات مؤقتا عن العمل 30٪.

3- نساء معيلات لعوائلهن 13٪.

4- عوق وحالات مرضية مستعصية تسبب عدم التمكن من العمل 17٪.

هؤلاء يجب التوجه لإسكانهم في الحال واعتبارهم حالة خاصة مستعجلة. يسمى هذا النوع من الإسكان بسكن الطوارئ للمهمشين وهو المهمة الأساسية والمستعجلة لمؤسسات الإسكان الحكومية في العالم، والذي نصت على ضرورته وثيقة حقوق الإنسان ومواثيق الأمم المتحدة، حيث يجب تأمينه وقبل أي شيء آخر تقدمه الدولة على شكل مساعدات بعد الطعام. وفي حال عدم توفيره فلم تعد الدولة قائمة فعلا بمهامها الرئيسية بل لم تعد دولة. وهذا ملزم ونافذ على جميع الدول الغنية أو الفقيرة فما بالك بدولة نفطية مثل العراق. أما ما تبقى من هم دون خط الفقر فلا شك في انه يجب التوجه لإسكانهم حال انجاز إسكان الطوارئ للمهمشين.

إن موضوع بحثنا هو تأمين السكن لمن دون مستوى خط الفقر وعديمي الدخل الذين يشكلون ربع الشعب العراقي على وفق مرحلة تصميمية محددة تسمى إسكان وحدة اللب (core housing) التي تستهدف بالأساس تأمين الحد الأدنى من الحاجات الإنسانية للسكن وصولا إلى توفير الحاجات القياسية الإسكانية.

وجِد إسكان الطوارئ في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وكان مشروع مارشال الحل الأمثل لتغطية هذه الحاجة الملحة. أما في الدول العربية فكان إسكان اللاجئين الفلسطينيين عام 1948، أول المشاريع

الرائدة، وكانت أول قرية من تصميم رائد عمارة الفقراء حسن فتحي الذي يعد أهم معماري عربي. وقد استعمل القبة الهندية المعروفة (عرقجين) كوحدة لب ومكرراتها النمطية تشكل التكوين العام للمجمع.

أما في العراق فقد كانت قرى الطوارئ التي أنشئت للمهجرين بسبب الحرب العراقية – الإيرانية هي أول نماذج إسكان الطوارئ وقد تعهدتها المحافظات الجنوبية، والتي تمثل القرى المجاورة للقرنة الشكل النموذجي لهذه القرى. طلب مني في حينها أن أعد تقريرا حول إمكانات تطويرها وكنتُ وقتها أصمم وأنفذ قرى تجريبية في الأهوار. وقدمت فعلاً تقريراً مسهبا تم الالتزام به من قبل وزارة الإسكان ووزارة الحكم المحلي.

كانت التوصيات تؤكد تفاصيل جيدة للمفاصل الإنشائية وحماية القصب من التلف والحريق واستخدام انهائات مناسبة، ولم أتمكن من أن أتقدم بأكثر من ذلك لأنها كانت خارج إطار مسؤولياتي. لقد كانت تجربة العيش في هذه القرية مفيدة لأجل تصاميمي اللاحقة، حيث عرفت عن كثب كيف أصمم للمعدمين وكانت مقولة رائد عمارة الفقراء أمامي دائما "إذا كنت تصمم قصرا فكن أميرا وإن كنت تصمم لقرية فكن فلاحا".

مواد البناء

جاءتني أول فرصة لاستخدام تجاربي في القرنة عند تصميم وتنفيذ أول قرية تجريبية لي وهي قرية السيدية. تم اعتماد أسس تصميم وحدة اللب من تنميط وحدات البناء وعمل وحدة بناء قياسية، وأخرى وحدة خدمات، وإمكانية تجميعها بأشكال مختلفة على وفق ما يسمى بالنظام البنائي المنمط المغلق حيث يكون تكراراً لوحدات ثابتة الأبعاد.

اعتمادا على التغذية المرتدة من تجربتي الأولى باشرت تجربتي الثانية في مدينة المدينة. وقد تم اعتماد نظام البناء المنمط المفتوح حيث يمكن من خلال هيكل حديدي تشكيل أي حجم لوحدة اللب ووحدة الخدمات تضاف لاحقا كما يمكن ربط الوحدات بأية كيفية مرنة مطلوبة.

توقف البناء في الأهوار على اثر تجفيفها وبعد الحرب الأخيرة وفي تموز عام ٢٠٠٥، استدعيت لتصميم وتنفيذ قرية طوارئ للساكنين في المناطق المجففة من الهور، والذين جاءهم فيض إعادة الغمر. واعتمادا على تجاربي السابقة تمكنت من تحديد الفرق بين الحاجة الملحة والقياسية وبجداول تنميط دقيقة مع اعتماد توزيع دقيق لمحيط وحدة اللب وجعله محيطا إنتاجيا قابل التكيف لأية مساحة.

أتاحت تجربة الجبايش المجال للتصميم البيئي للموقع. فقد وضعت المباني بشكل يساعد على تلقف الريح السائدة الشمالية الغربية الباردة والرطبة بسبب مرورها فوق المسطحات المائية والبساتين. وكذلك استخدام القطعة الواحدة للعائلة المركبة مع تأمين الخصوصية لهذه العائلة التي هي أساسا مكونة من عوائل عدة: أحفاد وآباء وأجداد وهذه سمة معظم العوائل المهمّشة.

لم يرغب المسؤولون في محافظة ذي قار في أن يتمتع المهمشون بالقرية وأرادوها سكناً للموظفين (أصحاب القرار) فقد تم استخدام وحدة اللب لتلبية الطلب وكان التصميم يعتمد البيت المغلق ولكن يتم تنفيذه بمراحل: أولا تنفذ وحدة اللب والخدمات

وبعدها غرف النوم ومن ثم غرفة المعيشة عندها يتحول الفضاء من استخدام عام إلى فضاء متخصص يوفي بالمتطلبات القياسية للسكن. ويمكن لهذا النموذج أن يستخدم لبيوت المهمشين داخل المدن والآخر لفقراء الريف.

تم اعتماد البناء بالكتل الكونكريتية المفرغة وبأسلوب البناء بالكلفة الأوطأ (وليس واطئ الكلفة) وذلك بالبناء بالجهد الذاتي وتسليح الكتل الكونكريتية دون استخدام القالب وهذا يزيد من تحملها لأحمال البناء.

كما تم تشطيب السطح الخارجي للكتل الكونكريتية لزيادة الظل وبذلك يزداد العزل الحراري، وكذلك تم تأمين أسلوب سهل لتصنيع الكتل لأجل مساهمة الساكنين العاطلين عن العمل بالبناء.

وبالمقابل، استخدمت السقوف المقوسة لتخفيض كمية الحديد المستخدم للسقوف وذلك بالتسليح بالشبكة الحديدية. الشكل يعتمد على جمالية تكرار الوحدات وهذا يقلل من التشويه بسبب التنوع غير المرغوب فيه الذي نجده بالمجمعات السكنية في المدن.

منذ بداية عام 2007، وحتى نهاية عام 2009، عملت خبيراً لدى الأمم المتحدة لشؤون إسكان المهجرين وقد أعددت تقريراً وتصاميم مسهبة وقد هالني ما شاهدت من حالات مأساوية ولكني وجدت أن المهجرين قد لجأوا تلقائيا إلى مفهوم وحدة اللب (انظر الشكل في أدناه):

كان لدى الأمم المتحدة نموذج موحد

لوحدة اللب يجب علينا استخدامه وأبقينا عليه وحاولنا أن نحسن استخدام محيط الوحدة لزياده كفاءة استخدام الوحدة السكنية. كانت معظم بيوت الطوارئ للمهجرين من ألواح البوليورثين وصفائح الحديد وكان بالإمكان بنفس الكلف تشييد هذه الوحدات بمواد البناء التقليدية، كما أن معظمها ذات اتجاه غير صحيح عن زاوية الشمس مما استدعى استخدام مكيفات مكلفة ولم يراع أفضل استخدام للفضاء، رغم هذا وفرت حلاً سريعاً وإمكانية تشكيل أي وحدة وبأبعاد مناسبة بوقت سريع. تم تنفيذ واعتماد التوجيهات وكذلك بناء 400 وحدة سكنية بطريقة وحدة اللب بمواد البناء التقليدية لاحقا وفي جميع أنحاء العراق وهي قيد التنفيذ.

عالميا، تستعمل طرق مختلفة لتحقيق مبادئ التصميم للفضاء الداخلي وقد تكون وحدة اللب من أرخص المواد مثل الحاويات ولكنها تكيف للسكن.

يعتبر نجاح تصميم وحدة الخدمات من أهم مستلزمات وحدة اللب. كما أن الاستخدام الأمثل للفضاء الداخلي هو أهم متطلبات سكن الطوارئ. وعلم تصميم الفضاء الداخلي هو ليس علم الأغنياء للفضاءات الكبيرة والانهاءات الغالية، بل إن من هم في اشد الحاجة إليه هم الفقراء وعلى الدارسين والمصممين أن يفهموا ذلك ويجب تغيير تصورنا ومناهجنا الدراسية على وفق هذا المفهوم.

يمكن لأي سطح دار في العراق أو كراج أو فضاء محصور أن يتحول الى سكن طوارئ كما هو في التجربة المكسيكية، وفعلا حدث هذا مع دور المهجرين في العراق. فقد ساعدت الأمم المتحدة في العراق كثيرا من العوائل المهجرة ببناء وحدة خدمات في بيوت أقارب المهجرين من الدرجة الأولى والثانية لتأهيل سكن ضمن العائلة المركبة الواحدة. وإذا ما حدث هذا على مستوى العراق فيعتقد أنه سوف يحل ثلث الحاجة لسكن الطوارئ.

إن تجميع وحدة اللب يعتمد أساليب عدة وقد لا يكون من الضروري التجميع على المستوى الأفقي بل يمكن التجميع على المستوى العمودي ولفترات زمنية متعاقبة.

كما إن طريقة التجميع تعد قيمة جمالية مقصودة لذاتها وقد لا تتبع مساقط الزاوية القائمة. إن قاعدة الجمال المتأتية من الموازنة بين الحركة المستقرة لشكل الواجهات والحركة المستمرة للكتلة هي القيمة الجمالية التي جاءت بها حركة الديستاك وموندريان بالذات إلى العمارة وتستعمل حاليا ليس على مستوى بناء واحد فحسب وإنما على مجمل المجمع السكني وهذا ما يشكل التكوين الهيكلي الشكلي للحي. إنها حركة رائدة ليس في الإسكان فحسب وإنما في نظريات الجمال، إنها قيمة جمالية مقصودة لذاتها وليس نفعية فحسب.

يعد إسكان وحدة اللب من التصاميم التي تلبي تعاقب استخدام الفضاءات لاستعمالات مختلفة حيث يمكن لنفس الفضاء أن يشغل استخدامات مختلفة وحجوماً متنوعة وهذا يسهل تنوع الوحدات وتطويرها ووضعها بالاتجاهات الصحيحة والمرغوبة. كما يمكن توحيد عناصر البناء وتقييسها لتقليل الكلف وسهولة تركيبها والتي بتجميعها للمكعبات أوجدت حركة معمارية جديدة سميت عمارة المكعبات.

تستدعي البيوت المتهرئة دراسة مسهبة بحد ذاتها ولكن وبقدر العلاقة بالتجربة العراقية فقد كان هناك مشروع طموح وكبير لم يقدر له الاستمرار. بدأ المشروع تنفيذا لتعليمات وزارة الخارجية الأمريكية في عام 2004، والذي كان ينص على توفير فرص عمل لتشغيل العراقيين وتزامن ذلك مع برنامج الأمم المتحدة الذي أدخل إصلاحات على إستراتيجيته العامة إزاء الإسكان والتنمية الحضرية (المادة) من الأهداف الإنمائية للألفية الثالثة، والمتضمن تحسين الظروف المعيشية لـ(100) مليون نسمة من مختلف أنحاء العالم والساكنين في الأحياء العشوائية. وعلى ضوء ذلك تم إعداد وثيقة تعاون تتناول الاستراتيجيات لتحسين واقع سكن مليون شخص والذي قدر في حينها ربع مليون ساكن من المهمشين وقد نفذت تعديلات على بيوت محدودة في الناصرية والديوانية، عانى التنفيذ من سوء الإدارة الموقعية، لكنها مع هذا كانت تجارب تستحق الدراسة. أما بعد ذلك فقد ذهبت الوثيقة والمشروع أدراج الرياح وتحولت الى ايفادات ممتعة وندوات في فنادق عمان الفارهة.

تُعرف البيوت المتهرئة أنها مناطق سكنية تغلب عليها وحدات سكنية لا توفر السكن اللائق والأمين والصحي وذلك بسبب التهدم والاكتظاظ والتصميم الخطأ وتكون فيها شروط الإضاءة أو الخدمات الصحية سيئة. وهذه غالبا ما تكون في مراكز المدن نتيجة للنمو الحضري. حيث هناك عوامل طرد تدفع السكان الأصليين إلى الهجرة نحو مناطق أخرى أكثر نموا وتحضرا وعوامل جذب لذوي الدخول المنخفضة والمهمشين للإقامة فيها وبكثافة سكانية عالية، ويسبب ذلك إهمال الصيانة والإدامة. ورغم عدم وجود إحصاء دقيق لكن هناك تقديرات أوليه تشير إلى أن 60٪ من مهمشي المدن يسكنون هذه المباني، و20٪ عبارة عن سكن مشترك لعدة عوائل (خانات)، و10٪ مبانٍ حكومية ومعسكرات عسكرية وساحات عامة، 10٪ مستوطنات مدنية مصغرة مشتركة. لذلك يصبح لزاما علينا التوجه وبجدية لأجل تحسين هذا النوع من السكن وإطالة عمر الوحدات السكنية بالصيانة أو الإدامة وتحسين جزئي للخدمات الأساسية في البيئة المحيطة لفترة زمنية محددة لحين تمكن الدولة من المباشرة في عمليات التأهيل.

صرايف الثورة قبل 14 تموز

شاء أن تكون مدينة الثورة (الصدر) أحد هذه النماذج للبيوت المتهرئة قبل وبعد ثورة 14 تموز على وفق النمط نفسه صممت في منتصف الخمسينيات وحسب أسس وحدة اللب، وتعتبر عالميا أول مجمع اعتمد الأسس الصحيحة ليس لوحدة اللب وإنما نموذج رائد للسكن بكلفة واطئة وبالجهد الذاتي ويلبي حاجة العمال الوافدين من الريف كذلك الفصل النموذجي بين المركبات والمشاة. كانت المدينة من تصميم رائد الإسكان العالمي وصاحب أهم نظريات الإسكان (دوقسيادس) وساعده رائد عمارة الفقراء المعماري المصري حسن فتحي.

رغم الاعتقاد بزحمة مدينة الثورة (الصدر) لكن هناك فراغات كثيرة وكبيرة فالشوارع واسعة بدون الهيكلة لأهميتها، وفراغات كثيرة بين البيوت والدور معظمها واطئة الارتفاع ذات كثافة بناء قليلة. لذلك اذا ما اعتبرت مجمعات سكنية متعددة العوائل

فيمكن البناء بكثافة عالية دون التأثير في ضوابط التصميم الحضري. وهذا يستدعي إعادة النظر بكافة هذه الفضاءات. وهنا يمكن الاستفادة من التجربة التي تمت في المناطق المتهرئة في مدينة (ريودي جانيرو) في البرازيل حيث تمت الاستفادة من الفراغات وذلك ببيعها إلى المستثمرين والطلب من المستثمرين تطوير السكن المتهرئ بمبالغ الأرض الفارغة وبالمستوى الجيد الذي يشيد بناءه ذلك المستثمر وبذلك تزال سمة المنطقة المتهرئة عن هذه الأحياء وتصبح جزءا متكاملا من المدينة دون وسمها بالأحياء المتهرئة.

لم تقف تجربة دوقسيادس عند ذلك بل صمم حياً لعمال من شغيلة المدن وأتبع به أسس الحي التقليدي نفسها، من الأزقة التي تفصل المشاة عن السابلة، واستخدام الحلول البيئية. ومؤخرا أستعمل المنهاج نفسه لقرية بيئية نموذجية في دبي وهي آخر ما توصل إليه علم تصميم المدن البيئية.

لم تقتصر الدور المتهرئة في العراق على إسكان وحدة اللب فهناك الأزقة والأحياء الشعبية التي قد تستدعي معالجات مختلفة. وأهم ما يمكن أن يقال في هذا المجال هو ضرورة تأهيل هذه الدور لسكن العوائل الممتدة (المركبة) وكذلك على برنامج التأهيل لأن يدعم ببنى تحتية جيدة ونظام حافلات ومشاة دقيق كذلك نظام مجارٍ يعتمد اسلوباً مبتكراً للمناطق التراثية حيث يعتمد التصريف على مسار واحد في الزقاق وبعمق مناسب لا يؤثر في أسس المباني المتهرئة، وبعد ذلك يرتبط في نهاية الشارع بالمجاري الرئيسية وهذا أقل كلفة مما لو يتم ربط كل بيت مباشرة بالمجرى العام وكذلك تنظيم تصريف المياه الثقيلة فتعتمد لذلك وحدة خاصة تقوم بتبخير المياه مما يقلل فترات التنظيف.

تستدعي الأسس التقليدية في المناطق القديمة معالجات خاصة غير معتادة للأسس السائدة حيث يمكن تأمين مجارٍ هوائية وتغليف مفصول عن الجدار يساعد على إمرار الهواء عبر الجدران لأجل توقف الرطوبة الصاعدة بالجدران دون الحاجة لأجل التهديم وصب الأسس والتسمير وغيرها.

تعد مقاييس الفضاء أهم معايير السكن للمهمشين وذلك لعدم وجود إمكانات مادية لتأمين الفضاء القياسي ويمكن تأمين الفضاء الكافي للحاجة الإنسانية الملحة وتعتبر هذه مرحلة وليس النهاية لتصميم الفضاء ولاحقا وعبر استخدام أسس إسكان وحدة اللب يجب تأمين الحاجة القياسية. وقد بينت دراسات عديدة وتجارب مختبرية كثيرة ذلك وأهمها دراسة قسم العمارة في معهد ماسوشست المشهور. ولا شك في أن هذه الدراسة يجب أن تؤخذ بشكل استرشادي لذلك قمت وعبر استبيانات مختلفة بتحديد الحاجة الإنسانية الملحة وصولا الى الحاجة القياسية على وفق جدول تنميط الفضاء لتمكين الدارسين من اعتماده عند تصميم سكن المهمشين.

لأجل التصميم الجيد لتجميع وحدة اللب يجب معرفة عدد وعمر أعضاء هذه العوائل. ونظرا لغياب تعداد سكني دقيق فقد تم اعتماد دراسة التعداد السكاني المعتمدة لأجل الإسكان عام 1987، بشكل استرشادي مع قيامي بأخذ بعض العينات العشوائية والموضحة في أدناه.

نوع العائلة	%
حجم العوائل الفقيرة شبه الفلاحية وفقراء المدن الذي يضم من 1 إلى 3 نسمة	20 %
من 4 إلى 6 نسمة	33 %
من 7 إلى 9 نسمة	37 %
من 10 أفراد فأكثر	10 %

أما من حيث الفئة العمرية فهي كالآتي:

الفئة العمرية	%
من سنة واحدة إلى 17 سنة	50 %
البالغون من 18 إلى 59	48 %
كبار السن من 60 سنة فما فوق	2 %

لذلك أصبح لزاما تهيئة أعداد الوحدات السكنية على وفق الهيكلية المذكورة في أعلاه. أما معايير استحقاق دور المهمشين فهي شغله الشاغل وغالبا لا ينالها المستحقون.

معايير توزيع السكن للمهمشين

غالبا ما توزع الأرض السكنية على المستحقين من المحتاجين والموظفين وصغار التجار والعاملين والفلاحين. غير أن مصطلح (المهمشين) قد يفسر بطرق مختلفة، ويكون في غالب الأحيان بدون معايير. وهنا لا بد من تأكيد ضرورة تحديد معايير وطنية (درجة) لتوزيع الأراضي السكنية والدور المدعمة من قبل الدولة على وفق المقترح في أدناه وبما يسهل إمكانية حصول من هم مهمشين من السكان ممن هم على أوطأ حالة من حالات الفقر:

1- عائلة أيتام تقل أعمار أطفالها عن 18 عاماً (20 درجة)، أما في حالة أن تكون المرأة هي ربة الأسرة فمن المناسب أن يكون لها 22 درجة.

2- عائلة واحدة تكون فيها المرأة هي ربة المنزل فتعطى لها 14 درجة.

3- رب العائلة غير القادر على العمل يعطى ثماني درجات، أما إذا كانت امرأة فتعطى عشر درجات كما تعطى أيضا نصف نقطة لكل شخص سواء أكان رجلا أم امرأة. أما الأطفال تحت سن الـ 14 عاما فيعطون درجتين لكل واحد منهم.

4- في حالة وجود المسنين أي فوق الـ 60 عاما فيعطون - كما الأطفال - درجتين لكل واحد منهم، وتعطى ثلاث درجات بدل اثنتين

في حالة وجود شخص مصاب بمرض عضال.

5- يضاف هذا المعيار إلى المعيار السائد حسب الدخل حيث تعطى 16 درجة لعديمي الدخل و12 درجة للذين لا يتجاوز دخلهم الـ5 دولارات شهريا، و 8 درجات للذين يتراوح دخلهم بين 5 إلى 15 دولاراً، وأربعة درجات للذين يتراوح دخلهم بين 15 و45 دولارا. ولا اعتقد أن من الضروري إضافة اية درجات للذين يبلغ دخلهم 45 دولارا فما فوق لأن هذه الأرض هي من أحقية المعدمين من جميع فئات الشعب المهمشة وحسب ما تقره جميع مواثيق وأعراف الأمم المتحدة. ولا بد لنا من إظهار هذه المعايير في حملاتنا الإعلامية وتأمين نظام متابعة وتسجيل تأمين المساكن. فالإخلاء وعدم تأمين سكن آمن لا يقل إيذاء عن التعدي الجسدي وصنوف العنف الأخرى، ووجود مراكز متابعة لهذا الحق أصبح ضروريا، مع دعم قانوني مجاني لحق السكن من اجل تغيير القوانين ومتابعة مواضيع الملكية والإخلاء والعنف وتأمين الوصول الى البنية التحتية الفنية الخدمية والاجتماعية على وفق معايير تفصيلية مناسبة للأقاليم والمدن في العراق. كما يجب أن نراقب ونتابع وندعم عمليات الإخلاء باسم تطوير المدن وتنفيذ التصاميم الحضرية الجديدة حيث يتوجب تأمين مكان وسكن لهؤلاء واعتباره حقا قانونيا ملزما كحق التطوير وقوانين التصاميم الأساسية.

بعد هذا العرض نجد ضرورة المباشرة ببرنامج إسكان المهمشين على وفق الأسس المذكورة في البحث وجعلها أساسا لمعيار المواطنة وليس الإسكان فحسب وهذه هي أبسط حقوق الإنسان في بلد النفط.

أزمة السكن والحلول المالية

د. ماجد الصوري

خبير مالي

أزمة السكن

يعاني العراق حسب جميع التقارير الرسمية وغير الرسمية من أزمة سكنية حادة. وبلغت التقديرات المختلفة للحاجة إلى الوحدات السكنية بين 2.5 – 3.0 مليون وحدة سكنية، هذا عدا الوحدات اللازمة لتغطية تزايد عدد السكان الطبيعي. مع العلم انه لا يوجد حتى الآن أي إحصاء رسمي معتمد يحدد هذه الحاجة. وقد أدت هذه الأزمة إلى النتائج الآتية:

1- ارتفاع أسعار الأراضي والوحدات السكنية من اجل التملك وارتفاع في إيجار الوحدات السكنية المعدة للإيجار.

2- انتشار الأبنية العشوائية غير المخدومة.

3- عجز واضح في البنية التحتية سواء في الوحدات القائمة أم الجديدة، كهرباء، ماء، طرق، مجارٍ، التخلص من القمامة والاستفادة منها.

4- تلوث كبير للبيئة.

5- تجزئة بعض الوحدات السكنية القائمة إلى وحدات عدة من أجل تأمين دخل إضافي.

الأسباب المهمة التي أدت إلى تراكم هذه الأزمة وزيادة حدتها

1- الزيادة المستمرة في عدد السكان وعدم قيام الدولة، لفترة طويلة، بدورها على مستوى التخطيط اللازم للمدن والضواحي والأرياف، وتخصيص الأراضي.

2- عدم تطبيق الإستراتيجيات التي تم وضعها من قبل الدولة أو بالتعاون مع الهيئات والمنظمات الدولية.

3- ضعف الجدية و الإرادة السياسية في حل هذه المعضلة.

4- ضعف واضح للسياسة المتعلقة بحل مشكلة الخدمات والبنية التحتية اللازمة للمناطق السكنية.

5- ضعف الاهتمام بالصناعات الإنشائية.

6- ضعف العناية بسوق العمل، وضعف تقاليد العمل، مع غياب الحوافز المشجعة والقوانين الرادعة للمخالفات والتلاعب في تنفيذ الأعمال.

7- ارتفاع تكاليف مواد البناء مقارنة بالدول المجاورة.

8- الفساد الإداري والمالي، وضعف الاستقرار السياسي والأمني.

المساحة المطلوبة لـ 3 ملايين وحدة سكنية باستخدام الفرضيات الآتية:

الفرضية الأولى:

- مليون وحدة سكنية في الأرياف بمساحة 100 متر مربع أو اقل حسب الاتفاق، وبذلك تبلغ مساحة الأرض للبناء 40.000 دونم على مستوى العراق بمعدل 2222 دونما في كل محافظة مع منح 5 دوانم لكل عائلة لتشجيع الإنتاج الصغير والمتوسط والكبير، أي توزيع 5 ملايين دونم على مستوى العراق. وبفرض توزيعها بالتساوي على المحافظات فان حصة كل محافظة تكون 277778 دونما. مع تفعيل دور المنظمات المدنية، جمعيات فلاحية وسكنية للأغراض الآتية:

● المساعدة في توزيع الأراضي على الفلاحين وفقا للشروط التي يتم الاتفاق عليها بين الدولة والفلاحين.

● التعاون مع الجهات الحكومية في موضوع البناء وتوزيعه بين تجمعات فلاحية بين 250 و1000 عائلة حسب دراسات الجدوى من حيث البنى التحتية المتكاملة والتخصصات الزراعية حسب المناطق والمواسم مع تخطيط الأراضي اللازمة للخدمات.

● المساعدة في تسويق المنتجات الزراعية والمشاكل الأخرى التي قد تظهر.

الفرضية الثانية:

- مليون وحدة سكنية بمساحة 80 مترا مربعا لذوي الدخل دون المتوسط، بناء عمودي 3 طوابق، تقام في ضواحي المدن وفي الأراضي غير الزراعية أو ضعيفة الإنتاج. أي ما يعدل 10667 دونما، عدا المساحات اللازمة للبنى التحتية. أو ما يعدل 593 دونما لكل محافظة إذا ما وزعت بالتساوي.

الفرضية الثالثة:

- 500 ألف وحدة سكنية بمساحة 100 متر مربع بناء عمودي لذوي الدخل المتوسط يكون في المدن أو في الضواحي القريبة منها أي ما يعدل 6667 دونما في عموم العراق أو 371 دونما لكل محافظة إذا ما وزعت بالتساوي عدا المساحات اللازمة للبنى التحتية.

الفرضية الرابعة:

- 500 ألف وحدة سكنية لذوي الدخل فوق المتوسط، بناء مسطح بمساحة 250 مترا مربعا للوحدة مع مساحة بناء 150 مترا مربعا، اي 50 ألف دونم على مستوى العراق، أو 2778 دونما لكل محافظة. ومن

الممكن أن يكون البناء عموديا بطابقين أو ثلاثة طوابق وعندئذ تقل المساحة المطلوبة. هذا مع العلم أنه هناك مليون إلى 1.6 مليون قطعة ارض موزعة لهذا الغرض ممنوحة بأسعار رمزية.

الأموال اللازمة لبناء الوحدات

المساحة الاجمالية المطلوبة لـ 3 ملايين وحدة سكنية (دونم)

الفرضية	المساحة الاجمالية للمحافظة مع الخدمات		المساحة الاجمالية للسكن	للمحافظة
الاولى	5000000	277778	40000	2222
الثانية	13867	770	10667	593
الثالثة	8667	482	6667	371
الرابعة	65000	3611	50000	1667
الاجمالي	5087334	282641	107334	4853

السكنية على أساس الفرضيات الآتية:

- الوحدات السكنية في الأرياف بتكلفة 220 دولارا للمتر المربع الواحد.
- الوحدات السكنية لذوي الدخل دون المتوسط بتكلفة 220 دولارا للمتر المربع الواحد.
- الوحدات السكنية لذوي الدخل المتوسط بتكلفة 240 دولارا للمتر الربع الواحد.
- الوحدات السكنية لذوي الدخل فوق المتوسط بتكلفة 300 دولار للمتر المربع الواحد.

وإذا ما أضفنا قيمة البنية التحتية على أساس حسابات مجمع بسماية بافتراض 100 دولار للمتر المربع بناء، بما في ذلك الطرق وجميع الخدمات الأخرى فان المبلغ اللازم لهذه الخدمات سيبلغ 24.5 مليار دولار. أي أن المبلغ الإجمالي المطلوب سيصل إلى حوالي 100 مليار دولار. وإذا ما تم تقسيمه على أساس مخطط لخمس سنوات فإن الحاجة السنوية ستبلغ 20 مليار دولار، إما إذا تم تقسيمه على 10 سنوات فإن الحاجة السنوية ستكون 10 مليارات دولار وذلك لتغطية البناء والخدمات.

طريقة التمويل

1- تقوم الدولة بتحمّل جميع النفقات المتعلقة بالبنية التحتية والبالغة حوالي 5 مليارات دولار سنويا إذا ما كان البرنامج لمدة 5 سنوات، ونصفها إذا ما كان لمدة عشر سنوات.

2- تقوم الدولة بتمويل تكاليف البناء لجميع الوحدات السكنية في الارياف وتمنح للفلاحين مع الارض البالغة 5 دوانم على اساس الإيجار بسعر رمزي لا يتجاوز 200-300 دولار سنويا مع فترة اعفاء 3-5 سنوات. أي 200-300 مليون دولار سنويا

بمعـــدل 11.1- 16.7 مليـــون دولار لـكل محـافظة تستخـدم من الإدامـة اللازمـة لهـذه المجمعات.

3- يتم تمـويل الـوحـدات السـكنيـة لـذوي الدخل دون المتوسط عـن طريق القروض بفائدة دنيـا 1-2٪ عن طريق المصـارف والصـناديق الحكوميـة التجاريـة والمتخصصـة، ولمدة 25-30 سـنة مع فـترة سمـاح لمدة 2-3 سنـة، بعد زيادة رأسمـال هذه المؤسسـات الى المستوى المطلوب بحـدود 5 مليـارات دولار. وسيكون القسط الـشهري مع الفـائدة بين 60.000 - 72.000 دينار.

4- يتم تمـويل الـوحـدات السـكنيـة لـذوي الدخل المتوسط عن طريق المصـارف الحكومية التـجاريـة والصنـاديق المتخصـصـة بعد زيادة رأس المال، بفـائدة سنوية لا تتجـاوز 2٪ ولمدة 15- 20 سنـة. وسيكـون القـسط الـشهـري بحدود 125- 164 ألف دينار.

5- يتم التمـويل لذوي الدخل فـوق المتوسط عن طريـق المصـارف التجاريـة الحكـومية والأهلية ولمدة 10- 15 سنة وبفائـدة سنوية 4٪، تتحمل الحكومة الفرق بينهـا وبين الفائدة التجاريـة، وبذلك يتـراوح القسط الـشهري بين 300- 468 ألف دينار.

المصادر المتاحة للتمويل

1- الموازنة العامة للدولة.

2- أمـوال صنـاديق التقـاعد والـضمـان الاجتماعي.

3- أمـوال المصارف والصنـاديق الحكومية والأهلية المتخصصة والتجارية.

4- أموال الأوقاف.

5- استخدام بعض الفائض من الاحتياطي السيادي لدى البنك المركزي العراقي.

الإسكان والتشريعات النافذة

جبار عبد الخالق الخزرجي
خبير حقوقي

سوف نعالج الجانب القـانوني والتشريعي لمسألة الإسكـان، لما يشكله هـذا الموضوع من أهمية في الإسراع بمعالجة هذه المشكلة.

أولا: قـانـون وزارة الإعمـار والإسكـان رقم (33) لسنة 2012.

شـرع هـذا القـانـون وجـاء في الأسبـاب الموجبة بغية توسـيع الصلاحيات الممنوحة للمحافظات غير المنتظمة بـالأقاليم وفي المادة (2) منه فـان من أهـداف الـوزارة تقـديم أفضل المـواصفات والخـدمـات في مجـال التشييد والـصيـانـة وتـأمين السكن الملائم للمواطن، وفي الفقـرة (10) من المادة (3) منه: المشاركة مع جميع القطاعات في مجال السكن تماشيا مع سياسة الإسكان في البلد.

ثانيا: وزارة البلديات والأشغال العامة

تواجه الـوزارة ثلاث مشكلات بغية توسيع التصـميم الأسـاس للمدن، تتعلق بـصنف الأراضي وهـي الأميـريـة والملك الـصـرف، والمثقلة بحقوق تصرفية وان حلها يقضي بتعـديل قـرار رقم (222) الخـاص بفـرز الأراضي، وبذلك تستطيع شمول الشـرائح المشمـولـة بـالأراضي لحـاجـة الـوزارة إلـى التوسيع بـالتصـميم الأسـاس للمـحافظات، وبالتالـي يجب معالجة أنـواع الأراضي، علما أن المشكلـة تكمن في أراضي الملك الصرف، والمثقلة بحقـوق تصرفيـة، وان الوزارة وتسع وزارات أخـرى معينـة في تعـديل القـوانين والقرارات القديمة.

ثالثا: قانون الاستثمار رقم (13) لسنة 2006

رغم تعديل القانون فإن الفقرة (أولاً) من المادة (2) نصت على:

"تشجيع الاستثمارات ونقل التقنيات الحديثة للإسهام في عملية تنمية العراق وتطويره وتوسيع قاعدة الإنتاجية والخدمية وتنويعها ".

وبموجب مواد القانون فإن المستثمر سواء كان عراقيا أم أجنبيا فان المشاريع التي تتم وفقا للقانون الآنف الذكر مشمولة بالإعفاءات والتسهيلات والضمانات. ورغم بعض الملاحظات الواردة على القانون بعد تعديله فإنه يشكل أساساً قانونياً سليماً للاستثمار العراقي والأجنبي في مجال الخدمات ومنها قضية السكن والإسكان.

رابعا: هيئة التنمية العقارية

شكلت (لجنة الاقتصاد والاستثمار) في البرلمان العراقي لجنة قامت بإعداد مشروع قانون هو (هيئة التنمية العقارية) حيث تم رفع المشروع إلى هيئة رئاسة البرلمان بغية دراسته والعمل على تشريعه. تضمن المشروع ثلاث فقرات، الأولى تنص على توزيع قطع أراضٍ مع تقديم سلف عقارية، والفقرة الثانية تتضمن بناء بيوت واطئة الكلفة وتوزيعها بين المحتاجين، وتكون الأسبقية للفئات المحرومة وممن يسكنون في العشوائيات والذين لا يملكون أماكن سكن.

أما الفقرة الثالثة فانه في حال لم يشكل سكن المتجاوزين أية آثار في مخطط المدن، عندها يمكن تمليك الأراضي أو الوحدات السكنية مقابل أجور زهيدة بعد توفر المستلزمات الضرورية.

خامسا: القوانين والأنظمة الخاصة في دوائر الأوقاف والمصارف وشركة التأمين

شرعت بعض المصارف وشركات التأمين ووزارة الأوقاف (سابقا) مشاريع قوانين تعطي بموجبها قروضا للعاملين فيها، بغية شراء مساكن لهم أو شراء قطعة ارض وبنائها على أن يرهن الدار لدى الشركة او المصرف المذكور ويُستقطع شهريا من العاملين قسط يسدد به القرض ولحين تسديد القرض كاملا. أما وزارة الأوقاف فلديها مشاريع سكن وإسكان وبناء عمارات عديدة يمكن تطويرها وتوسيع العمل بها كجزء من حل مشكلة السكن.

سادسا: النتائج

من كل ذلك يمكن الاستنتاج أن مشكلة الإسكان والسكن مشكلة مهمة وحيوية والواجب إعطاؤها الأهمية القصوى والتي تنحصر مفرداتها بتوفير عنصرين أساسيين هما: الأرض والمال.

وفي رأينا من الممكن تشكيل هيئة إسكان تضم وزراء الإعمار والإسكان والبلديات والعدل، وهيئة الأوقاف بشقيها، والبنك المركزي، والهيئة الوطنية للاستثمار بغية رسم سياسة إسكان تعمل على توفير العنصرين الآنفين: الأرض والمال ومعالجة المعوقات القانونية والمالية كافة، ومعالجة أزمة السكن والإسكان بالشكل الصحيح والسريع وبما يتناسب والواقع المرير الذي تعيشه غالبية السكان بسبب أزمة السكن.

توصيات ومقترحات

أفضت المداخلات التي قدمت والمناقشات التي دارت إلى بلورة مجموعة من التوصيات والمقترحات من بينها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

– تطوير سياسة التمويل.

– تحسين النظام الإداري وتخليصه من البيروقراطية وتجاوز مختلف أشكال الروتين المعوقة.

– استكمال متطلبات إجراء إحصاء سكاني علمي.

– دعم القطاع الخاص في مجالي البناء وصناعة مواد البناء.

– عدم توزيع أراضٍ غير محذوفة.

– إدخال معطيات الدراسة الوطنية للإسكان في برامج ومخطط الوزارات.

– لا يمكن حل مشكلة الإسكان في ظل غياب رؤية واضحة لبناء الدولة العراقية الجديدة. فتبلور هذه الرؤية يمثل خطوة أولى مهمة لحل هذه المشكلة.

– تجزئة مشكلة الإسكان هي أفضل حل لمعالجتها وذلك لأنه من المتعذر حلها من قبل طرف واحد. فمثلا لا يمكن لوزارة الإسكان حل مشكلة الإسكان وغيرها.

– يجب أن تكون للقطاع الخاص مساهمة فاعلة في حل مشكلة الإسكان. وبالمقابل لا يجب وضع تعارض بين القطاع الخاص والقطاع العام عند التفكير في معالجة هذه المشكلة.

– توفير الوحدة السكنية يجب أن يقترن بالنتائج الاجتماعية والثقافية والنفسية على المواطن.

– مشكلة الأراضي هي الأعقد في هذا المجال، لذا تحتاج إلى حلول جذرية.

– المشكلة الأساسية تكمن في غياب الإدارة السياسية واتخاذ القرار السياسي المطلوب وحل الرابطة بين التخطيط والتنفيذ.

– يجب تبني ما يخطط له من قبل مجلس النواب لكي يتحول إلى وجهة تنفذها السلطة التنفيذية.

– يجب وضع اطر تلزم جميع الأطراف لرسم سياسة الدولة.

* نظّم هذه الطاولة المستديرة (المركز العراقي للدراسات والبحوث المتخصصة) الذي أعدّ هذه الخلاصة وخصّ بها مجلة (الثقافة الجديدة).

نصوص مترجمة

مجتمع ما بعد النمو❖

بقلم: تيم جاكسون
ترجمة: رشيد غويلب

البروفسور تيم جاكسون: اقتصادي وأستاذ التنمية المستدامة في جامعة سواري البريطانية، وهو من نقاد النمو الاقتصادي المطلق، ويقود مجلسا استشاريا حكوميا يدرس مؤشرات الرخاء الجديدة. كما ان البروفسور جاكسون يكتب النصوص المسرحية اثناء أوقات فراغه، وقد حازت مسرحياته العديد من الجوائز.

يعيش المجتمع مأزقا، فنبذ النمو يعني المخاطرة بانهيار اقتصادي واجتماعي، والسعي المطلق للنمو يعني تهديد النظم البيئية التي يعتمد بقاؤنا – في المدى الطويل – عليها.

المطابخ السياسية لا تأخذ، في الغالب، هذه المشكلة بجدية، وفي المناقشات العامة يتم دفعها إلى الهامش. غير انه عندما تتسرب الحقيقة إلى الوعي الجمعي، عندها يكون المقترح المفضل في الغالب: فصل النمو باستمرار، وبطريقة ما، عن تبعاته المادية، في حين يستمر الاقتصاد بالنمو المضطرد. ونادرا ما يجري الإقرار بحجم المهمة الكبيرة، في عالم يبلغ تعداد سكانه تسعة مليارات نسمة في عام 2050 يسعون جميعا للوصول إلى نمط الحياة في الغرب، عندها ستكون كثافة الكربون عن كل دولار من الناتج الاقتصادي، اقل 130 مرة مما هي عليه الآن، وفي نهاية القرن الحالي سوف يأخذ الاقتصاد الكربون من الجو بدلا طرحه خارجا.

لا احد يعرف كيف سيبدو هكذا اقتصاد، ويبدو أن الأمر لا يثير الاكتراث، فجميع المؤسسات والمحفزات تشير حاليا باستمرار إلى الاتجاه الخاطئ. لنعترف

لأنفسنا بالمأزق الذي نحن فيه، والذي يجعل مستقبلنا ضبابيا بحيث نفضل الإيمان بالمعجزات: "ستنقذنا التكنولوجيا التي تجيد الرأسمالية التعامل معها، ولذا دعونا نستمر على ما نحن فيه ونأمل خيرا".

لقد وصلت إستراتيجية خداع الذات إلى نهاياتها، وجميع الافتراضات الساذجة، مثل القول، بان الرأسمالية عادة كفوءة وستعمل على استقرار المناخ وتتعامل مع شحة المواد الأولية، أصبحت تواجه الإفلاس. وما نحن بحاجة ماسة إليه اليوم هو رؤية واضحة وسياسة شجاعة وإستراتيجية دائمة لمواجهة مشكلة النمو، لهذا يجب علينا أن نفهم أولا ما الذي يبقينا في موقف الرفض الخطر. وهنا تلعب عوامل طبيعة وكذلك هيكلية دورها. فالسعي للربح يؤدي إلى البحث المستمر عن منتجات وخدمات جديدة أفضل أو ارخص، وكذلك البحث عن الجديد وعن الموقع الاجتماعي يجعلنا سجناء في قفص الاستهلاك الحديدي. الوفرة تقودنا إلى اللامعقول، انها تقود إلى إنتاج وإعادة إنتاج أشياء جديدة للمستهلك، نعم. فهو مجبر على ذلك، ومواجهة الجديد دائما، تزيد مخاوفنا وتضعف قدرتنا على تأمين أهداف اجتماعية بعيدة المدى. الوفرة تقوض رفاهنا ورفاه شعوبنا، وفي مكان ما على الطريق نفقد في الواقع ما نريده حقا وهو الرفاه للجميع.

إن كل هذه الأمور لا مفر منها، فنحن لا نستطيع تغيير الحدود البيئية بنفس القدر الذي لا نستطيع فيه تغيير طبيعة الإنسان، ولكننا نستطيع أن نخلق عالما اجتماعيا، وسوف نفعل هذا. ان معايير هذا العالم هي معاييرنا وتصوراته هي تصوراتنا، ومؤسساته وهياكله هي التي تحدد هذه المعايير والتصورات، ومن هنا بالضبط يجب أن يبدأ التغيير.

وعود النزعة الاستهلاكية الفارغة

الأساس الضروري للتغيير هو التصور بان القدرة على صنع الرفاه يمكن ان تحدث في إطار الإمكانات البيئية لكوكب محدود، وهذا التصور له بالتأكيد جوانب مادية. وسيكون من العبث الادعاء أن كل شيء على ما يرام مع وجود نقص في الغذاء والمأوى، وهذا هو واقع الحال بالنسبة لمليارات من البشر في البلدان النامية. وليس صعبا في الوقت نفسه معرفة أن المساواة بين النوعية والكمية مع المزيد من الجودة فكرة خاطئة أساسا، لان الأشياء بمفردها لا تجعلنا مزدهرين، بل تعترض أحيانا طريقنا.

ان جزءاً من الرفاه يكمن في القدرة على منح الحب وتلقيه، وأن تحظى باحترام الآخرين، وتقديم خدمة مفيدة للمجتمع، وأن يكون لديك الشعور بالانتماء إلى المجموع، والثقة بقدرته على المشاركة في صياغة المجتمع وأن تجد مكانك الآمن في العالم. إن المشاركة المفيدة في الحياة الاجتماعية هي جزء أساسي مكون للرفاه.

ترتبط المسألة قبل كل شيء بالاحتياجات الاجتماعية والنفسية، والمشكلة أن المجتمع

الاستهلاكي ربط توفير هذه الاحتياجات بسلسلة كاملة من العمليات والسلع المادية. ومن المؤكد اننا لسنا المجتمع الأول الذي يحمّل هذه الأشياء بعدا رمزيا، ولكننا المجتمع الأول الذي يحول بهذه الدرجة قدرات اجتماعية ونفسية إلى أهداف مادية.

ان الوعي بالهوية، وأشكال التعبير عن الحب، والبحث عن معنى ومحتوى الحياة، وحتى الأحلام والرغبات يجري التعبير عنها بلغة السلع، وعلى مسرح النزعة الاستهلاكية تدور مشاهد لأعمق الأسئلة المرتبطة بالعالم ومكاننا فيه، ويجب أن يوضع الوصول اللامحدود للسلع، في خدمة التوق للحرية وأحيانا للخلود.

في مسرحية تنيسي وليامز "القطة على سطح صفيح ساخن" التي كتبت في عام 1955، يقول (بيغ دادي) إن "الإنسان هو حيوان يجب أن يموت، وإذا كان بحوزته المال فيشتري ويشتري"، ويضيف "وهو يشتري ما يستطيع الحصول عليه، لأن في داخل أعماقه تستقر أمنية مجنونة مفادها أن ما يشتريه ويحسه هو الحياة الأبدية، كما أعتقد".

يتلقى خداع النفس هنا ما يغذيه، ومفهوم جدا أن حيازة الأشياء المادية تقدم دائما الجديد، بالطبع يمنحنا هذا الجديد الراحة ويعطينا الأمل، ويربطنا مع الناس الذين نحبهم والذين نحاكيهم، لكن هذه الروابط في أحسن الأحوال عابرة، ويمكن أن تكون متعبة مثل ما هي مفيدة، وتتلاشى مع الزمن، ووعودها في النهاية فارغة.

ان كل هذا يعرفه الحكماء منذ زمن بعيد، ومعارفهم لم تفقد على مر السنين شيئاً من قوتها، وحتى الرفاه المادي لم يبددها، ولكن أصبح من الصعب على نحو متزايد معرفة أين تكمن الثروة الحقيقية، وكيف نميز المهم عن غيره. لقد ضعنا في متاهات الوفرة، ولا نستطيع الخروج منها قبل أن تكسر هذه الموجة، وعندما يحدث هذا، عندها لا نستطيع العثور على الطريق.

إعادة جذرية لهيكلة الرفاه

إن الأشخاص الذين يجربون نمط حياة متواضعة وغير مكلفة يمتازون، على ما يبدو، بأنهم أكثر سعادة، من الذين تحركهم الحياة المادية، ونمط الحياة البسيطة يبدو لثقافتنا الاستهلاكية غريبا وحتى وحشيا، وبالتأكيد ممكن أن تبدو التحولات المناخية وشحة المواد الأولية من مشاكل الغد، كما يمكن أن تكون الغابات الاستوائية في "عالم بعيد" (1). ويبدو ان الفقر المدقع هو مشكلة الناس الآخرين، وهذا كله لان نظرتنا للعالم قصيرة. نحن ننظر إلى المستقبل والى الذين اقل حظا منا، من خلال النهاية الخاطئة لمنظار قوي، ولهذا يبدو كل شيء بعيدا، وبهذه الطريقة نقوض كل الآفاق لرفاه عادل ودائم. إن المهمة التي تطرح نفسها هنا، كما في الأزمات الحادة الأخرى، هي إعادة البناء على مستوى الأشخاص والمجتمع والمؤسسات. يجب إعادة تشكيل الرفاه من الألف إلى الياء، وقد يبدو هذا مخيفا، ولكننا نعرف في الواقع ما هو المطلوب لذلك، فبالإضافة إلى

توفير الغذاء والمأوى، فان الرفاه يكمن في القدرة على المشاركة في الحياة الاجتماعية، وفي الوعي بأننا نشترك مع الآخرين في تصوراتنا وأهدافنا، وفي قدرتنا على أن نحلم. لقد تعودنا السعي للوصول الى هذه الأهداف عبر طريق الأشياء المادية. وتحرُرنا من هذا القسر يشكل الأساس للتغيير.

إذا تركنا السوق يسير طليقا فإننا لن نحقق شيئاً، والتحذيرات وحدها لا تفعل إلا القليل، أما إذا نشطنا منفردين أو ضمن الجماعة، فان مسارات مهمة ستفتح نحو التغيير. لقد أشرت في موقع آخر الى أن مجموعة ما تدفع مجموعة أخرى للتخلي عن الثروة المالية أمر مشكوك فيه أخلاقيا (2)، إنها كما لو يطلب من الناس التخلي عن بعض الحريات الاجتماعية والنفسية.

يرتبط النجاح بشكل حاسم بطرح بدائل ذات مصداقية، المهم فيها إعطاء الناس القدرة الحقيقية على نوع من الرفاه بثروة مادية اقل. ويعني ذلك على الصعيد الاجتماعي الاستثمار القوي في هذا النوع من المؤهلات جسديا وماليا وعاطفيا، وخصوصا إحياء مفهوم سلع النفع العام، وخلق الوعي مجددا بالفضاء العام والمؤسسات العامة، وإيجاد أهداف مشتركة، واستثمار المال والوقت في هذه الأهداف، والثروة، والبنى التحتية التي نشترك في تقاسمها. قد يبدو هذا هائلا، ولكن يجب أن لا يكون كذلك، فبعض اللبنات الأساسية للمشاركة الاجتماعية الجديدة تتجسد في المساحات الخضراء والحدائق و مراكز أوقات الفراغ ومرافق رياضية والمكتبات والمتاحف ووسائط النقل العامة والأسواق المحلية وأماكن الراحة والمهرجانات العامة، فالخدمات العامة ينظر لها باستمرار كمساعدة للذين لا يستطيعون توفير هذه الخدمات بإمكاناتهم الخاصة، وكما يؤكد (ميخائيل ساندل)، أستاذ الفلسفة السياسية في جامعة هارفارد في محاضرة له في عام 2009 ،" إنها أيضا أماكن تقليدية للاعتناء بالشراكة بين المواطنين، أماكن يلتقي فيها مواطنون من فئات اجتماعية مختلفة، يطورون فيها فهما مشتركا لحياة مشتركة، ليعيشوا بالمعنى الحقيقي للكلمة كمواطنين وكجزء من المجموع" (3).

الشعور بالقضية المشتركة

في المجتمع الاستهلاكي فُقد الشعور بالقضية المشتركة. لا عجب في إضاعتنا للصلة مع الآخرين. لا عجب في أنه ليس لدينا سوى رؤية غامضة، فاترة للمستقبل. ولا عجب في أن رؤيتنا للرفاه لا تترك مكانا لمزيد من الأهداف الطموحة على المدى البعيد، وأحيانا نفكر بامتلاك وسائل نقل فردية (خاصة)، لبيع المزيد من البضائع الفردية، وبالمعنى الحرفي للكلمة، لتستمر ماكنة الاقتصاد بالدوران. فقدنا بذلك مضمون ومعنى الحياة التي نتقاسمها.

كلما نفعل القليل للقضايا المشتركة، يزداد قوة منطق الثراء الخاص اجتماعيا، وفقدان الشعور بالقضايا المشتركة يؤدي

بالضرورة إلى نماذج اقتصادية تتغذى حرفيا على خصخصة حياتنا، ولكي نصل إلى نموذج جديد من الرفاه نحتاج إلى نموذج جديد للاقتصاد.

دعونا ننسى النمو لحظة واحدة ونتوجه بدلا من ذلك إلى ما نتوقعه من الاقتصاد. من المدهش أننا سنجد في المقام الأول بعض الأشياء البديهية: القدرة على الرفاه، وسيلة للعيش، ربما من عمل مدفوع الأجر، مشاركة في الحياة الاجتماعية، قدر من الأمان، الشعور بالانتماء، القدرة على المساهمة في القضايا المشتركة، والقدرة بالرغم من ذلك على تطوير الذات. يبدو هذا سهلا جدا، ولكن الوصول إليه هو التحدي الهائل.

" اقتصاد السندريلا"❖❖

ما المهم هنا؟ نحن نعلم على سبيل المثال أن المرونة مهمة، فالاقتصادات التي تنهار عند حدوث اضطرابات تهدد الرفاه مباشرة. ونحن نعرف أيضا أهمية المساواة، فالمجتمعات التي تفتقر للمساواة تنعش المنافسة غير المنتجة وتقوض الرفاه ليس بشكل غير مباشر بل مباشرة أيضا، لأنها تخرب الشعور المشترك بالمواطنة. في النموذج الاقتصادي الجديد العمل مهم أيضا ولأسباب عدة: العمل المأجور يساهم في توفير سبل العيش للناس، فضلا عن المشاركة في الحياة الاجتماعية، فمن خلال العمل نخلق عالما اجتماعيا جديدا وباستمرار، ونجد فيه مكاناً ذا مصداقية (4).

نعلم أن الاقتصاد يجب أن يتحرك ضمن الحدود البيئية، ويتم وضع هذه الحدود جزئيا من خلال بيئة الكوكب والجزء الآخر من خلال عدد سكان العالم، وكلا العاملين يحددان، سوية، كمية المواد الخام وما حجم المساحة البيئية المتاحة لنا. في داخل أي اقتصاد تتشكل حدود لاقتصاد مستدام، ولكن في السنوات الأخيرة كان للثروة (مستوى الدخل) تأثير اقوى في الطبيعة من تأثير نمو السكان، وخصوصا في البلدان ذات التطور العالي. وفي المناقشات حول النمو في هذه البلدان يتمتع النمو السكاني بأهمية خاصة، لأنه يحدد حصة عادلة ومسؤولة، من الموارد وانبعاثاتها والحيز البيئي للفرد على صعيد العالم.

هذه الحدود يجب إدراجها على الفور في مبادئ وتنظيم الاقتصاد. إن إيجاد نظام بيئي للخدمات وللتقييم، وإعادة هيكلة الحسابات الاقتصادية على أسس "خضراء"، وإيجاد وظيفة بيئية محدودة للإنتاج، كل هذا سيكون من المرجح ضروريا لتطوير نموذج للاقتصاد المستدام. وعلاوة على ذلك نحن نعرف الكثير حول هذا النوع من النشاط الإنتاجي، الذي عليه في المقام الأول تحقيق ثلاثة مبادئ عملية واضحة: المساهمة الايجابية في تحقيق الرفاه، توفير العيش الكريم، واستهلاك أقل للمواد الخام والطاقة.

ومن الملاحظ أن هذا لا يكفي، عندما تكون النتيجة، مساهمة ايجابية لهذه النشاطات في الرفاه، لان الأمر يتعلق

أيضا بشكل وتنظيم نظم إمداداتنا. يجب أن ينظم الاقتصاد ليعمل يدا بيد مع المجتمع ولما فيه خيره على المدى البعيد، وليس ضده. توفر شركات محلية "ملائمة للبيئة"، الخدمات في مناطقها كالمواد الغذائية والخدمات الصحية والنقل العام والتعليم والصيانة والتصليح ومرافق لأوقات الفراغ، وتستطيع بهذه النشاطات أن تساهم في الرفاه، وهي جزء من المجتمع وقادرة على تقديم عمل هادف، في ظل مستوى منخفض لانبعاث ثاني أوكسيد الكربون (5). "اقتصاد سندريلا" كهذا يقتصر على الدائرة المحلية المباشرة يعتبر مشكلة بالنسبة للآراء التي عفى عليها الزمن، لأنه تقريبا لا يساهم في نمو الإنتاجية، وهناك أسباب معقولة لذلك. إن جوهر العرض القيم للكثير من هذا النوع من الشركات الاجتماعية يكمن في التفاعل الإنساني، وخفض حصة العمل هنا ليس له تأثير، في حين ممكن أن يكون في اقتصاد تقليدي قائم على النمو، وبالمقابل يعتبر وبوضوح مسألة ايجابية في اقتصاد يهدف الى منح الناس القدرة والإمكانية على العطاء للقيام بأعمال ملائمة للرفاه.

ان دعم وتوسيع هكذا أنشطة لا يعنيان بالطبع حصر الاقتصاد في هذا الإطار. فالعديد من القطاعات الاقتصادية التقليدية تستمر في لعب أدوارها، وتفقد مجالات استخراج المواد الخام شيئا من أهميتها، لانخفاض استهلاكها وارتفاع إعادة تدويرها، ولكن قطاعات الصناعة والبناء والتغذية والخدمات التقليدية كتجارة الفرد والاتصالات والخدمات المالية ستحافظ على أهميتها.

المهم أن تبدو هذه القطاعات مختلفة كثيرا عما هي عليه اليوم، ففي القطاع الصناعي سيتم التركيز كثيرا على صلاحية المنتجات لفترة أطول، وإمكانية إصلاحها بسهولة. وفي قطاع البناء نحتاج للتركيز على ترميم البنايات وبناء بنى تحتية جديدة مستدامة يمكن إصلاحها بسهولة. وفي القطاع الزراعي يجب الاهتمام بقوة بحماية الأراضي ورعاية الحيوانات. وفي قطاع الخدمات المالية سيكون الاهتمام بتوسيع كتلة النقود اقل من الاهتمام بحماية الاستثمار طويل المدى والمعقول والمستقر. فنموذج الاقتصاد الجديد سيبقى بحاجة ماسة للاستثمار، ولكن سيتغير طابعه ويبتعد عن دوره التقليدي باعتباره حافزا لنمو الإنتاجية نحو تطوير التحول البيئي، من خلال رفع كفاءة توظيف الطاقة والمواد الخام واعتماد تكنولوجيا وبنى تحتية متجددة، تنخفض فيها كميات الكربون المنبعثة، وتهتم بالسلع العامة وتتلاءم مع المناخ وتهتم بالبيئة.

تتطلب المشاريع البديلة استثمارات بيئية جديدة يحتمل فيها انخفاض إنتاجية رأس المال، وتصبح العوائد اقل، ويمكن تحصيلها بعد فترات زمنية أطول، وبعض الاستثمارات ستكون ضرورية للحفاظ على البيئة، وربما لا تحقق عوائد نقدية بالمعنى التقليدي، وتنخفض فيها الربحية. في الاقتصاد القائم على النمو يمكن أن يسبب ذلك مشاكل كبيرة، أما في اقتصاد موجه

للرفاه فسيكون ذلك خارج السياق.

هل يعني "اقتصاد السندريلا " نهاية العالم؟ الكثيرون يرون أن النمو والرأسمالية متلازمان. النمو هو أساس عمل الرأسمالية، وهو شرط مسبق وضروري لأي اقتصاد رأسمالي، ولهذا فالتصور هو أن العمل من دون النمو يعني للبعض إلغاء للرأسمالية. غير أن هذا الافتراض لا أساس له من الصحة، وهذا ما بيّنه (وليم بومول) وزملاؤه، فليس جميع أنماط الرأسمالية في ما يتعلق بالنمو واحدة، رغم اعترافنا بأن بومول يعتبر الأنماط التي من دون نمو سيئة (6)، ولكن المهم هو وجود وإمكانية إيجاد اقتصادات رأسمالية لا تنمو، كم ان هناك اقتصادات ليست رأسمالية تنمو، ولهذا فمن المستحسن الفصل بين موضوعة النمو والرأسمالية.

النمو في حدود

ماذا يمكن ان نستنتج من نموذج اقتصادي جديد بخصوص النمو؟ من الواضح أن هناك ثلاثة ملامح، للنموذج الاقتصادي الجديد، تميل لإبطاء النمو.

الأول هو الحدود البيئية. بالطبع يتوقف الأمر على مدى صرامة هذه الحدود التي يتم وضعها، فإذا كان التعامل مع هذه الشروط بجدية، فان تأثيرها في النمو يمكن أن يكون كبيراً جدا. ولتصور ذلك بشكل أفضل يمكننا ملاحظة سيناريو تمتلك فيه الأنشطة الاقتصادية أعلى سقف ممكن لكميات الكربون المنبعثة. أحدث المعطيات العلمية تبين أن هذا السقف يحتوي، من الان وحتى عام 2050 على 670 مليار طن من ثاني أوكسيد الكربون كحد أعلى، أي أن متوسط معدل الانبعاث يصل إلى حوالي 18 مليار طن سنويا. الافتراض الآخر هو أن هذه الكمية ستوزع وفق مبدأ "الانكماش والانطواء" وعلى أساس قاعدة عادلة لتحديد حصة الفرد، وبالتالي فان الانبعاث السنوي لثاني أوكسيد الكربون في البلدان المتقدمة سيتحدد بثلاثة مليارات طن سنويا تقريبا، ومع كثافة الكربون الحالية، يزيد الناتج المحلي الإجمالي المسموح به قليلا على ربع الناتج المحلي الإجمالي الحالي في هذه البلدان. بطبيعة الحال يمكن للمرء أن يسمح بمستوى أعلى للناتج المحلي الإجمالي في إطار أنشطة اقتصادية تنخفض فيها كثافة الكربون، غير ان هذا لا يؤدي إلى تحسن منظور في كثافة الكربون، لذلك تؤدي هذه الشروط إلى الحد جديا من إمكانية تحقيق نمو مستدام، ولهذا فمن الأفضل أن لا يفكر المرء بالنمو، قبل أن تتحسن كثافة الكربون أربعة أضعاف مقارنة بما هي عليه اليوم، شريطة الرغبة في الحفاظ على هذه الحدود البيئية.

القوة الثانية التي تضغط النمو نحو الأسفل، تنشأ من الانتقال إلى أشكال خاصة من الخدمات، التي تكون كثافة العمل في هذه القطاعات قريبة من عدم السماح بالحفاظ على معدلات نمو الإنتاجية، مما يؤدي إلى تقليص النمو الاقتصادي المحتمل بشكل كبير.

أخيرا أن نمو الاقتصاد يصبح بطيئا،

إذا تم ضخ موارد كبيرة في الاستثمار البيئي، وعندما يبتعد الدخل عن الاستهلاك ويتحول إلى الادخار، الذي يوظف بدوره للاستثمار، الذي يعتبر وفق التفسير التقليدي قليل "الإنتاجية"، وبهذا يستمر تقلص احتمال النمو على المدى البعيد.

تجدر الإشارة إلى أن انخفاض إنتاجية العمل وارتفاع الاستثمار البيئي يمكن تحقيقهما من خلال إجراء تغيرات هيكلية في الاقتصاد، في حين يتم فرض الحدود البيئية للاقتصاد من الخارج. ولنفترض عدم النجاح في خفض إنتاجية الاقتصاد بواسطة التغيرات الهيكلية، مع بقاء حدود انبعاث ثاني أوكسيد الكربون المفروضة، عندها نحتاج إلى أداة أخرى لإبطاء الأداء الاقتصادي، والبقاء ضمن الحدود البيئية، وهذا يتطلب خفض عوامل إنتاج أخرى، والعمل من بين أهمها. إن من شأن التخفيض الإجمالي لوقت العمل خفض الناتج الاقتصادي، وهذا سيحسن أيضا التوازن بين العمل والحياة ، على أن لا يؤدي ذلك إلى البطالة (التي ستنتهك المعايير الأساسية للعدالة)، وهذا سيعني وجوب توزيع العمل المتبقي بين وقت العمل وقواعد التشغيل.

الطريق إلى اقتصاد مستدام

من الملموس جدا في نموذج الاقتصاد الجديد أن الإجراءات الاقتصادية الكلية الثلاثة المهمة تولد من خلال الاستقرار البيئي والاقتصادي وهي: التحول الهيكلي للخدمات، الاستثمار في الثروة البيئية، السياسات المتبعة لتحديد ساعات العمل كأداة للاستقرار، ولكن كيف نعمل لتحقيق هذا التغيير؟ وما هي الخطوات الضرورية لتغيير الهياكل والمؤسسات القائمة باستمرار؟

هذه المهمة ذات بعد شخصي وآخر اجتماعي، ومن الواضح أننا نستطيع أن نفعل الكثير شخصيا أو بالاشتراك مع آخرين، ويمكننا أن ندفع باتجاه التحول من خلال نمط معيشتنا، وماذا نبتاع، وكيف نسافر، وكيف نستثمر أموالنا، وكيف نقضي أوقات فراغنا. كما نستطيع بواسطة العمل التأثير في التغيير، ونستطيع كذلك من خلال الانتخابات والديمقراطية الضغط على الحاكمين، ويمكن التعبير عن التغيير من خلال المشاركة في المحلة، وفي المجموعات والجماعات. إن محاولة عيش حياة غير مكلفة، طوعية، بسيطة ، تستحق منا التفكير.

واضح أيضا مدى محدودية هذه الإمكانات، إذا أراد المرء استخدامها كأدوات للتحول الاجتماعي على نطاق واسع، فان ذلك غير ممكن دون تحول هيكلي على الصعيد الاجتماعي. ولفهم مثل هذه الخطوات بدقة، نحتاج ضمن أمور أخرى إلى حوار سياسي واسع وعام ، يمكن أن يدلنا بدقة إلى أين تتجه الرحلة، وهنا تلعب ثلاثة تدابير دورا مقررا وهي:

أولا: ضبط الحدود: فضلات المجتمع الاستهلاكي تستهلك المواد الطبيعية الأساسية وتلوث النظم البيئية لكوكب

الأرض بطريقة مستدامة. ومن الضروري ضبط حدود استهلاك الموارد وتلوث البيئة، وجعلها نقاط ثابتة للاقتصاد والمجتمع، فالاقتصاد المستدام يحتاج الى حدود واضحة للموارد و الانبعاث، فضلا عن أهداف ثابتة للتخفيض. و في حالة تنفيذها، ستصبح أنموذجا في تحقيق أهداف الاستقرار وسقف انبعاث ثاني أوكسيد الكربون (7).

ثانيا: إصلاح النموذج الاقتصادي:
إن اقتصادا يقوم على نمو مستمر لاستهلاك مادي ممول بالديون ، يكون بيئيا غير مستدام واقتصاديا غير مستقر ومصدرا لإشكالات اجتماعية. ولتغيير ذلك فان اقتصادا كليا جديدا ضروري كمحرك مستمر لاقتصاد لا تستند الثقة فيه على نمو الاستهلاك وتوسعه، ويعني هذا في الجوهر إعادة النظر في الحسابات الاقتصادية. إن الناتج المحلي الإجمالي ليس سوى معيار "لتنشيط" الاقتصاد، ويقيس مقدار ما يصرفه ويدخره المستهلكون أو القيمة المنتجة من خلال النشاطات الاقتصادية، ولكن الناتج المحلي الإجمالي لا يصلح مقياسا للرفاه الاقتصادي، وهذا أمر موثق بشكل جيد. فهناك بعض الأشياء التي لا يستطيع الناتج الإجمالي قياسها: تحديد المتغيرات في مكونات الثروة، الانتباه إلى الخسائر الحقيقية في الرفاه، والتي تأتي نتيجة للتوزيع غير العادل للدخل، الاستهلاك المناسب للموارد المادية وجميع الأشكال الأخرى لرأس المال الطبيعي، تحديد التكاليف الباهظة لتلوث البيئة وللأضرار التي تصيبها على المدى البعيد، تكاليف الجرائم وحوادث المرور والحوادث في المصانع، حساب التكاليف الناتجة عن تفكك العوائل والتكاليف الاجتماعية الأخرى، فاتورة "النفقات الإجمالية للدفاع" ، أو تشمل الخدمات التي تقع خارج نطاق السوق مثل العمل المنزلي والعمل الطوعي للرعاية. باختصار: الوقت ناضج لفاتورة اقتصادية إجمالية توفر في النهاية مقياسا سليما للأداء الاقتصادي (8).

ثالثا: تغيير المنطق الاجتماعي:
الناس محاصرون بالنزعة الاستهلاكية المادية، لأنها تشكل الأرضية للمشاركة في الحياة الاجتماعية، ويمتلك هذا المنطق الاجتماعي سلطة كبيرة تسبب أضرارا بيئية ونفسية كبيرة. إن تحرير الناس من هذه الديناميكية الخطرة وإعطاءهم فرصة لحياة مملوءة ومستدامة، شرط أساسي لتحقيق الرفاه الدائم. لقد تطورت النزعة الاستهلاكية، ضمن أمور أخرى، إلى وسيلة لتأمين نمو اقتصادي يحركه الاستهلاك، ويعزز المنافسة غير المنتجة، وله آثار نفسية واجتماعية مضره. تنشر ثقافة الاستهلاك من خلال مؤسسات عدة، كالإعلام والمعايير الاجتماعية، ومن خلال وفرة من الإشارات التي تتفاوت في دهائها، والتي تجعلنا نعبر عن أنفسنا من خلال السلع المادية، والبحث عما يؤهلنا وعن معنى لحياتنا. إذا أراد المرء هدم

هياكل التحفيز المعقدة هذه، فعليه الانتباه بشكل منهجي إلى عدد لا يحصى من الأشكال التي تظهر بها.

لإلغاء ثقافة الاستهلاك، ولتغيير المنطق الاجتماعي، هناك ضرورة لمساعٍ طويلة الأمد، كما هو الحال في بناء هذه "الثقافة"، إذ لا يمكن تحقيق ذلك من خلال ممارسة نقية للتكفير عن الذنوب، والمهم هنا تقديم بدائل، لنمط الحياة للناس كمستهلكين، قابلة للتطبيق، وسيتوقف التقدم على مدى النجاح في إعطاء الناس القدرة على العيش بطريقة أقل مادية.

ليست يوتوبيا

رغم كل الجهود المبذولة لتحقيق الاستدامة، فان الأمور تسير ببطء مقيت، ولمرات عديدة يتم تأجيل العملية إلى اجل غير مسمى، لان التفكير ينحصر في المقام الأول بنمو الاقتصاد، لذا يجب أن تتغير الإرادة السياسية جذريا. ولكن ذلك يبقى أيضا بحدود الممكن، ما لم يجرِ حل النزاعات التي تنهمك الدولة فيها. من الواضح اليوم، أن حكومات البلدان المتقدمة اقتصاديا تمتلك فرصة فريدة للشروع بإجراء تحول كامل، وتمتلك هذه الحكومات فرصا للتدليل على قدرات قيادية اقتصادية وأن تصبح الرائدة في مجال الاستدامة. والخطوة الأولى تكمن في اعتماد سياسة داخلية حكيمة ماليا وبيئيا، وكذلك البدء في تجاوز المحفزات الضارة والمنطق الاجتماعي الخطر الذي يجعلنا أسرى منافسةٍ غير منتجة من اجل الحصول على الموقع الاجتماعي.

قبل كل شيء نحن بحاجة ماسة لاقتصاد كلي مستدام قادر على التحمل، ولا يلتزم بالنمو المتواصل للاستهلاك. لقد بينت الأزمة المالية، لعام 2008، بوضوح أن نموذجنا الحالي للنجاح الاقتصادي خاطئ أساسا، والرفاه من دون نمو في بلدان الغرب المتقدمة اقتصاديا، ليس حلما طوباويا، انه ضرورة على صعيد السياسة المالية والبيئة.

الهوامش:

* مقال بعنوان: مجتمع ما بعد النمو، بقلم: تيم جاكسون، نشر في عدد حزيران 2011 من مجلة أوراق السياسة الألمانية والعالمية– انظر العنوان الاصلي:

Die Postwachstumsgesellschaft, Tim Jackson, Bl?tter für deutsche und internationale Politik, « 6/2011, Seite 75-84

**نسبة إلى حكاية السندريلا المعروفة

الهوامش

(1) Kate Burningham and Diana Thrush, Rainforests Are a Long Way from Here. The environmental concerns of disadvantaged groups, York 2001.

(2) Jackson, a.a.O., Kap. 8.

(3) من المعروف في المجتمعات الاستهلاكية، أن مراكز التسوق المكان العام الأكثر شيوعا، وان الطابع التجار والفردي في هذه الأمكنة ينمي شعورا على طرفي نقيض من التعاطي المشترك.

(1) Mary Douglas, Relative property, relative communication, in: A. Halsey (Hg.), Traditions of Social Policy, Oxford 1976.

(5) ليس جميع هذه الأنشطة يؤدي بالضرورة إلى خفض ثاني أوكسيد الكربون، لان الكثير يرتبط بدقة وكيفية القيام بها

(6) قارن: William Baumol, Robert Litan und Carl Schramm, Good Capitalism, Bad Capitalism, and the Economics of Growth and Prosperity, New Haven und London 2007. Man beachte hier auch, dass Peter Victors Arbeit ausdrücklich belegt, dass es im Prinzip m?glich ist, eine weitgehend konventionelle kapitalistische Volkswirtschaft zu „stabilisieren" (Peter Victor, Managing without Growth: Slower by Design, not Desaster, Cheltenham 2008).

(7) قارن مثلا:

First Report of the Climate Change Committee, Building a low-carbon economy – the UK's contribution to tackling climate change, London 2008; sowie Climate Change 2007: Mitigation. Contribution of Working Group III to the Fourth Assessment Report of the Intergovernmental Panel on Climate Change, Cambridge 2007.

(8) للحصول على ملخص لمؤشر Index of Sustainable Economic Welfare قارن Tim Jackson und Nat McBride, Measuring Progress? A review of „adjusted" measures of economic welfare in Europe. Report for the European Environment Agency, Guildford 2005. The Initiative Beyond GDP the OECD in http://europe.beyondgdp.eu.

حـــــــــــوارات

سلامٌ على الشرفاء في العالم كله ومن جميع الجهات ومن جميع الأفكار النبيلة

ياسين طه حافظ.. انتصارات الفن هي انتصارات لروح الشعب

مقابلة مع الشاعر والمثقف العراقي.. ياسين طه حافظ

حـــاوره : سعـــدون هلـيل

ياسين طه حافظ قامة شعرية عراقية مهمة، حيث يعده النقاد المتمرسون من أعمدة الشعر الستيني في العراق مع انه من الشعراء العابرين للأجيال حيث ما زال متواصلا في تألقه في مشهد الشعر العراقي. امتازت قصائده التي احتوتها أكثر من ست عشرة مجموعة بالتجديد والرصد العميق لمتاعب الإنسان اليومية ومحنته في العيش وفي مواجهة العسف والظلم وبتقنيات حديثة دائمة التطور.

تجربة الشاعر الكبير ياسين طه حافظ ومشروعه الشعري المتجدد على الدوام يستحقان التوقف والقراءة العميقة لأسباب عدة في مقدمتها سببان أساسيان:

الأول: كونه شاعراً عاصر مراحل مهمة من تطور الحياة الثقافية والمشهد الشعري في العراق، وكان شاهداً على مخاضات مهمة في صيرورة القصيدة، علما انه ظل ملتزما إلى حد كبير بالبنية العروضية لقصيدة الشعر الحر لكنه مع ذلك كتب في مناسبات عديدة قصيدة النثر.

الثاني: إن هذه التجربة كانت متميزة وناضجة وتعبر بفرادتها عن وعي لصناعة القصيدة وجمال اللغة والمهارة الرفيعة في كتابة نصوص شعرية باذخة تعبر عن حرفية راقية تجعل قارئ شعره يشعر في أعماقه بأن ياسين طه حافظ شاعر استثنائي يحمل امتياز القصيدة المتجددة على مستوى إيقاعها وألوانها أو موسيقاها أو بنيتها.

(الثقافة الجديدة) التقت الأستاذ ياسين طه حافظ وطرحت عليه جملة من الأسئلة أجاب عنها مشكورا وفي أدناه نص الحوار:

❖ نبدأ بسؤال عن الولادة الشعرية الأولى.. متى بدأ ياسين طه حافظ يكابد وجع الشعر ومتى شعر بأنه أصبح "مشروع شاعر"؟ من يطلع على منجزك الإبداعي الذي يمتد لأكثر من نصف قرن ويقرأ قصائدك سيصل إلى استنتاج سريع هو أنك شاعر عابر للأجيال. فطوال هذه الحقبة المديدة كنت تواصل التجريب على مستوى معمار القصيدة وموسيقاها باحثاً على الدوام عن جديد .. فقد بنيت عمارتك الشعرية العالية حجراً فوق حجر رغم كل الصعوبات والمخاطر والأهوال؟ وسؤالنا هو: من أين تستمد كل هذا العناد وهذه الرغبة العارمة والروح التي لا تكل... إذ ما زالت سفائنك مبحرة في بحور الشعر المتلاطمة تكره الرسو عند موانئ الهدوء والسكينة وما زال الفارس ياسين طه حافظ يرفض الترجل عن صهوة مجد الشعر؟

– متى بدأتُ؟ لا أدري. كل البدايات الفنية يؤرخها الظن أو الإنتاج الأول. ثمة قصائد لم تكتب هي التي استدعت الأكثر تقدما. ربما كانت في ١٩٥٦ بعشرة أبيات نشرت في الزمان (الزمان الأول للصفواني) لكن قبلها في الخامس الابتدائي ١٩٤٩ الأبيات الثمانية التي شجعني المعلم محمد نوري الحكيم، وطلب أن اقرأها في اصطفاف صباح الخميس في ساحة المدرسة. ولأول مرة أسمع: يقدمها الشاعر ياسين طه حافظ. كنت في الخامس الابتدائي وحُفِّظَتْ القصيدة للطلبة واجبا. هي إحدى المحفوظات إذاً. لكن بعد قصيدة الزمان أذيعت لي قصيدة من إذاعة بغداد، كان ذلك في 1958. كل هذه تدريبات. أول قصيدة مهمة كانت في مجلة المثقف لجماعة الخريجين. لا اعرف أحداً، أخذت عنوان المجلة وأرسلت القصيدة في البريد، نشرت وطلب مني قصيدة أخرى. ثم قصيدة "الشيخ والسيدة" في "مواقف"، بعدها "الطيور والضباب"، في الآداب. ثلاث قصائد في ثلاث مجلات مهمة لم أراسلها من قبل ولا اعرف أحداً فيها. بدأت ناضجا في النشر ومُرَحَّباً به ثم بدأت الغيرة وبدأ السم وبدأت منغصات الوسط والسياسة. لكني بدأت ولا بد من قطع الشوط كاملا وسيتسلم الشعلة آخر ينتظر.

❖ عن وظيفة الشعر بالنسبة إلى الشاعر ياسين طه حافظ، هل تكتب الشعر للشعر، أم لغرض آخر. فالمتابع لشعرك بمختلف محطاته يلاحظ أن الكثير من نصوصك منحازة، تعكس في روحها هموم الفقراء، البسطاء وتلعن نقيضهم، أي أنك تجاوزت متطلبات الكتابة الشعرية التقليدية إلى البحث الفكري عن خلاص والابتعاد عن ركاكة الكلام اليومي وتقريريته ومباشرته من خلال تحليق قصيدتك بجناحي الشعر والفكر معاً؟ بمعنى آخر، هل الشعر بالنسبة إليك فن "الكلام الجميل، الموزون المقفّى" أم انه عبارة عن رسالة تريد إيصالها وما هي مضامينها؟ ولندفع هذا السؤال إلى نهايته المنطقية ونستفسر: إلى أي حد يمكن للمبدع أن يكون مبدعا من خلال إنتاجه نصاً رفيع التكوين، نصاً لا ينشغل بالمباشرة والتقريرية من جهة، والى أن يكون هذا النص من جهة أخرى قريبا من هموم وآمال الناس البسطاء، نصاً لا يتعالى ولكنه يفهم جيدا وظيفته ورسالته؟ كيف تولف أو قل كيف تحل إشكالية الشكل/ المضمون والخاص/العام في إبداعك؟

– ليست منحازة. هي قصائد ضمن عالمها. متى كان الشعر بلا أفكار؟ أي شعر هذا؟ كلام مما رسمته ثقافة الحرب الباردة. كلام ليس علميا "منحازة"؟ لا شيء غير منحاز، حبك لإنسان هو انحياز له، اهتمامك بمدرسة فنية انحياز اختيارك للون انحياز، وتبنيك فكرة أو رأياً هو انحياز... لا أتوقف عند مفهوم واحد للشعر أنا مع الحياة وأزمانها وأفكارها ومفهوماتها....

لا أرى إشكالا بين الشكل والمضمون، المضمون يصنع شكله. ثقافتك الفنية تمنحه امتيازا. صناعة الشكل عمل فني لتقديم المعنى جديدا. لولا تجدد الأشكال استُهلِكَتْ المعاني والأفكار. أرجو الانتباه: أن الشكل بلا معنى، لا يعود شكلا يصير فضاء. الحياة، الطبيعة، فيها فضاءات يكتسب الفضاء معناه حين يحتضن مضمونا. على أية حال، هو وصف مدرسي للتعليم، مرحلتان للإفهام، للشرح. عدا هذا يكون الفصل بين الشكل والمضمون أمراً مضحكاً.

لا حاجز بين الشعر والسياسة. متابعة حركة الحياة وانبثاقات الجمال فيها يعني أيضا مواجهة مقترفي الجرائم وأسباب القبح ومشوهي الحقائق. اتساع القبح والجريمة يعني أن تصغي لاستغاثة الجمال والفضيلة وان تنقذ الضمير الإنساني من الانتهاك. محنة الجمال انه يمر بين الأخطاء واشتباك المصائر. مسؤوليتك الأخلاقية أن تحميه حتى يمر سالما... سلامته في المرور مسؤوليتك الأخلاقية مثلما الفكرية.

لي ملاحظة على عبارتك: لحظة الإبداع، لا لحظة إبداع. الإبداع يتنامى وأنت تعيش نهارك، وأنت ترى وتأسف وتبتهج. وللمعاناة بذور لها ثمارها أو تؤثر في محصلة النتاج. ساعة التنفيذ، هي الساعة التي تشعر فيها بالحاجة للكتابة. هي مثل حاجتك لإيقاد الضوء أو فتح النافذة لترى العالم أو ليراك.

❖ في إحدى قصائدك كتبت قائلا:

صَنَعتُكَ النبوءات والصور الباهرة
صَنَعتُكَ الشموسُ الجديدة
صَنَعتُكَ الزوابعُ والأنهرُ الغاضبة
صَنَعتُكَ الرياحُ محمّلةً بالاوامرْ
صَنَعتُكَ المجازرْ
صَنَعتُكَ "المناشير" لاصقةً بالبطونْ
صَنَعتُكَ الخلايا التي اكتُشفَتْ
والتي أخطأتها الظنونْ
صَنَعتُكَ "السرايا" التي لا تخونْ!

وأكدت ذلك في مكان آخر حينما كتبت أيضا قائلا: أنا ... ابن حياة عراقية، يتكدس في رأسي ذكريات العذابات كلها أنا والناس، الأحزاب، نضالها، خيباتها، خوفها، رعبها، ... أنا ابن ثقافة مجتمع، فأنا ابن صرائف وابن أزقة وابن غرف مؤجرة للعوائل، اعرف هؤلاء، فهم أهلي ولا خير بي إذا خنتهم يوما، أنا منهم ولا انسلخ عن طبقتي، الثقافة لا تغير الطبقة إنما تؤكدها ".

هذه المقاطع تفوح بعطر سياسي مباشر وفيه انحياز واضح للمسحوقين والكادحين والفقراء، حينما رفضت الانسلاخ عن طبقتك رغم انك أصبحت مثقفا كبيرا وشاعرا مشهورا.

الاستنتاج المستخلص من الأطروحات في أعلاه هو أن ياسين طه الحافظ أطاح بمقاربتين: الأولى تلك التي تنظر إلى "المثقف" وتسطحه إلى ذلك المثالي، الحالم الهامشي الذي يعيش خارج المجتمع، والثانية التي تعبر

عن رؤية السُلط المسيطرة التي تنظر إلى "المثقف" كونه يمارس دور الموظف الذي عليه أن يمجد السلطة ويسهم، في حقله، في إعادة إنتاج سيطرتها، انه "موظف" الثقافة أو تقني المعرفة حسب (سارتر).

وسؤالنا هنا هو: كيف يمكنك الموائمة بين "شيطان" الشعر الذي يتلبسك في لحظة الإبداع وبين فضاء السياسة ومناشيرها وخلاياها وسراياها التي لا تخون!.. نطمح بأن تفك لنا رموز إشكالية المكتوي بنار الشعر وبنار السياسة؟ هل شعرت مرة بوجود تناقض بين موقفك السياسي المبدأي الواضح في انحيازه الطبقي/ الاجتماعي وبين تألق الشاعر وهو يكتب الشعر ساعيا للاحتفاظ بإنسانية نظيفة.. وأنت القائل ذات مرة: أنا محنتي محنة الشرفاء في المدن الفاجرة؟

– الانتماء الطبقي ليس خياراً. هو موقعك في الميدان. الدفاع عليك والمكسب لغيرك! لكن ما يكسبه الثوري هو غير المرئي. هو إيقاف الشر لكي نمر سالمين في مرورنا نشق طريقا لم تكن سالكة. نمهدها للقادمين من بعد. من يقول أنا لم استفد من نضالي لا يفهم قيمة عمله.

أي ممن يعرفونني، من دار المعلمين العالية 1957– 1961 حتى اليوم، لا يذكر عني خطا أخلاقيا ولا كتابة بعيدة عن محنة الإنسان. المبادئ وفّرت لنا حصانة تكفي لآخر العمر. اعلم أن الاستقامة ممتحنة وسط عوالم الخديعة وبين محترفي السياسة والكذبة. البطولة كل البطولة أن تظل نظيفاً وسط كل أولاء. أن تعبر المستنقع وقميصك ابيض لا لوثة وحل عليه ولا لوثة دم، وإن افتقدت المال والبهرج، فأنا اشعر بأعظم المعنى وأزهو بمحبتي وسلامة أفكاري.

بعد هذا، لا عمل لذاته. الشعر خطاب والشاعر وان كان يكتب في عزلة فهو يخاطب جمهورا. بتلك الأخلاقيات، باهتمامك النهائي بالجوهر، أنت مع الناس في كل مكان. الزيف، عملا أو فنا، ترحب به القمامة. أبناء الحياة الحقيقيون لا يخونونها. اشعر بأنني حامل هموم الإنسانية كلها والمبشر بأفراحها القادمة. الشاهد الشعري الذي ابتدأت به السؤال هو مفتتح "القصيدة العراقية" التي قرأتها في احتفالية تأسيس الحزب الشيوعي على دجلة، وفي حدائق أبي نؤاس..

ليس انحيازا، ليست مساندة، أنا في أي وقت أستطيع، أحيي، أمجّد توهج الشرف، والأعمال الوطنية العظيمة في كل مكان. لا أقصرها على فكر واحد أقصرها على المضمون الوطني المستقبلي. هذه بوصلتي!

❖ منجزك الإبداعي مرّ بمحطات عدة: من عمود الشعر إلى قصيدة التفعيلة إلى قصيدة النثر التي كانت "عاريةٌ تنتظر من يطرز جسدها بالنور"، حيث رأيت خلال هذا السفر المديد "أشجاراً تينع وتيبس وانهاراً تركض للبحر لتضيع وعشاقاً قتلى وعاشقات متن عطشاً محتجزات". أين تكمن جذور تلك التحولات والانتقالات في سيرورة هذا المنجز المديد حيث تحول الشاعر ياسين طه حافظ من "شاعر النصوص" إلى "شاعر المشروع" كما سماه بعض النقاد؟ هل في حركة الواقع أم في حركة الفكر أم في كليهما في وحدتهما الجدلية؟

– الكلام الأخير "تحولي، أو تطوري، من "شاعر كاتب نصوص" إلى "شاعر

مشروع.."، هذا الكلام هو للناقد الأستاذ جمال جاسم أمين. قاله ضمن حديثه عني في احتفالية المدى لمناسبة صدور كتبي الأخيرة. كلام وراءه أمانة أدبية وشرف كبير، مثلما وراءه متابعة دقيقة لما كتبت شعرا، مقالة وترجمة. شكرا له.

أظن تقدم الشعر إلى أكثر من أفق فني والى أكثر من مدى معرفي يستوجب الوحدة الجدلية بين الواقع والفكر، التي أشرت لها في سؤلك. للعلم، الواقع والفكر، ما افترقا يوما في أي عمل مهم. هما دائما يتضافران لا يقاد الشعلة في النص... كل فنان، لست وحدي، معنيٌّ بان يكشف عن الجوهر بأفصح وأجمل ما يتمكن من أشكال. بالنسبة لي، ليس ما يربك. فأنا معبّأ فكريا ومزدحم تجارب. أنا الآن في السادسة والسبعين. ست وسبعون سنة في العراق! الاهتمام بالشأن الإنساني حاجة دائمة وليس مزاجا. المهم أن أبقى بما أمتلك من مهارة وأفق معرفي، ابن الإنسانية المعني بهمومها واحتفي بمسيرة الإنسان على كوكب الشعر، المقالة، الترجمة، عمل يومي، إبداعي ونضالي في آن. قناعتي بهذه المهام نهائية. وهي اليوم في أوج الحضور. لا اشعر بالتعب. اشعر برغبة نارية في كتابة أفضل وأغنى...

❖ قلتَ مرة جوابا عن سؤال: " نعم أنا رجل متحضر ومثقف، هذه مسألة أخرى، لكن ما هو ارسخ وأعمق، هو أن الصريفة ما تزال في رأسي وما يزال الفانوس الأزرق يتدلى من سقفها" .. ماذا بقي لك من المكان الأول: الذاكرة أم الكتابة؟

– نحن يا صديقي نكتب من الذاكرة، كل الزمن قبل الكتابة ذاكرة. اما الماضي، من الطفولة في الثلاثينيات والأربعينيات وطول هذا الطريق الصعب والمختلط، فتبقى في ظلماته أو في عيشه نقاط ضوء هي الأكثر حضورا. الفانوس الأزرق المعلق في سقف الصريفة هو الأجمل والأعظم إشعاعا حتى اليوم. من هناك ابتدأ شرفي! لن تعادله كل ثريات وكريستالات العالم. لو كان الآن قربي لقبّلته، فقد أضاء لي وأنا اكتب وانه كان الضوء الوحيد في ليل بيتنا الغارق في ليل العالم.

❖ في مجموعتك الشعرية الموسومة: (قصائد حب على جدار آشوري) تصدرت المجموعة مقدمة لكَ أوضحت فيها بإيجاز أهمية إعادة إنتاج شعر الحب، تلك العاطفة الإنسانية النبيلة، المتوهجة أبدا، مهما تعقدت الحياة، مهما اشتد لهاث الإنسان وراء لقمة العيش. وكتبت قائلا: " تعال نقرأ هذه القصائد المنقوشة على جدار آشوري، على الجدار نفسه الذي احتلته رسوم العسكر والثيران المجنحة والعربات، قد لا تكون الكتابة واضحة، قد تكون ممحوة قليلا، متخفية من خوف، لكن أزح التراب عن حروفها ستدهش، وقد تعود عاشقا تكتب قصائد حب مثلي". وما يلفت الانتباه أن المجموعة لم تتضمن عناوين فرعية، بل استخدمت فيها الترقيم إلى ما يبلغ ١٠٠ قصيدة حب. لماذا استعارة هذه الحقبة التاريخية بحد ذاتها المعروف عنها أنها تتميز بالحروب وترسم فنونها على الجدران حيث رسوم العسكر والثيران المجنحة والعربات، المعبأة بالموت والأسلحة والدمار وناس ذاهبين إلى ضفة

الموت؟ وأنت تسترجع الماضي الدامي في نصوص نثرية محفوفة بالاستعارة ومتخفية عن خوف، ما الذي كنت تريد قوله بالنسبة للحاضر حيث الروح العسكرية تتنامى وطبول الحرب تدق في مناطق عدة في عالمنا وفي عراقنا وما حوله؟

❖ قارئ قصيدة (شجرة الرمان) تسحره الطاقة الشعرية الكبيرة وشفافية لغتها رغم أنها تعالج موضوعات تنتمي إلى اللحظة العراقية القاسية بحروبها وقياماتها المتعددة. حيث "ما تزال الرياح سيئة، وما يزال الإنسان مُمْتَحناً ومُنتَهَكاً ومُسْتَغَلاً ومُهاناً وتدمر التعاسة اليومية إنسانيته".. كيف وفقت في هذه التوليفة من المتناقضات بحيث ظل الشعر متألقاً رغم مرارة الواقع؟

❖❖ وارتباطاً بالسؤال في أعلاه، ما رأيك بالمشهد الثقافي والشعري اليوم في بلادنا التي تواجه أزمة بنيوية متعددة الصعد؟

– التاريخ يظهر حقائق وأحداث وأمزجة الملوك ويضيع بهذا الكشف حقائق ملايين الناس.. عالم آشور أساء له التاريخ. فالمنظور هو عالم حروب وعربات وأسرى ونهب ممالك.. هل حقا كان كل شعب آشور كذلك؟ كل الشعب سلطة وعسكر؟ لا عشاق، لا شهداء، لا ناس مبتلين بالأوبئة والشرور، لا تطلعات للجمال وهم بين الجبال والحقول الفسيحة والأنهار؟ هل ذلك صحيح؟

هذه هي خلفية القصائد الآشورية. بقي على الشاعر، بقي علي، أن أرى العالم القديم استعارياً والجديد واقعاً. علي الإشارة إلى الإنسانية وهي تعيش عصورها، وهي تحب وتشتهي وتسعى، لما تريد، لما تتمنى.

كلما اتسع أفق التفكير كلما وجد النص فرصته لتوسيع دلالاته... أما الترقيم، والشكل، أعني العمل فنيا، فقد كان وراءه وعي نقدي. فبدلا من أن يقرب النثر قصيدته للناس ابتعدت عنهم أكثر بسبب الغلو في الاستعارية وعدم وضوح أو انعدام التجربة. حاولت أن افعل شيئا. استفدت من النثر للاقتراب من الناس استفدت من الغنائية لأمنح القارئ ارتياحا وصار التأكيد على الدلالة. أن يكون للدلالة أكثر من بعد، أكثر من مستوى كل يفهم بمستواه. كانت النتيجة عظيمة النجاح، الجميع ارتاحوا لها، من القارئ البسيط إلى الناقد المتخصص، وهذا ما يجب أن يكون. أما سؤلك عما ورد في احد المقاطع: "تقولين كانت الرياح سيئة؟ ما تزال الرياح سيئة يا حبيتي!..." هكذا فهي الإشارة إلى الواقع: بمحبة، بألم، أشرت لاستمرارية الوجع الإنساني.."قصائد حب على جدار آشوري"

كتبت عنها الأستاذة د. بشرى البستاني بحثا كشفت فيه تفاصيل العمل الفني ودلالاته وأهميته وهي التي قالت كانت قصيدة النثر عارية تنتظر من يطرز جسدها بالنور... (شكرا لك سيدتي!)

بالنسبة لقصيدة النثر. كان لا بد لي من أن أقوم بعمل مثل هذا لأضع الأمور في نصابها. الشعر ليس لهواً، هو أكثر الأعمال جدية ومسؤولية ما الجدوى في أن تكتب، المهم أن تضيف جديدا.....

❖ في ديوانك الأخير "ما قاله آخر الخطباء" كان الانكسار موجعا فقد كتبت عن "أحزان الناس وخيباتهم وعذابات أولئك المناضلين الذين ضيعتهم السجون والذين

ماتوا في التعذيب والذين خسروا كل شيء". لقد قدمت ما عندك من أسرار وكأنك تلقي خطاباً وداعيا.. وهذا يدفعنا للاستفسار عن هذه المقاربة المتميزة، هل أردت بها أن تكون شاهدا على هذا العصر ساعيا إلى كشف خفايا رحلة طويلة تعايش فيها جدل الألم والأمل.. أم شهادة براءة من هذا العصر وحروبه وقياماته؟ علما انك كتبت ذات يوم قائلا: "ليس الفن لهوا، ولا استعراضات اجتماعية ولا ارتزاقاً، الفن عمل جاد. وأنا سليل الخمسينيين، أصحاب الشرف والالتزام والعمل الفني المُتْقَن، لا أنثر لغواً، أنا شاعر يكتب قصيدة ويحمل هماً، والقصيدة عندي عمل فني قبل كل شيء ووراء هذا الفن ضمير إنساني وصلة أبدية بالحياة والمستقبل"؟

– أنا لا أبرأ من زمني. ولا أحد يستطيع، إلا في الكتابة الكذب، إلا في ادعاء التجاوز إلى المطلق أو عوالم الآخرين، الآخرون، في الشعر الفرنسي والأمريكي بخاصة، النخبة المتسامية على الواقع، أولئك لهم خلفياتهم الفلسفية وثنائيهم عن حضارة اليوم والبؤس البشري إلى الميتافيزيق. هي عودة لا تقدم. بيننا مقلّدون، أدعياء تحضّر، بؤساء يتظاهرون بالتسامي، يكتبون مثل أولئك.. دعهم لفظيين زائفين لن يحققوا فنا ولا قناعات للنفس ولا احتراما! تمر بنا ساعات كذلك، لكن لا تظل منهجاً. نزوات. هنا لا بأس، النفس تعود لحقيقتها بعد قصيدة، اثنتين أو ثلاث. أما من ضيعهم الكذب على الذات وعلى الناس، فقد خسروا أنفسهم وخسرناهم. هذا مؤسف. أتمنى لو ربحوا وربحناهم!

أعود إلى السؤال: أنا لا أبرئ زمني ولا أغفر له. أُدين أخطاءه، أخطاءنا في الأدب، أخطاءنا في العمل السياسي، بحق الناس وبحق أنفسنا. المناضل يخطئ لكن يصحح خطاه ويتقدم لا يلحقه بخطأ ثان لنكن عمليين، لا نجهد في إيجاد عذر. هو مناضل وله فكر وأفق عمل وأهداف. قد يضعف أو تتمكن منه أهواء أخرى. ليكن، هو بشر اعتيادي. تمكّنَ منه العاديّ، انتزعَهُ من الصفوف، انحرف أو أخطأ. لكن يجب ألا يعمل على هدم البناء. حصلت انكسارات مفزعة. كان الزمن السياسي كله متآمراً على الشعلة ليطفئها. كانت مهمتهم قتل الوقّادين أولا أو شراءهم أو إفسادهم. استشهد من اجل تلك الشعلة مناضلون، وشهدنا من ارتضوا الفساد او الإفساد بثمن، لقد زرع مندوبو القوى المعادية الشك في الأفكار.

.... لماذا نتحدث في الماضي؟ كان لا بد لي، كان واجبا، كانت حاجة النفس والضمير أن أرثي وأن أدين.. "ما قاله آخر الخطباء" حمل شهادتي وعواطفي وإنسانيتي كلها... كنت صافيا، ولم أترك نفسي بلا عقاب! تلك كانت صفة زماننا السياسي. كانت صورته الأخيرة والأبرز:

رجلٌ
يتدلى
بمروحةٍ
ويدورُ
كما الأرض كانت تدور
هو ختم الزمان، شعار لكل الفصول

عن الشق الثاني من سؤلك، الحدث السياسي الذي وقع في العراق كان عملا عسكريا ضخما قادته اكبر قوة مهيمنة في العالم. هي أوقفت استمرار خطأٍ محليٍ وبدأت خطأً محليا وعالمياً أوسع مدى. لقد

أكملت قوس قواعدها العسكرية، حول ما تبقى من الاتحاد السوفيتي. قواعد عسكرية من البحر الأحمر في السعودية/ قطر/ البحرين/ الإمارات/ الكويت/ العراق/ تركيا. وهناك خط يمتد الآن عبر أفغانستان. أغلق الأفق التحرري التقدمي أو في الأقل المخالف، وأحاطت الكماشة بآخر الحصون لتكتمل الهيمنة.

هذا احدث إرباكا فكريا، إرباكا أخلاقيا وإرباكا ثقافيا. بعضه خطط له كجزء من التمهيد العسكري وبعض لما أعقب الاحتلال. هنا تبدأ ردود الأفعال المحلية، الثقافات السلفية والرجعية والمحافظة واللبراليات البسيطة تتحرك في الفرص الجديدة، في المناطق الرخوة المسموح بها. هي أفكار وثقافات على أية حال وعلينا تفهم مضمون واقعنا. نحتاج إلى وقت للهدوء، لرسوخ الأفكار للصحو والرؤية الأوضح. ما ألاحظه أن مؤسسات ثقافية، دور نشر تضخ فلسفات وأفكاراً جديدة تؤسس لأجواء فكرية جديدة، واضح عليها العمل باتجاهين الأول تغيير الثوابت المحلية، والثاني التأسيس للثقافات الجديدة المطلوبة. نحن نفيد منها لأنها أفكار لم يسبق لنا الاطلاع جيدا عليها. ولكنها عمليا تؤسس لثقافة عالمية جديدة وهناك مراكز ثقافية في باريس وأمستردام، مثلا، واضحة وغير واضحة يعمل مندوبوها او المنتسبون لها في المنطقة. وبسبب من واقع المثقف العراقي والعربي عموما كان التبني والانتماء أو الصداقات أمورا سهلة. بدعوة لمنتدى، لحفل، بدعم إصدار... الخ. الآن تقرأ تلك الأفكار والمناهج والمنطلقات في البحوث الجديدة، في المقالات، في الاتجاهات الفنية وفي الأشعار. ثمة جو عالمي جديد يقع الشعراء الشباب والكتاب والفنانون، غالباً، ضمنه. ليس هذا سيئا هو تقدم فني وتحول إلى الجديد في جانب منه، لكنه يخدم فكرا سياسيا وإستراتيجيا جديدا. الإفادة ضرورية، لكن الوعي ضروري ومهم أيضا، لكي لا نخسر جوهر الأدب، لكي لا نخسر جوهر الفن، وليكون لنا إسهامنا الخاص في الثقافة الإنسانية. التقليد أو التبني وحده مدان. الإفادة المعرفية والتقنية مطلوبة لأي تقدم حضاري. ولأي تطور في الإبداع.

❖ لنتوقف عند الترجمة قليلا. من المعروف انك ترجمت العديد من النصوص الراقية التي تنتمي إلى مرجعيات مختلفة؟ كيف تختار النصوص الأجنبية لترجمتها؟ وهل لديك معايير محددة أم تتدخل ذائقة الشاعر والمبدع عموما لحسم الاختيار؟

– حركة الإبداع الإنساني لن تتوقف والروح النضالية للتغيير لا تفارق أي فن. العمل على تأكيد حقوق الإنسان وتحرير البشرية وكشف المضمون الإنساني ستظل وقود كل أدب ومنها لا من سواها يتوهج المعنى!

سلام على الشرفاء في العالم كله، ومن جميع الجهات... ومن جميع الأفكار النبيلة...

خذ كوب ماء. الحاضر يحتاج إلى مواكب جديدة قبل أن تغطي الوحول المشهد كله. الحصانات الفكرية مهددة في جانب كبير منها، ولكن لدى الكثيرين هي اليوم أقوى، على عكس ما يظن. كثرة مصادر التنوير وتعددها أمر عظيم، مفرح! فرصة للتطور الفكري. مصادر التضليل ليست قليلة. لكن قوى الشر مكشوفة نظرياتها وأساليبها. نحن اليوم نمتلك توازنا عقليا أكثر، ما عدنا

ضحايا حماسات فارغة نحن اليوم أكثر موضوعية أوسع فكرا وثقافة وفلسفات. اجتهادات عديدة أمامنا. الحقيقة تستوجب النظر باحترام لأفكار ورؤى الآخرين.. هذا يعني نضجا كما أن حرية الفكر ما عادت سهلة المصادرة. مفرح للإنسان، وللبشرية، إن الفلسفات الإنسانية اليوم أكثر تكافلاً...

أظنني أجبت ضمنا عن بقايا السؤال... ألاحظ دائما أن هناك ارتياحا لإثارة أحزان الماضي، ربما، ربما هو بحث حزين عن البهجة، أو لأن ما يفرحنا قليل لا يطول فيه الحديث...

معايير الترجمة عندي هي معايير الشعر الأساسية تقدم فني ومضمون أنساني. لمسة الشعر في ما أترجمه تغريني. لكن المواقف الإنسانية في الأزمنة الصعبة وعواطف الناس في الأزمات هذه مغريات لترجمة النص أن يكون جديدا في التكنيك والرؤية، مبدآن لكي أقدم على ترجمته. أحاول ما استطعت أن أكون مفيدا، القمم العالية أفاد العديد من الشعراء الشباب وما يزال يفيد. "مدن لا مرئية" نفع كتاب القصة وآثاره واضحة في العديد من الأعمال العراقية المجيدة. "ولم يقل كلمة" علم الكتّاب تناول المسائل الإنسانية في كتابة "أدب الحرب" وكيف يتركون الحماسات الفارغة إلى الإنساني المؤثر والمحترم وهكذا إلى آخر ما ترجمت .. أن أكون نافعا، أن أكون مخلصا للفن الأدبي، هما الغايتان الدائمتان. ما يثرثر به الآخرون أقاويل. حصة المصلحين والشرفاء من الكراهات دائما هي الكبرى! ترجمت ستة عشر كتابا نافعا. هذا عمل اشكر نفسي عليه. هم خزانات لغو وتبجح وادعاءات وصناع بذاءات .. على أية حال، كلامهم يظل مع القشور في الجلسات الخاصة والبارات.

❖ لنوسع دائرة النقاش ونغادر الشعر لنذهب إلى فضاء أوسع، إلى الخطاب الثقافي ولنتوقف عند الخطاب الثقافي المسيطر الراهن/ بمختلف تنويعاته، فهو يعيش حالة من الرتابة والنمطية ويدور في حلقة مفرغة. انه حبيس موضوعات متداولة ورهين أحداث معينة تمجد البطل الوهم، أو يخاطب حالة اللاوعي وتمجيد السلفية والطائفية ويستخدم اصطلاحات متأنقة ومختارة، يخاطب بها حالة اللاوعي (أو ما قبل الوعي) عند الجمهور، يمارس وظيفته الأيديولوجية في ظروف الأزمة وهي خلق حالة من اللاوعي بتلك المشكلات يحرف القضايا الثقافية عن حقلها الصحيح، كمحاولة لتهميش الجمهور ثقافيا، وكجزء من محاولة إعادة إنتاج سيطرته الأيديولوجية المتسمة بحالة متفجرة دوما.

والسؤال هو: كيف السبيل إلى خطاب جديد يتجاوز اللحظة الراهنة؟ وما هي شروط وإمكانيات إنتاج خطاب ثقافي يكافح حالة الرتابة والانغلاق على الذات ويخلق مساحة رحبة " لتفجير " الطاقات الإبداعية وازدهارها في ظل التنوع والتمايز؟ وبنظركم ما هي القوى الاجتماعية القادرة حقا على صياغة مشروع ثقافي بديل؟

– إن أحدا لا يستطيع أن يحكم حركة الفكر عموما كما الشعر وأي فن آخر. لكن أي حركة عشوائية بلا سند علمي أو نظرية غالبا ما تتبدد في الطريق. المفاجآت واردة، إنما ليس دائما إذا كنت تعني كتابة قصيدة النثر، فبسبب اعتماد القراءات لا التجارب،

وبسبب الغلو في الاستعارية، والإنشائية الطاغية، بدأت تفقد وهجها، لولا بعض الأسماء، يبدو لي أن الملل بدأ وإنهم بدأوا حتى لا يقرؤون لزملائهم. هذا غير مفرح. هي حركة يمكن أن تقرب الشعر للجمهور وكان يمكن أن تكون فناً تعبيريا فائق القدرات. بعض الأسماء تشع بقوة وبثقة وتعتمد ثقافة جيدة ولها رؤيا. أولاء قلة، قليلون جدا على كل حال. كل حركة فيها الكثير من المقلدين ومن الأسماء الزائفة، الزمن مصفاة مصفاة، كبيرة جيدة. كل تجديد فني أصيل وحقيقي سواء في الشعر أو في الفنون يشكل انتصاراً على السلطة! وبشكل انتصارا على الأنظمة! وبشكل انتصارا على الرجعية.. انتصارات الفن هي انتصارات لروح الشعب. "لكن شعب جديد فن جديد" هذا قول هوغو!

لا أظن الخطاب الثقافي يعيش حالة رتابة كما تفضلت. الخطاب الثقافي- كما الدولة كلها- في مفترق طرق. ثمة توتر، ترقب، تقاطع أفكار وتقاطع أساليب وغايات. أما أن هناك موضوعات متداولة، فهذا عادة ما يكون. بعض الموضوعات تشغل الساحة، يثيرها أو ينقلها بعضهم ويتهافت من بعد المقلدون والمرددون ومن يُعِدّ ومن يلخّص ومن يعقّب متظاهرا بالعلم. الساحة الأدبية ليست معيارا دقيقا للثقافة هنالك علماء متخصصون، أساتذة أدب وتاريخ وعلوم وفنون وأصحاب رأي يعملون بصمت. الصحافة اليومية مثيرة زوابع، في الأماكن الهادئة والرصينة تجد أسماء علمية هادئة. دقيقة في كلامها ولرأيها مرجعيات.

عموما، المراهقة طاغية في الأدب والصحافة... الدوريات أكثر علمية وادعى لاحترام ما فيها. ثمة تساهل في الصحافة اليومية. لكن هذا الحكم على العام الشائع. أنت لا تعدم كاتبا محترما ونصا محترما وكلاما رصينا عاقلا في مقابلة أو حوار...

أما القسم الثاني من سؤالك عمن يمارس توظيف الأيديولوجية في ظروف الأزمة، فهذا ما يجب أن يكون إن كان الهدف تصويب الأفكار، أما توظيف الثقافة لإستراتيجيات مرسومة كولونياليا، فأظن كل احتلال يمهد لمشاريعه بالتثقيف بها والتمهيد لها. هو يهيئ أفكارا ومروّجين. الخدم متوفرون دائما...

أتمنى أن نكون دائما واقعيين، موضوعيين ولا نردد مسلمات. المؤسسات الرسمية تغري وتفسد هذا صحيح وفي كل الأزمنة. لكنها لا تستطيع، ولا أية قوة في الأرض أن تجعلك تبدع. تستطيع أن تجعلك تكتب. هناك فرق. عشت وعملت رئيس تحرير مجلة لأكثر من خمس وعشرين سنة في ظل البعثيين ولم أكن بعثيا. لم يتدخل احد في عملي يوما. لم يرغمني أحد على الكتابة. كانوا يحترمونني أكثر مما يحترمون بعض رفاقهم. لا بد من قول الحق. ليس كل البعثيين سيئين، بعضهم مناضلون مبدئيون لهم قناعاتهم ومنهم من استشهد وبعض أعدمهم الطاغية... التعميم غير صحيح. لنعد إلى الموضوع: سبب احترامهم لي أنني كنت كفاءة ثقافية وأني كنت مستقيما ومنصرفا لعملي الثقافي. صحيح قد يلوّحون بفرص أو برزق أوسع، لكن يظل لك الخيار. وكان خياري أن أظل بعيدا ومحترما. لم يمسسني احد بضر. وما يزال بيني وبينهم الاحترام وقد كتبت أعمالا مهمة في زمنهم، صحيح هناك من هو مقدَّمٌ عليك ومن يريد أن تظل ضمن حدود... لكن أعمالا مضادة ورافضة

ومستاءة صدرت. هم يدركون ما وراءها، بينهم قادة مثقفون لكن لم يكن ضرر الكتابة مباشرا بل ضمن الوسط الثقافي. نعم قال احدهم: كتابات ياسين طه حافظ ملغومة.. لكنه لم يكن مهدّداً ربما دفعته الغيرة الأدبية فنفث سماً. كما اسمعني صديق منهم: "تالي ويـاك...؟" لكنه أعقب ذلك: "أنت أديبنا المحترم..".

على الكاتب، الشاعر، في الزمن الصعب أن يعرف كيف يكتب. ليس حكمة أن تخترق برأسك الجدار، قد يفعل ذلك ثور أعمى! قبل أن تعمل سياسة تعلم أسلوب العمل السياسي... كتبت مرة:

ليتهم راوغوا الموت كي لا يموتوا
أنا راوغته وبقيت!

نعم، كانت هناك سلطة وكان هناك حزب حاكم ولكن ليس كما يقول الإعلام اليوم، يشتم كل الأدب والثقافة العراقيّين آنذاك. هذا خطأ ايضاً وتهريج. صحيح كانت هناك مجموعة من المداحين والكتاب الخدم. هذا معروف والأسماء معروفة لكن كان بينهم من يرتجون عونا أو عملا أو أمنا... هذا خطأ ولكنه كان دون الجريمة. تستطيع أن تظل نظيفا ولا تكتب. أسماء كثيرة ابتعدوا عن الخطأ. وهم معروفون. المرحلة تحتاج إلى دراسة متوازنة تضع الأمور في نصابها. أسالك: ألا يوجد اليوم من يخدمون السلطة ودوائرَها ويستجدونها؟ ومن يخدمون غير السلطة، سلطات أخرى في الظل؟ هل تستطيع أن تحدد لي اليوم رقم العملاء؟ أظنني أطلب المستحيل!

عن القسم الآخر من سؤالك المركب: الجيل الجديد – بالمدى الذي تتحدث عنه – جيل يتكون. نعم، كما تقول، هناك ادعاءات، هناك تهريج، هناك حماسات لا يسندها علم، كل هذا موجود. لكن لا بأس، شرط أن يكون وراء ذلك درس جاد، تمرين جاد، رؤية جادة لما يحصل في العالم. القراءات السريعة، المقتطفات، أمثال هذه لا تصنع ثقافة ولا تنتج أدبا رصينا. نظل في دائرة الهوس والمصطلحات والأسماء. ما ألاحظه أن في بريطانيا كلها، لا تجد كلاما عن الحداثة قدر ما يتحدث به بضعة من جلاس البار في اتحاد الأدباء العراقيين. كلام، كلام، كلام، لو بدلا منه كتاب مهم، أو نص يلفت الانتباه! كفى!

الشعرية العراقية والنقدية العراقية وحركة الترجمة في العراق و... و... ألا خجل من هذا الكلام؟ ألا ترون أنفسكم؟ كل هذا الفقر ونحن نتبجح؟ هدوء رجاء! الموضوعية مطلوبة. ولنواصل العمل بتعقل كي لا يضحك علينا الناس!

قسم ثالث في سؤالك، نعم أوافقك على "التمهيد لسيطرته" الأيديولوجية. هو رديف لا ينفصل عن السيطرة العسكرية والاقتصادية. لكن هل كل المثقفين العراقيين على هذا الخط؟ لا يا صديقي، الروح الوطني حي ويشع بقوة وان بألم.. الثورة قد تخبو لكن لا تغادر. لكن للثورية في العمل الأدبي أشكالها. الأدب الحقيقي يرفض ويغير بصمت، بسرية لا تكشفها أي من الأجهزة.

تقول: السبيل لخطاب جديد؟ حياة سياسية سليمة وأوضاع اقتصادية جديدة وانفتاح كامل على العالم. عند ذاك، سيكون لنا خطاب حضاري وتقدمي، بمعنى باتجاه المستقبل وبمضمون ثوري حديث بعيدا عن الديماغوغ... في سؤالك هامش عن تفجير الطاقات الإبداعية، يا صديقي، لو وجدت

طاقات إبداعية عظيمة لتفجرت!

❖ سـؤال أخيـر وهـو شخصي: رغم كل القيامات والآلام والانكسارات التي شهدتها هل أنت نادم على خياراتك السياسية الأولى؟

– أبـدا أبـدا أبـدا! لم يكن لـي في ذلك الزمن إلا هـذا الخيار أو الرجعية! الرجعية لهـا فكرهـا وفلسفتها، هـذا صحيح ولكنها كانت سندا للاستعمار وكنا طلاب حرية للوطن، أين الخطأ؟ الفكر الاشتراكي، كان المثال العظيم والأمنية لـشعب جـائع بلا مسـاكن والأميّـة تـشكل ٩٥٪. هـل ينـدم الإنسان على انضمامه لصفوف البشرية المناضلة في العالم من اجل الخبز والحرية؟ أبدا هـو مـا يـرتضيه الـوعي، مـا ترتضيه الثقافة والشعور الوطني. ثم كانت هي تلك ثقافتنا. حين تثير مسألة علينا الانتقال إلى زمنها. لم تكن لنا خيارات كثيرة كما أن الأفكار الوطنية كانت محدودة ومتقاربة. جئت أنا للأكثر وضوحا ووهجا. كنا شبابا جيدين وغريبا كان استعدادنا للتضحية. ثمة مؤثر قوي لا بد من ذكره:

كان بيتنا في الخمسينيات في بعقوبة وعلى مسافة قريبة من السجن السياسي. وكنا في الليل، كل يوم، نسمع نشيد الأممية تهتـز معه المـدينـة!. مـا أزال أسمع ذلك الصوت يملأ عالمنا في الظلام الكبير!

الثقافـة الجديدة ..

ياسين طه حافظ- سيرة ذاتية مختصرة

ياسين طه حافظ من مواليد عام 1936 في بغداد. بدأ دراسته الابتدائية في مدرسة الفضل ببغداد، وأكمل دراسته الابتدائية والثانوية في بعقوبة، وتخرج من جامعة بغداد/ كلية التربية – قسم اللغات الأجنبية عام 1961.

عمل مدرساً للغة الإنجليزية، ثم سكرتير تحرير لمجلة (الطليعة الأدبية)، ثم رئيس تحرير لمجلة (الثقافة الأجنبية) منذ عددها الأول.

أهم الإصدارات الشعرية

1– الوحش والذاكرة، مجموعة شعرية 1969.
2– قصائد الأعراف، مجموعة شعرية 1974.
3– البرج، مجموعة شعرية 1977.
4– النشيد، قصيدة طويلة 1978.
5– عبد اللّه والدرويش، مجموعة شعرية 1980.
6– الحرب، قصيدة طويلة 1985.
7– قصائد في زمن الحرب، مجموعة شعرية 1986.
8– تموت الزهور تستيقظ الأفكار، مجموعة شعرية 1986.
9– ليلة من زجاج، قصيدة طويلة 1986.
10– قصائد السيدة الجميلة، مجموعة شعرية 1988.
11– في الخرائب حلية ذهب، مجموعة شعرية 1992.
12– الأعمال الشعرية، المجلد الأول 1995.
13– الأعمال الشعرية، المجلد الثاني 1999.
14– جنة الزاغ، مجموعة شعرية 2002.
15– عالم آخر، مجموعة شعرية 2004.
16– ما قاله آخر الخطباء، مجموعة شعرية 2009.
17– قصائد حب على جدار آشوري.

18- ولكنها هي هذي حياتي.
19- في الخريف يطلق الحب صيحته.
20- أيام طبرق.

الترجمات والدراسات

1- كتابة الشعر في المدارس، جَيْ بولتون، ترجمة 1977
2- رباعية الحرب، جورج ماكبث، ترجمة 1984
3- مدن لا مرئية، ايتالو كالفينو، ترجمة 1986
4- شعراء الحرب العالمية الأولى، دراسة ونماذج، ترجمة 1987
5- السيد بالومار، ايتالو كالفينو، ترجمة 1990
6- قلعة المصائر المتقاطعة، ايتالو كالفينو، ترجمة 1990
7- بيكاسو، جرترود شتاين، ترجمة 1991
8- ولم يقل كلمة، هنريش بل، ترجمة 1992
9- القمم العالية - مختارات شعرية ودراسات، ترجمة ودراسات 1993
10- حركة الأنفاق في الشعر الإنكليزي المعاصر، دراسة ونماذج 1995
11- العنف والنبوءة - دراسات ونصوص، ترجمة 2000
12- تحت جرس زجاجي، أنا بيس نن، ترجمة 2007

أدب
و
فن

إيريك هوبسباوم..
المؤرخُ الجليل والمفكرُ الماركسي الكبير..
وداعاً!

أعلن في لندن، يوم الاثنين، الأول من أكتوبر/ تشرين الأول 2012، عن وفاة المؤرخ الماركسي البريطاني البارز، وأحد أهم المؤرخين في القرن العشرين، أو مؤرّخ القرن كما يطلق عليه، إريك هوبسباوم، المولود بالإسكندرية (مصر) في التاسع من يونيو/ حزيران 1917، لأب بريطاني وأم نمساوية، في المستشفى الملكي بلندن بعد معاناة طويلة مع المرض، عن عمر يناهز الـ95 عاماً قضى معظمها في تأليف أكثر من 30 كتاباً، أرّخ فيها لمحطات مفصليّة.

رحلَ إريك هوبسباوم، مخلفاً وراءه مؤلفات قيّمة في التاريخ والفكر السياسي، شهدت على أكثر القرون غرابة وفظاعة، حيث وقعت حربان عالميتان وكان صعود النازية والفاشية وأفولهما وظهور المعسكر الاشتراكي وانهيار بعض بلدان الاشتراكية الفعلية، وتنقلت الرأسمالية من مرحلة لأخرى لتُصبح أكثر استغلالاً وجشعاً، وهو ما دفع هوبسباوم ذات مرة للقول إنه "عايش تقريباً أكثر القرون الرهيبة وغير العادية في التاريخ البشري".

وكان لولادته في عام تفجرت فيه الثورة البلشفية في روسيا وحوّلتها إلى الاشتراكية أكبر الأثر في نفسه، فتمحور عمله وتأريخه حول الالتزام بمبادئ الماركسية ما حاد عنه، على الرغم من كل ما حدث بعد عام 1991.

انتقل مع والده البريطاني ووالدته النمساوية إلى فيينا حين كان بعد في الثانية من عمره، ثم إلى العاصمة الألمانية، برلين، التي اكتشف فيها البؤس الاجتماعي لمدينة تغرق في أزمة كبرى وتعيش أشكال الصراع السياسي الأكثر قساوةً. وما أن بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى انضوى تحت لواء الحزب الشيوعي الألماني. وكان حينها قد فقد والديه وانتقل للعيش في كنف عمه. وهكذا، لعب معه التاريخ لعبة الحظ ثانية، إذ شهد انطلاقة الهتلرية. وفي كليّة "الأمير هنريخ" التحق هوبسباوم بمنظمة الطلاب الشيوعيين SDS وشارك بشجاعة استثنائية في الكفاح ضدّ صعود النازية. وبعد وصول هتلر إلى السلطة، وطوال شهريْن، بقي يوزّع المناشير ويخبّئ آلة الطباعة الخاصّة بالمجموعة في بيته. ولم يكن قد بلغ وقتها السادسة عشرة من العمر.

في العام 1933، انتقل هوبسباوم إلى لندن، فرارا من قبضة هتلر الحديدية التي أطبقت على ألمانيا وحولتها إلى النازية. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية شارك في الخدمة العسكرية حتى نهاية الحرب عام 1945. وبعدما نال شهادة الدكتوراه من جامعة كامبريدج، نشر أول كتبه في العام 1948. وكان قد عيّن مدرسا في جامعة بيركبيك في لندن، التي لم يُستخدم فيها رسمياً بسبب آرائه السياسية حتى عام 1971. ومن المفارقة أنه أصبح رئيساً لها في عام 2002. هذا مع العلم أن هوبسباوم عمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات داخل بريطانيا وفي مناطق مختلفة من العالم. وفي عام 2003 حصل على جائزة بالزان للتاريخ الأوروبي منذ عام 1990، "لتحليله الرائع للتاريخ المضطرب لأوروبا القرن العشرين، ولقدرته على الدمج بين البحث التاريخي العميق والموهبة الأدبية العظيمة."

انضم هوبسباوم إلى الحزب الشيوعي البريطاني في عام 1936، وأصبح لاحقاً ضمن المجموعة الحزبية المتخصصة بكتابة التاريخ عام 1946– 1956. وفي عام 1956، احتج هو وعدد من مفكري الحزب على الاجتياح السوفييتي للمجر. واستقال جميع أعضاء اللجنة المتخصصة بالتاريخ من الحزب، باستثناء هوبسباوم الذي ظل محتفظاً بعضويته في الحزب الشيوعي البريطاني حتى عام 1991. كما تعاطف هوبسباوم مع (ربيع براغ) عام 1968. ودان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي السلبي إزاء انتفاضة الطلاب الفرنسيين عام 1968.

في الثمانينيات من عمره، وفي كتاباته أقر هوبسباوم بانهيار الاشتراكية في بعض البلدان، لكنه قال إنه غير نادم على ماركسيته، وإنه لم يتخل عن أفكارها. وفي هذا الإطار أكد أن " فشل الدولة الماركسية " لم يدفعه أبدا إلى تغيير طريقه عن الماركسية، وانه "لا يريد أن يعرفه العالم بمن أبقى الراية مرفوعة فحسب، بل بمن آمن أن التلويح بهذه الراية مجدٍ جداً حتى لو انحصرت الجدوى ببعض الكتب الجيدة يقرأها بعض الناس".

ينتمي هوبسباوم إلى سلالة العباقرة من مؤرخي القرن العشرين، ومؤلفاته كثيرة، وهي أعمال تغطي التاريخ الحديث مع عناية بالتفاصيل تعكس مهارته كمؤرخ يعرف صنعته جيدا.

فعلى سبيل المثال نجد في مؤلّفاته الثلاثة: "عصر الثورات" (1848 – 1789)، و"عصر رأس المال" (1848 – 1875) و"عصر الإمبراطوريات" (1875 – 1914) عرضاً بانورامياً لمسيرة تطور الرأسمالية في المجتمعات الصناعية والحديثة، يروي فيه هوبسباوم تاريخ القرن التاسع عشر، متكئاً على الأطروحة التي وردت في (البيان الشيوعي) لكارل ماركس "إن تاريخ كل المجتمعات القائمة، هو تاريخ الصراع الطبقي". وقد أتم هوبسباوم هذه الثلاثية في عام 1994، بالجزء الأخير من هذه الموسوعة، وعنوانه: "عصر التطرّفات – التاريخ القصير للقرن العشرين (1914–1991) "، والمترجم إلى أربعين لغة منها العربية، والحائز على جوائز دولية عديدة. ويرى البعض في "عصر التطرفات" الذي يؤرخ للقرن العشرين خلاصة الكتب الثلاثة الأولى من الرباعية (صدرت بالعربية عن "المنظمة العربية للترجمة" في بيروت)، لكنها خلاصة معان لا خلاصة أحداث.

وأهم ما طرحه هوبسباوم في "عصر التطرّفات" الذي قسمه إلى ثلاث مراحل:– "عصر الكوارث" ما بين 1914 و 1945، "عصر ذهبي" (1945 – 1970) عرفت أثناءه المجتمعات تحولات هائلة، وأخيراً فترة أزمة شاملة مع نهاية بعض الأنظمة الاشتراكية وتفكّك الاتحاد السوفيتي – أن الخط

الفاصل الذي كان يميّز بين الصراعات الداخلية والصراعات الدولية قد اختفى وهو الخط الذي بقي واضحاً طوال القرن التاسع عشر وحتى نهاية "الحرب الباردة"، إلى حد كبير.

ولم يتوقف هوبسباوم عن الكتابة حتى قبل وفاته بقليل وظل متقد الذهن، فأصدر في العام الماضي، 2011، وهو في سن الرابعة والتسعين كتاب "كيف تغير العالم"، وفيه إعادة تأكيد لانتمائه الخاص الذي عبّر عنه بمناهضة أشكال الاستبداد كافة ، وهو – أي الكتاب – دفاع عن الماركسية التي عدّ أنها ما زالت وثيقة الصلة بعصرنا، خاصة بعد الأزمة المالية العالمية وانهيار البنوك الكبرى في أوروبا والولايات المتحدة في عام 2008، وهو ما عدّه علائمَ فشلٍ للرأسمالية.

لقد ترك هوبسباوم أرثاً فكرياً جليلاً ومنهجاً تحليلياً باذخاً تُعين عدته المنهجية الباحثين على فهم أفضل للتاريخ ومساراته الكبرى.. انه واحد من أعظم مؤرخي جيله من الكبار.. حيث سعى على الدوام إلى التمسّك بالحقيقة الموضوعية وبأن البشر هم صناع التاريخ مؤكدا أنه " يجب الاستمرار في إدانة ومحاربة عدم العدالة الاجتماعية. فالعالم لن يُشفى من تلقاء ذاته".

وينتمي إيريك هوبسباوم إلى تلك الفئة من الناس الذين لا يطيقون الظلم ولا يعتادون عليه، ويشكّل هذا الاعتقاد بوصلةً معنوية تعطي الحياة ما يميّزها من وفاء للمبادئ وثباتٍ في المواقف. وقد وصفه (إيد ميليباند)، زعيم حزب العمال البريطاني، بالمؤرخ "الاستثنائي والرجل المندفع بحماسة وراء مبادئه السياسية". أما (مارتين شولس)، رئيس البرلمان الأوربي، فقال في هوبسباوم" إنه رجل من طينة نوعية استثنائية وغير عادية من الوضوح".

إيريك هوبسباوم... أحد آخر سلالة العباقرة من مؤرخي القرن العشرين.. وداعاً!

(الثقافة الجديدة)

قاسم مطرود.. وداعاً !

في 2012/9/7 وعن عمر ناهز الخمسين عاما وبعد رحلة شاقة ومضنية مع المرض وعذابات الغربة، غادرنا في رحلته الأبدية الفنان والكاتب المسرحي المعروف، والناقد وصاحب موقع "مسرحيون" قاسم مطرود، وهو في قمة إبداعه.

ولد قاسم في عام 1961، ودرس في معهد الفنون الجميلة وأكاديمية الفنون الجميلة وتخرج منها عام 1998 في اختصاص الفنون المسرحية/ قسم الإخراج المسرحي. شارك الراحل في العديد من المهرجانات المحلية والعربية والدولية وحصل على الكثير من الشهادات التقديرية، اعترافاً بما قدمه من منجز إبداعي ثري وأصيل.

ويعد قاسم مطرود من جيل الشباب المبدع الذي اشتغل في كل تفاصيل العملية الإبداعية المسرحية من نقد وتأليف وإخراج ليصبح واحدا من الأسماء المسرحية الهامة. ويعد موقع "مسرحيون" الذي أطلقه قاسم في بريطانيا حيث كان يسكن، واحدا من المنابر المعروفة لتوثيق حركة المسرح في البلدان العربية.

وبالمقابل، فقد تجاوز منجز قاسم مطرود الإبداعي حدود المحلية، حيث ترجمت نصوصه إلى الفرنسية والإنكليزية والهولندية والسويدية والعبرية، كما كتبت عنه رسائل دكتوراه وماجستير عدة.

ذات مرة وجّه سؤال للراحل قاسم مطرود: ما المسرح الذي نحن بحاجة إليه؟ فأجاب:

"نحن بحاجة .. إلى مسرح ... يرفع من قيمة الجمال في هذا العالم... مسرح يضعنا في حلم".

لقد تلقينا في (الثقافة الجديدة) ببالغ الحزن والأسى، نبأ رحيل هذا المبدع المسرحي الجاد.. فقد عرفناه كاتبا مسرحيا، جادا وناقدا يعرف صنعته. وقد نشرت له المجلة العديد من نصوصه المسرحية التي حاول فيها اكتشاف مناطق من العملية الإبداعية المسرحية.

وإذ رحل الفنان قاسم مطرود، بعد هذا العمر القصير، لكنه الحافل بالعطاء في ميدان الإبداع المسرحي والإخراج والنقد، فإنه ترك لنا تراثاً مسرحيا ونقديا ثريا سيظل يتحدث عنه، ويذكر به، ويبقيه حياً دائم الحضور بيننا. إن مسرحيات قاسم مطرود الكثيرة ومنها على سبيل المثال لا الحصر: (جسدي مدن وخرائط) و(عزف على حراك الجمر) و(ليس عشاءنا الأخير) و(دمي محطات وظل) و(أوهام الغابة) و(معكم انتصفت أزمنتي) و(رماح الفجيعة) و(حاويات بلا وطن) و(الجرافات لا تعرف الحزن) و(صدى الصمت) و(رثاء الفجر) و(هروب قرص الشمس) و(موتى بلا تاريخ)، صنعت بكل بشخوصها وتفاصيلها، عالما مسرحيا ثريا، شخصياته شديدة الالتصاق بالواقع، الأمر الذي يجعل من منجزه الإبداعي مساهمة جدية في تطور النص المسرحي ودفعه إلى آفاق وذرى جديدة.

برحيل قاسم مطرود تكون الكتابة المسرحية والنقد المسرحي في بلادنا قد خسرا واحداً من أعمدتهما المهمة.

ختاما نقول: قاسم مطرود، احد صناع المسرح المهرة،... وداعاً!

(الثقافة الجديدة)
أكتوبر 2012

المونولوج الداخلي في رواية (سوق مريدي) لقاسم حول

نجاة تميم

نجاة تميم أستاذة الأدب الفرنسي. حصلت على ماجستير بالأدب الفرنسي عام 2006، وماجستير بطرق تدريس اللغة الفرنسية عام 2009 من جامعة ليدن في هولندا، وشهادة الدولة ترجمة هنغاري- فرنسي، والعكس من معهد اللغات في هنغاريا عام 1989. درّست اللغة الفرنسية في المغرب وهنغاريا وهولندا. صدر لها كتاب باللغة الفرنسية بعنوان "الهويات في صراع". نشرت العديد من المقالات عن السرديات ومراجعات الكتب في الصحف والمجلات العراقية والعربية والأجنبية.

(سوق مريدي) رواية أنثربولوجية بامتياز. فإذا أخذنا بعين الاعتبار الخلفية الثقافية للكاتب والمخرج قاسم حول فإننا نلاحظ أن الرواية تتميز بملامح وثائقية وتسجيلية، فضّل الكاتب أن يسجلها كنص سردي بدل عرضها على الشاشة. أما الأسلوب الأدبي لهذه الرواية فيسوده المونولوج الداخلي الذي يطلق عليه " Marc Chadouane فيلم الوعي الذي غير الكاتب منحاه" (1).

البنية النصية

من أول وهلة يبدو أن العنوان يفشي بأسرار وأحداث الرواية الموسومة: (سوق مريدي). أما دلالته فهي شاملة لمفردات كثيرة ومتشعبة. فبعد الاستشهاد بمقولة ليحيا زكريا: "طوبى لمن كان فقيرا في هذه الدنيا، وأكمل عمره بسلام"، تأتي البداية الاستهلالية، L' incipit، التي يمكنها أن تغطي فقرة أو صفحة كاملة أو ربما أكثر، لتوحي لنا بما سيدور في الرواية. والاستهلال في روايتنا هو عبارة عن جملة

واحدة؛ البسملة: "بسم اللّه الرحمن الرحيم"، التي تزين واجهات محال سوق مريدي بكل الألوان و بمختلف المواد وعلى مختلف الأسطح. أما ما يباع ويشترى في هذا السوق فلا يخفى على أحد؛ أقصد العراقيين بالتحديد.

تتكون الرواية من تسعة فصول، تتفاوت صفحاتها من خمس صفحات في الفصل الأول إلى 36 صفحة في الفصل الخامس. أما شخصياتها فتتكون من ميثم السرحان، الشخصية الرئيسة، مسرحي، غادر العراق عام 1988 واستقر بهولندا. لكنه عاد عام 2003 ليعمل مترجما مع الأمريكان. مريدي، شاب كسيح يبيع المسابح في سوق مريدي. فرحان الكُتبي يبيع الكتب. سالم الطيب يتاجر في الأحجار الكريمة والتحفيات. أما أم مريدي فهي بائعة خضار. والفنانة سيدوري، صديقة وزميلة ميثم السرحان أيام الدراسة، رحاب الساقي الحب العذري لمريدي. أما الصبية ذات الثوب الليموني فلها فقط دلالات معنوية في النص.

تجري الأحداث في بغداد وبالتحديد في سوق مريدي وفي مدينة كربلاء. كما أنها تسترجع أحداث الغزو العراقي للكويت وحرب الخليج والظروف التي مر بها العراق إلى يوم سقوط النظام عام 2003. أما السرد الزمني للنص فيلخص في خمسة أيام. قضى ميثم منها ليلتين في بيت مريدي وليلتين مع مريدي وأمه في كربلاء وعادوا بعدها في سيارة أجرة إلى بغداد للمبيت ليلة أخرى في بيت مريدي، ليذهب، في اليوم التالي، ميثم ومريدي للقاء سيدوري ومشاهدة الصبية، ذات الثوب الليموني تحت عباءتها السوداء، التي تطعم النوارس، مقلدة بذلك سيدوري التي تقول عنها هذه الأخيرة: "صبية كلها حيوية وفرح تشعرني كل يوم بأن الدنيا لا تزال بخير" (ص 77).

الأنثروبولوجيا

تتجلى ملامح الأنثروبولوجيا، التي تغني هذا المتن السردي، في ممارسة بعض المعتقدات والعادات والشعائر الدينية التي تساهم في إضافة معلومة قد لا يعرفها المتلقي غير العراقي بشكل خاص، حيث أن الرواية صدرت عام 2011، عن دار النشر نقوش عربية بتونس في 162 صفحة من القطع المتوسط. لكن ماذا تعني لنا قراءة أنثربولوجية لهذا النص؟ أهي مجرد وصف للوضع الحالي للمجتمع أم نطمح للتحليل والتأويل؟

لقد كانت الأنثربولوجيا الكلاسيكية مقترنة بأيديولوجيا الاستعمار، واستخدمت مع بداية القرن السابع عشر والثامن عشر لخدمة الاستكشافات الاستعمارية. ويمكننا القول أن الإمبريالية الاستعمارية والأنثربولوجيا المعاصرة قد تزامنا. ففي عام 1839، تأسست الجمعية الباريسية للأنثربولوجيا، كما تأسست عام 1843 جمعية مثيلة لها في لندن وفي أمريكا، وعرفت مدارس عديدة. فمن المدرسة التطورية (1850–1910) التي تبحث عن أسباب التفاوت بين الثقافات والمدرسة الانتشارية التي تهتم بصيغ الانتشار من ثقافة إلى أخرى، تأتي بعدئذ المدرسة الوظيفية التي تركز على المجتمع والأنساق الاجتماعية أكثر من التركيز على الثقافة (2)، إلى أن نصل

إلى أربعينيات القرن العشرين وبروز المدرسة البنيوية، خاصة مع (كلود لفي – ستراوس)، الذي استعان بالفرع المعرفي، اللسانيات، وبنى عليه منهجه؛ اللسانيات التي أعادت للثقافة مكانتها وللغة أهميتها كونها من المكونات الرمزية لها.

شهدت الأنثربولوجيا تطورات وتحولات منهجية ومعرفية. ففي ستينيات القرن الماضي، أصبحت الأنثربولوجيا التأويلية الرمزية، التي تعتبر امتدادا للتأثير الكبير للدراسات البنيوية للفي – ستراوس وسيمنطيقا بيرس Pierce وسيميولوجيا سوسير Saussure، أقرب إلى الآداب منها إلى الخطاب العلمي. فهي تعالج الظواهر الأنثربوثقافية باعتبارها ظواهر رمزية؛ لأن الانسان هو الذي يساهم في صياغة الخطاب الأنثربولوجي من خلال تأويلاته لأفعاله وسلوكه، إذاً "فالأنثربولوجيا الثقافية تأويلية، لأن الظاهرة الثقافية بشكل عام تأويلية بالأساس" (3).

إن المنهج التأويلي البنيوي لا يتعامل مع الإنسان باعتباره مجرد رمز، "قد يعني شيئا آخر غير ذاته، بل باعتباره كائنا ثقافيا صانعا للمعنى" (4). وبما أن الخطاب الأنثربولوجي لا يستغني عن الخطاب السردي فإننا نرى أن القاسم المشترك بين هذا الأخير والأنثربولوجيا يكمن في السرد والتناص. كما أن مناهج الكتابة الأنثروبولوجية تلتقي كثيرا مع مناهج الكتابة السردية الأدبية من ناحية الحكي والوصف والتأويل. وإن الأنثربولوجيا كما الأدب تهتم بعملية البحث الدائم لإعادة بلورة التجربة الإنسانية في شموليتها وصيرورتها المستمرة. لذلك فلا مانع في أن ننتقي الرموز الدالة في هذا المتن ونباشر قراءة رمزية تأويلية تجعلنا نحلل مختلف التيمات والقضايا الأنثروبوثقافية في هذا المتن السردي.

سبق أن ذكرنا أن رواية (سوق مريدي) تتسم بتوثيق الأحداث بشكل شامل؛ أي من المنظور السياسي، الاقتصادي والاجتماعي والديني. وتغطي أو بالأحرى تسترجع الأحداث في العراق من نهاية الحرب مع إيران عام 1988 وتنتهي بسقوط النظام المباد عام 2003. وهي السنوات الخمس عشرة التي قضتها الشخصية الرئيسة، ميثم السرحان، لاجئا في هولندا.

إن المعتقدات والعادات والتقاليد هي جزء لا يتجزأ من حياة الأمم، وممارستها قد تميزها عن بقية الشعوب. ففي هذا النص، حاولنا البحث عن هذه الدلالات الأنثربولوجية. ومن هذه المعتقدات نذكر على سبيل المثال لا الحصر اختيار أم مريدي اسم مريدي لابنها الكسيح الذي ولد معوقا وسيبقى كذلك لحين أن يموت. أمه أسمته "بهذا الاسم الغريب الذي لا يعرفه ملكوت الموت" (ص13) وذلك لكي لا تفقده كما فقدت بقية أولادها. علما أن سوق مريدي يحمل اسم ابنها الذي "ليس له فيه لا ناقة ولا جمل". أما سالم الطيب، "الشخصية الأسطورية" و"صانع المعجزات"، كما يسمونه لطيبة نفسه، فيبيع الجندي الأمريكي حجرة حمراء ويقنعه بأنها ستحميه من الموت كما يذكره بأن الحجرة الحمراء هي التي أنقذته من الهلاك، وذلك بعد حدوث انفجار في سوق مريدي. ناهيك عن أن الملا يجيب

مـريـدي الكسيح عن سؤاله ويطمئنه بأنه سيذهب على أقدامه مشيا إلى الجنة. وأنه سيجازى"لأن الأجر على قدر المشقة" (ص117). وما قد يخفف شيئا ما من المعاناة اليومية فهو ترقب مريدي لعودة رحاب الساقي، حلمه وأمله، ورؤيتها مجددا في سوق مريدي وتلهف أم مريدي لعودة المهدي المنتظر، التي أصبحت ترى في كل شيء جديد "علامة من علامات ظهور صاحب الزمان المهدي المنتظر اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه" (ص105). كما أن على مريدي أن يتقبل إعاقته لأنها قضاء وقدر. وبما أنه معوق، "شخص غير نافع في الحياة هو عالة على الآخر" (ص 118)، فقد يكون عرضة للاستغلال من قبل الإرهابيين ويلقى بذلك الجنة. وزيارته لمرقد الحسين قد تعلمه "دروس الصبر ودروس المحبة " (ص 128)، وهذا ما تتمناه له أمه.

أما الآن فحانت زيارة مرقد الحسين، فقد وجد ميثم في هذه الزيارة تنفيسا وتكفيرا عن الخطأ الذي ارتكبه. وبما أنه مسرحي التكوين فإنه يرغب في حضور تمثيل واقعة الطف التي استشهد فيها الإمام الحسين. ومن ضمن المفردات الأنثروبولوجية التي تجعل القارئ غير العراقي ينكب على البحث لإرضاء فضوله الثقافي إن صح التعبير:

"اشرب الماء وانعل يزيد".. طعم خبز العباس اللذيذ.. وصول العباس إلى نهر العلقمي لجلب الماء وقتله... تمثيل قتل الرضيع عبد اللّه من قبل حرملة، السبايا؛ زينب والرباب وسكينة . علما أن هذه التفاصيل كلها أخذت موقعها في المتن السردي.

يطلعنا السارد العليم على تفاصيل تنظيم وانطلاق موكب الحسين من بغداد إلى دخوله كربلاء في الفصل السادس: "المؤمنون من ضاربي الطبول في المقدمة وبعدهم المؤمنون من حملة الرايات ثم المؤمنون المتوجهون للزيارة. ثم موكب أخواتنا المؤمنات المتوجهات نحو ضريح الإمام الحسين روحي فداه (ص124)، وبعدهم موكب الحماية والمراقبة ثم الشباب المتطوع من الجانبين يشكلون ما يشبه السياج يحمي الموكب الجليل. ندعو الرادود (سيد نعمة السيد) للتفضل إلى مقدمة الموكب" (125). " كان ميثم السرحان شارد الفكر ويشعر بأن زيارته لمرقد الإمام الحسين قد "تخفف من ذنوبه ومن الخطأ الذي وقع فيه بقدومه ضمن قوات الاحتلال التي غزت وطنه" (ص 129).

إن تمثيل "واقعة الطف تؤديه شخصيات لا تعرف التمثيل ولكن بحركات إيمائية فطرية يعبرون فيها عن المعركة " ص 129). أما المتفرجون فينشدّون لظهور الإمام الحسين على ظهر فرس أبيض وبالرجل الذي يضع "الكشيدة" الحمراء الملفوفة باللون الأخضر فوق رأسه وقد شد حزاما اسودَ حول خصره وهو قاتل الإمام الحسين "شمر بن ذي الجوشن" (ص146). وبالإضافة إلى الاهتمام بوصف الحدث بدقة متناهية، فإن السارد العليم لا يبخل برأيه بين الفينة والأخرى. فبالنسبة له "حتى تراجيديا الحسين لا يجوز أن تتحول إلى كوميديا التراث" (ص 147). أما ميثم السرحان" فيشعر بأن ثمة حوارا بينه وبين الإمام الراقد في مثواه، حوار لم يكتب بعد" (ص148). إن السارد العليم كعادته يعرف تفاصيل كثيرة وأحيانا أكثر من الشخصية نفسها. فمثلا، مريدي ينادي ميثم باسمه في أول تعارف لهما (ص 50) دون أن يُذكر ذلك في النص.

نستخلص من هذا العرض، أن القراءة الأنثربولوجية لنص أدبي ما تعطينا فكرة عن الرموز والدلالات الثقافية عن شعب معين وفي زمن معين. فبعد استعراض هذه الدلالات الأنثربولوجية، سنتطرق إلى الأسلوب المهيمن على هذا المتن وهو استخدام تيار الوعي عن طريق المنولوج الداخلي.

تيار الوعي

يجب أن يفهم تيار الوعي، حسب وليام جيمس William James، كمفهوم المضمون، ومفهوم المادة الأولية للوعي التي تحتاج لعديد من التقنيات، من بينها الخطاب غير المباشر الحر والمنولوج الداخلي. ويضيف أن تيار الوعي Stream of Consciousness هو بالأخص مفردة تستعمل في علم النفس أكثر منها في الأدب. إنها تصف مجرى سيرورة ذهنية (5). إلى جانب وليام جيمس، فإن هنري برغسن Henri Bergson وهما رائدا منهج الاستنباط (l'introspection)، يريى أن الوعي ليس ثابتا كما عالم الأشياء، لا ينجز وإنما هو في سيرورة انجاز مستمرة

(6). علما أن استعمال تيار الوعي في الكتابة ارتبط بالأدب الحديث.

المونولوج الداخلي

إن ظروف العراق تجعل، لا محالة، الكتاب والروائيين يتوجهون إلى التعمق في الذات والبحث عن أنماط جديدة للتعبير عنها. وتمهد الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلد الطريق لهم للبحث عن طرق أخرى للتعبير عن الأحاسيس التي تغذي حياتهم اليومية الخاصة. فيتعمقون عن وعي أو لا وعي للغوص في أعماق الأنا وذلك عن طريق المنولوج الداخلي الذي يقول عنه وليام جيمس أنه " إلقاء نظرة صريحة وطويلة وصبورة على حقائق الحياة الداخلية وذلك فقط لرؤيتها" (7).

عرفت الرواية، ما بين سنوات 1885 و1900 تطورات كبيرة. كان السبب في ذلك وقوع ثلاث ظواهر متفرقة ساعدت على تغيير مفهوم الرواية آنذاك: أولا؛ اكتشاف الغربيين للرواية الروسية وخصوصا في فرنسا حوالي عام 1885، وذلك بعد وفاة دوستويفسكي بأربع سنوات. ثانيا؛ أعمال الشاعر والروائي إدوارد دوجردان، من بينها الرواية الموسومة "أوراق الغار المقصوصة". وثالثا؛ أعمال الكاتبيْن وليام جيمس وهنري برغسن في مجال الفلسفة.

ففي نهاية عام 1921، استطاع جيمس جويس James Joyce أن ينشر روايته المشهورة تحت عنوان "غوليس" Ulysses (1914 - 1921) وبذلك انتشر الأسلوب الأدبي الجديد – المنولوج الداخلي. لكن جويس يُرجع الاكتشاف الأولي لهذا المنهج إلى إدوارد دوجردان في روايته " أوراق الغار المقصوصة". فهذا الأخير، نشر كذلك، عام 1931، كتابا تحت عنوان "المنولوج الداخلي".

إن تعريف المونولوج الداخلي، حسب دوجردان، هو أولا خطاب شخصية دون متلقٍ وغير مُلقى ولا يترقب مستمعا لكي يسمعه (8). لكن أندري جيد الذي لم يذكر في محاضراته الست عن دوستويفسكي، عام 1922، رواية دوجردان الصادرة عام 1987، تحت عنوان "أوراق الغار المقصوصة" التي تتناول المنولوج الداخلي لأول مرة، رفض أيضا اكتشاف جيمس جويس لهذا الجنس الأدبي – المنولوج الداخلي – في روايته المشهورة" غوليس" وأرجع أول استعماله إلى إدغار بو Edgar Poe وروبرت براونين Robert Brown-ing ودوستويفسكي Dostoïewski.

يرد دوجردان على جيد بأن المنولوج الداخلي يجب أن لا يشتمل على شرح أو تفسير وإلا لا يأخذ به كمنولوج. ويزعم أن دوستويفسكي وبراونين يفترضان مستمعا حقيقيا ومرئيا الذي يمكنه أن يتدخل بحيث يتحول بذلك المنولوج إلى حوار (9). كما أنه يعتقد وعديد من الكتاب المعاصرين له بأن موسيقى فاكنر هي التي ساهمت في ظهور المنولوج الداخلي في الرواية. إن دوجردان، الشاعر والموسيقي متأثر جدا بأسلوب "ليتموتيف leitmotiv" الذي كان فاكنر يستعين به في معزوفاته الشهيرة. أما فاليري لاربـاود Valéry Larbaud فيعرف المنولوج الداخلي كتعبير عن الأفكار الأكثر خصوصية والأقرب الى اللاوعي. هذا من ناحية مادة المنولوج أما من ناحية روحه فهو خطاب يسبق أي تنظيم منطقي، يعيد هذه

الأفكار إلى حالة ولادتها وطبيعة انسيابها. أما الشكل فهو يتم عن طريق جمل مباشرة ومختصرة (10).

قبل أن نتطرق إلى المنولوج الداخلي في رواية "سوق مريدي"، نريد أن نضع أيدينا على أهم العبارات التي تكون المحاور الأساسية لهذا النص وذلك من خلال ليتموتيف. وقد وجدنا في هذه الرواية عبارات مكررة لمدلولها وموقعها بين الأفكار المحورية للرواية. وتكررها هذا يعزز التأثير الشعري على المتلقي.

ليتموتيف

إن ليتموتيف leitmotief الفاكنرية هي عبارة عن لازمات أو جمل موسيقية تتكرر كل مرة في معزوفات فاكنر عندما يحدث نفس الانفعال أو نفس الإحساس. وهذا المنهج تبناه كذلك الشعراء والروائيون في ذلك الوقت، فترة تيار الرمزية Sym-bolisme ونلاحظ هذا على شكل تكرار جمل أو عبارات تعبر عن الأفكار الأساسية في رواية المنولوج الداخلي. ففي (سوق مريدي) نجد سيدوري تعاتب ميثم وتقول له: "كنت تحاول أن تحب الوطن كثيرا ولكنك تحب نفسك أكثر والذي يحب نفسه كثيرا يحب الوطن قليلا أو حتى لا يحبه" (ص81). وبهذه الجملة أيضا يخاطب أو بالأحرى يعاتب ميثم نفسه، في منولوج داخلي بالطبع (ص 136). ويكررها كذلك السارد مخاطبا ميثم : "الذي يحب نفسه كثيرا يحب الوطن قليلا أو حتى لا يحبه " (ص148). أما كلمة ضمير فتكرر ست مرات في النص؛ من قبل سيدوري "الضمير الميت" (ص85) ومن قبل ميثم أربع مرات، حينما وجد نفسه مجبرا على مواجهة "أول ضمير وأصعب ضمير وأصفى ضمير" (ص 111)، كما أنه يخاف "رأي الوطن الجريح" وبذلك كيف يولي وجهه من "وخزة الضمير" (ص 113). أما سالم فلا يخشى شيئا، يخاف فقط من "وخزة الضمير" (ص127). وتختم سيدوري العتاب بقولها لميثم: " لماذا خنت وطنك ولماذا خنت نفسك. ولماذا هتكت ستر العراق وستر رحاب الساقي وستر سيدوري". (ص112) . ويتأثر ميثم بما قالت سيدوري له ويعاتب نفسه بنفس الجملة في نفس الصفحة. اما كلمة "منولوج" فتتكرر بالتتالي مرتين فقط من قبل السارد في صفحتي 130 و150. ون خلص الى أن منهج ليتموتيف أوضح لنا المحاور الأساسية في هذا المتن والتي تدور حول الخيانة، تأنيب الضمير والبحث عن الذات.

لنعد إلى المنولوج الداخلي، الذي يقسم W. Seaver أجناسه في أطروحته الموسومة "المنولوج الداخلي في الرواية الحديثة" إلى أربعة أجناس أدبية: منولوج الإحساس، المنولوج السردي، منولوج الأحلام ومنولوج (في مسرحية) (11).

إن **منولوج الإحساس** يعبر عن الحالة الروحية للشخصية كالفرح، الحزن، الحب، الكراهية..

أما في **منولوج الأحلام** فتترك الشخصية العنان لأفكارها أثناء تأملها دون أن تؤثر في تقدم الأحداث. بينما في **المنولوج السردي** يدخل السارد مباشرة في الحدث لكي يعلمنا بأشياء لا يمكننا معرفتها بطريقة أخرى. **ومنولوج (في مسرحية)** هو نتيجة تخبط الشخصية واضطرارها للاختيار والولوج إلى أسلوب

المنولوج. في هذا البحث، اكتشفنا مواقع" ليتموتيف" التي تتكرر كلما تكررت الظروف أو المشاعر خلال السرد وسنعمل في السطور الآتية على العثور على أنواع المنولوج في هذا المتن الروائي.

فبعد تقديم السارد العليم شرحا تفصيليا عن الجملة الاستهلالية في الفصل الأول، ننتقل إلى الفصل الثاني الذي يبدأ مباشرة من وسط الأحداث، in medias res بضمير المخاطبة. فمريدي يخاطب نفسه في مونولوج داخلي دون أن يسمعه أحد أو ينتظر جوابا من أحد: "ها أنت يا مريدي على كرسي المعوقين. لم تكن معوقا بسبب الحروب... كنت معوقا مذ ولدت.." (ص11). فبين الأحداث التي يسردها لنا السارد العليم من حين لآخر، تتناوب الشخصيات في مونولوج داخلي مع نفسها. هكذا يوجه سالم كلاما إلى نفسه، مسترجعا شريط حياته: "ولماذا تحمل هموم الدنيا يا سالم الطيب. ها أنت على أبواب الخمسين لم تتزوج..." ويستمر في مناجاة نفسه وينادي نفسه بالاسم: "يا سالم الطيب بعد أن مضت السنوات هدرا...كان بإمكانك أن ترحل عن الوطن وتهيم وتعيش مثل غيرك في منافيها. لكنك قررت أن تبقى هنا وأن تموت في وطنك وبين أهلك.." (ص 23). أما ميثم السرحان فقد عاد إلى الوطن بعد فترة المنفى، و تعرّف الى مريدي في مقهى سوق مريدي. وخلال هذا التعارف، أحس ميثم بالأسئلة التي تدور في ذهن مريدي عنه فبدأ يستعرضها مخاطبا نفسه: " من أنت يا ميثم السرحان وما الذي أتى بك إلى هذا السوق الذي تبدو فيه غريبا. وأنت لست من أهل المدينة الفقيرة ولا من سوقها الذي يشبه كل العراق تحت وطأة الاحتلال" (ص40). لكنه في هذا المونولوج الداخلي بدأ حقا بتوبيخ نفسه: "كيف دخلت يا ميثم السرحان في لعبة هي أكبر منك. كنت شابا شغوفا بقراءة المسرح وتعشق المسرح والممثلين.. (ص 41) ضحكوا عليك... (ص42) ها أنت لم تجد غير سوق مريدي ملاذا لهروبك..." (ص43). كان ضمير ميثم السرحان هو الذي يحاكيه. بعدها أفاق من مناجاة نفسه وطلب من فرحان الكتبي، صاحب المكتبة، كتبا عن الأدب والمسرح بدل الكتب الدينية الموضوعة على واجهة المكتبة. أخبر فرحان الكتبي، اليساري والمثقف، ميثم عن مصير المثقفين العراقيين وما آلوا إليه وعن مصير الكتب الثقافية المكومة في سرداب مكتبته الذي يسميه "سرداب الحقيقة". نزل ميثم إلى السرداب والتقط كتاب ملحمة كلكامش لطه باقر. إن محاكمة ميثم من قبل نفسه بدأت تواً. فبعد العشاء في بيت مريدي استلقى ميثم ليستسلم للنوم لكن الأفكار أخذته إلى حبيبة الصبا وأيام الدراسة في معهد الفنون الجميلة، سيدوري، التي أسماها أبوها على اسم صاحبة الحانة في ملحمة كلكامش؛ تلك سيدوري التي "تنهض بالوعي"(ص63) يتعذب من أجلها ويحاكم نفسه على فعلته: "أفتحوا لي قضاة المحاكم الآتية قفصا للاتهام ولن أحتاج إلى محامي دفاع لأنني مسبقا أعترف لكم بالخلل الذي لا يمكن تصحيحه" (ص63) فهو تارة يخاطب صديقته جينا الجندية الأمريكية السمراء، وتارة سيدوري في منولوج داخلي بالطبع. ويعود ليكلم نفسه "كنت تدرس المسرح يا ميثم السرحان ..." (ص63) "أنت الآن تخجل من محادثة (سيدوري) لأنك مارست

الخيانة بكل تفاصيلها...مارست السقوط بأعلى حالاته..." (ص 64) فيضغط على نفسه ليتخذ قرارا حاسما في حياته ويخاطب نفسه :" قرّر يا ميثم السرحان، إما أن تذهب إلى حيث الآمان....في بلاد الغربة...أو أن تبحث عن سيدوري في بلاد الخيبة...ص66 فعندما اتخذ القرار تغير المونولوج من ضمير المخاطبة الذي ساد معظم النص تقريبا إلى ضمير المتكلم:" إذاً سوف أتحدث مع صاحب المكتبة..وأبحث عن سيدوري" (ص67) و هو يتوق للعودة إلى الماضي الجميل!!

إن كلمة أم مريدي "هذا بيتك يمه"، في الفصل الرابع، تجعل ميثم يناجي نفسه ويستفسر عن بيته الحقيقي أهو في البلاد الباردة أم في بيته حيث سيدوري ولوحاتها. يتساءل عن المكان الذي يمكنه أن يجدها فيه. ويريد أن يراها كما تركها (بدون وداع). أخيرا، وجدها متأثرة بورم سرطان الرحم، متشائمة قائلة له؛ "كل ما يجري في الوطن صار مشروع الموت وليس مشروع الحياة" (ص74). عندما كان ميثم يناجي نفسه في مونولوج داخلي، كان على الأغلب ضميره يؤنبه لكن الآن، سيدوري هي ضمير ميثم الحي الذي يعرفه جيدا ويعرف خبايا نفسه أكثر منه.

"ليس لك سوى سوق مريدي يا ميثم السرحان..هذا ملاذ الهاربين.. ملاذ الذين لا يعرفون دربهم " (ص87).. هكذا يواسي نفسه من صدمة وعذاب اللقاء مع حبيبته سيدوري في الفصل الخامس. لكن بعد أن اعترف ميثم لمريدي بدخوله العراق مع قوات الاحتلال زادت وطأة تأنيب الضمير. ميثم يرنو إلى السماء وهو يقول مع نفسه: " لم يكن اعترافك كافيا يا ميثم السرحان. أنت الآن تواجه أول ضمير وأصعب ضمير وأصفى ضمير..ها أنت تخون وطنك الكسيح المقعد.. أين أنت أيها النوم الهادئ.. لقد قال مريدي كلمته فيك.. في شكل سؤال "لماذا خنت وطنك ولماذا خنت نفسك.." (ص112).

أما مريدي الكسيح فلا يريد أن يستسلم لقدره. فإنه يبحث لنفسه عن متنفس يخرجه من ضيقه. وربما يصبّر نفسه على لسان السارد العليم الذي يخاطبه هذه المرة في منولوج داخلي. " هكذا خلقك اللّه يا مريدي ابحث في القرآن الكريم عن الآيات التي ترحم الفقراء وعن الجنة التي ستمشي فيها بين أنهر العسل.. أبحث في القرآن الكريم ..عسى أن تجد العراق غير هذا العراق في خارطة الجنة " (ص115).

في الفصل السادس، تبدأ الرحلة للبحث عن الذات من داخل الذاكرة الجماعية. هكذا أثناء موكب زيارة مرقد الحسين، عادت ذاكرة ميثم إلى الوراء ليتذكر اصطحاب والدته له إلى مرقد الحسين وذرفها الدموع وتقبيلها شباك الضريح وكذلك لقاءه بسيدوري بعد أدائه مونولوج مسرحية " أغنية التم" ذلك الطائر الذي يغرد مرة واحدة قبل أن يموت (ص 130).

خلال فترة استراحة موكب الحسين في طريقه إلى كربلاء، غفا ميثم قليلا وشاهد في المنام نفسه في عربة مريدي كسيحا ومريدي يدفع بالعربة (ص134) أصيب ميثم، الشخصية الرئيسة، بفزع شديد بعد هذا الكابوس فاتجه إلى ربه يناجيه لكي يجد الطريق الذي يقوده نحو الراحة ويبعده عن الرذيلة. وهذه المرة الثانية التي يستعمل فيها الضمير المتكلم في هذا

النص: " أنا الآن في حيرة. أحب المسرح وأعشق السينما وحال البلاد ليست حال الدنيا. الحلال اصبح حراما والحرام أصبح حلالا. بين الرغبة والواقع وبين الخطأ والصواب تنتحر حريتي.. لقد عرفت (ها) سيدوري (الحقيقة). عرفتها بوضوح". فسيدوري تعرفه جيدا فهي ضميره الذي يعذبه وها هي تصارحه: " كنت تحب الوطن ولكنك كنت تحب نفسك أكثر. والذي يحب نفسه كثيرا يحب وطنه قليلا أو لا يحبه." ويعترف لنفسه بعجزه مستعملا ضمير المتكلم للمرة الثالثة." الفرق بيني وبينك يا مريدي ها أنت الكسيح الذي لا يقوى على الحركة...وها أنا الآخر كبّلتني أخطاء، فصرت مثلك يا مريدي عاجزا عن الحركة غير قادر على مواجهة الحقيقة (ص136).

الفصل السابع يغطي أحداث اليوم التالي لزيارة كربلاء، حين حضّر ميثم الفطور لمريدي وأمه. فتساءل مريدي مع نفسه:" إذا كنت بهذا القدر من الحنان يا ميثم، فلماذا أخطأت؟..لماذا جئت مع المحتل تغزو وطنك وتنتهك قدسية سيدوري ورحاب الساقي... (ص142).

أما في الفصل الثامن فقد ذهب ميثم لعناق الماضي؛ لزيارة مسرح كربلاء الذي مثل فيه مسرحية "التم" فوجده مسرحا تقام فيه الحسينيات: "المسرح ذات المسرح لكن المسرحية هي التي اختلفت. غرفة الماكياج هي ذات الغرفة لكن الممثل ميت" (ص 155) هذا المنظر أثر فيه كثيرا ودخل في مونولوج داخلي بضمير المخاطبة يعاتب فيه نفسه ويحمل نفسه قسما مما وصل إليه العراق." أنت صنعت الدكتاتور وأنت تركته...، أنت وضعت الممثل في التابوت ميتا" (ص 155).

وكان الفصل التاسع والأخير مشهدا للقاء ميثم مع ضميره "سيدوري" وذلك برفقة الشاهد على ذلك، مريدي.

بعد هذا التحليل، نجد أن هذا النص يحتوي على ثلاثة أجناس من المنولوج الداخلي وهي منولوج الإحساس، منولوج الأحلام والمنولوج السردي. ففي الأول، تعبر الشخصيات عن حزنها و خيبة أملها كما عن تفاؤلها بمستقبل مشرق. أما في الثاني فيتجسد في حلم ميثم في بيت مريدي وفي الكابوس الذي حلم به ميثم في استراحة موكب الحسين و الذي جعله يواجه عجزه ومخاوفه، أما المنولوج السردي فيقوم به السارد العليم الذي يخاطب تارة ميثم، وتارة أخرى مريدي دون أن ينتظر منهما ردا ودون أن يسمعاه. كما يطلعنا على أفكار مريدي، تأملاته وتطلعاته وأحلامه بلغة ومعلومات لا يستطيع مريدي أن يعبر عنها. ونعلم في نفس الوقت تفاصيل علاقة سيدوري وميثم أثناء الدراسة، وأموراً عديدة أخرى.

في هذا المتن الغني بتعدد الأصوات وتعدد أجناس المنولوج، نجد أن الشخصية الرئيسة تأخذ بعين الاعتبار رأي الغير وهكذا يتم المنولوج متكونا من رأي الشخصية عن نفسها ورأي الآخر فيها. فضمير المتكلم "أنا" هو المعبر الملازم لخطاب الأنا أي للمنولوج الداخلي. فنرى أن الشخصية الرئيسة، ميثم، تتكلم مع نفسها وعن نفسها بضمير المتكلم، عندما يكون الرأي يهم الشخصية فقط ومن وجهة نظرها. أما ضمير المخاطبة، الذي ساد هذا

المتن، فهو "الأنت" الذي تتوجه فيه الشخصية إلى ضميرها وهذا ما فعله ميثم. وهذا النوع من المنولوج هو عبارة عن تواصل الشخصية مع نفسها وعن نفسها بحيث أنها تأخذ بعين الاعتبار رأي الناس فيها وعلى إثر ذلك تحاكم نفسها. تماما كما كان ميثم يؤنب نفسه من خلال نظرة المجتمع إليه اكثر مما ينظر إلى أعماق نفسه ليعاتبها ويتفحص الخلل الذي أصابها. فعن طريق ضمير المخاطبة، تتمكن الشخصية من بأن تقوم بنوع من التواصل الشخصي مع النفس communication intrapersonnelle، بمنولوج داخلي، داخل سيرورة خطبتها" (12). في هذا المتن لرواية (سوق مريدي)، نرى أن استعمال ضميري "الأنا" و"الأنت" يجعل الشخصية الرئيسة توضح أو بالأحرى تكشف لنا وجهي "الأنا" Ego

وهذا يجعلنا نتفق مع دوستويفسكي، الذي يقول بأن الوعي لا يكتفي أبدا بنفسه وإنما هو دائما على علاقة يقظة ومشدودة مع وعي آخر. فكل أحاسيس وأفكار الشخصية تعتبر حوارية داخليا، ملونة بالجدلية، مليئة بالصمود أو بالعكس منفتحة على تأثير الغير، لكن لا تُركِّز أبداً على الموضوع الشخصي؛ كل هذه الأحاسيس والأفكار تلازمها نظرة دائمية عن الغير (13).

وللمقارنة، فإذا تمعّنا في قصة دوستويفسكي الموسومة "كروتكايا" (1876) نجد أنها تشمل خطابا داخليا يوجهه رجل لنفسه وهو في غرفة وحده وبمرافقة جثة زوجته. فمن خلال استرجاعه لذكريات مجزأة، تقص علينا هذه الشخصية الرئيسة لقاءه مع زوجته، تهميش حياتهما المتدرج بعد الزواج وأخيرا انتحار زوجته. إن رنة هذا المنولوج تختلف بحيث يبدو لنا أن السارد، أحيانا يتحدث إلى نفسه وأحيانا إلى مستمع غير مرئي الذي يقوم بمهمة القاضي. ونرى أن ميثم في منولوجاته، يكون المستمع المفترض له إما ضميره الذي يعذبه أو سيدوري، كضميره الآخر أو مريدي الذي يمثل "الغير" أو ضمير الغير.

فبعد البدايات مع "أوراق الغار المقصوصة" و"غوليس" لجيمس جويس و"عشاق، عشاق سعداء" لِفليري لربو (1921)، فإن المنولوج الداخلي غدا فناً للتواصل Art de communication، على الأقل ضمنيا، كالرواية والحكاية والقصة، يوصل فيها الراوي رسالة إلى المتلقي. وأن هذا المنولوج الداخلي أي منولوج الشخصية مع نفسها يُبين لنا مرحلتي الأنا اللتين قد يتواجهان ويتعارضان فيها. كل هذه الأعمال، تتميز كما روايتنا (سوق مريدي) بأسلوب كرونولوجي وجمل قصيرة ومباشرة. تتسم هذه الأخيرة برموز ودلالات أنثربولوجية وانسياب لأفكار وجدت منابعها في أعماق تيار الوعي. كما عبرت بذلك عن الهم الإنساني وما يشغله في محاولة لوضع الأصبع على الجرح لعل وعسى أن تكون البداية للوصول إلى المغزى المنشود.

الهوامش:

(1) Eduard Dujardin, Le monologue intérieur, Albert Messein, Paris, 1931, p.48
(2) Maud Vauléon, Anthropologie et littérature, univ. Presse, Paris, 2006
عياد أبلال، أنثربولوجيا الأدب –دراسة أنثربولوجية للسرد العربي، روافد للنشر والتوزيع، 2001 القاهرة، 2001
(3) Ibid., p. 74
(4) Ibid., p.50
(5) Robert Humphry, Stream of consciousness in the Modern Novel, Univ.of California Press, 1954,p.1-5
(6) E. Van der Staay, Le monologue intérieur dans l´œuvre de Valéry Larbaud, Champion, Paris, p.90
(7) Ibid., p.89
(8) E. Dujardin, p.40
(9) Ibid.,p.82
(10) Ibid., p.68
(11) Robert W. Seaver, Le monologue intérieur dans le roman moderne, Paris, 1954, p.63
(12) L. Francoeur, Le monologue Intérieur narratif (sa syntaxe, sa sémantique et sa pragmatique) Etudes littéraires,vol,IX,n2,août 1976, pp341-365
(13) Elisabeth Van der Staay, p.77

ترجمة الشعر في التطبيق

أحمد خالص الشعلان

أحمد خالص الشعلان حاصل على درجة الماجستير في التربية/ اللغة الانكليزية، وعلى درجة الدبلوم العالي في الترجمة. درّس الترجمة في جامعتي ديالى وبغداد من 2004 إلى 2009، ويدرّس حاليا مادة الشعر الانكليزي في جامعتي نوروز وزاخو- محافظة دهوك. صدر له كتاب مترجم: "علم الجمال عند الفيلسوف كانت"، وستصدر له في بغداد الكتب الآتية: "شعراء وقصائد من الشعر الانكليزي"، و"محاكاة جديدة: الواقع مثلما تَمَثلهُ شيكسبير"، و"الجنس الأدبي"، و"تركيا والمياه العابرة للحدود"، وفي كردستان روايتان كرديتان مترجمتان: "مريم" إلى العربية، و"كولستان والليل" إلى الانكليزية.

مثلما هو معروف ومعترف به، لست ولا القراء، حسبما أظن، بحاجة هنا الى ذكر النتائج الخلافية التي تثيرها الترجمة. وقد لا يحتاج المرء هنا أيضا لقول المزيد عن لا تطابق حتمي يحصل بين النص الأصل والنص الهدف، لأنه بات هو الآخر من البديهيات. غير أني هنا، و بصدد الترجمة تطبيقا، أجد نفسي مضطرا للتطرق الى الخسارة الدلالية التي يمنى بها النص جراء الترجمة، و نوع تلك الخسارة و تأثيرها على المتلقي، بخاصة عند ترجمة الأدب، بسبب عوامل:

- يقع قسم منها داخل اللغة.
- قسم آخر يقع خارج اللغة.
- وقسم ثالث يتعلق بجنس الأدب المترجم وفنه.

وما يسترعي انتباهنا تحديدا هنا هو الخسارة الدلالية والفنية الحاصلة في ترجمة الشعر. ذلك، ربما لكون الشعر هو نوع

الأدب الذي يتعرض، عند ترجمته، لأكبر خسارة دلالية على الإطلاق من بين الأنواع الأدبية قاطبة.

ومن هنا، قد يجد المرء مسوّغا، يحمله إلى حد بعيد، إلى قبول ما يقوله البعض من " . . . إن ترجمة الشعر هي أم المشاكل الترجمية . . .". وتعبير " أم المشاكل" قد يشير هنا إلى، أو يعني قطعا، أن عملية ترجمة الشعر مليئة بالمطبات! ويحصل هذا ربما لأن الشعر، من بين جميع الأنواع الأدبية، هو الذي يتمتع بأشد الأساسيات صرامة وخصوصية، ما يجعله يختلف اختلافا حادا في هذه الأساسيات، من ثقافة الى أخرى، ومن لغة إلى أخرى. فالرواية مثلا نجدها، سواء في عموميات فن الرواية أم في خصوصياته، لا تختلف من لغة إلى أخرى، أم من ثقافة الى أخرى، الاّ اختلافا طفيفا، لا يعيق ترجمتها، أو يعيق الاستمتاع بقراءتها منقولة الى لغة أخرى. وقد يصح قولنا هذا على المسرحية أيضا، الى حد كبير. ويصح، دون ريب، على القصة. غير أن الشعر هو، وحده، الذي قد يلتقي في مختلف اللغات والثقافات عند عموميات من قبيل: يجب أن يكون منظوما، وموزونا، ومقفى، غير أنه يختلف اختلافا صارخا، يكاد يكون مطلقا في خصوصيات التي تتعلق بهذه المفاهيم العامة.

خذ مثلا مبدأ بحور الشعر وأوزانه. الأوزان، مبدأ عام في الشعر، موجودة في أشعار جميع الأمم و الجماعات، ولكننا حين نأتي إلى خصوصيات الأوزان، قد لا نجد وزنا واحدا في الشعر المنظوم بالعربية يتطابق مع أي وزن من أوزان الشعر المنظوم بالانكليزية، وهما اللغتان اللتان نحن بصددهما هنا حصرا. وقد يصح قولنا هذا حتى إن تحدثنا عن شعر عربي وكردي، أو شعر عربي وتركي، أو شعر عربي وألماني، الخ. ومع احتمال أن تكون الاختلافات أضيق قليلا، فهذه البديهة تصح أيضا، إلى حد كبير، حتى على أوزان الشعر المتداولة في لغات تنتمي الى الأسرة اللغوية الواحدة، مثل الانكليزية والألمانية وهما من أسرة اللغات الجرمانية، أو مثل الفرنسية والايطالية وهما من أسرة اللغات الرومانس، فما بالك، اذاً، حين تكون اللغتان، المنقول منها والمنقول إليها، غريبتين عن بعضهما، مثل العربية (سامية) والانكليزية (جرمانية)!

ففي سبيل المثال، نحن نسمع العروضيين العرب يتحدثون عن المتقارب، والمتدارك، والوافر، والكامل، والهزج، والرجز، والرمل، والسريع، والخفيف، والمضارع، والمقتضب، والمجتث، والطويل، والمديد، والبسيط، وكلها بحور للشعر العربي. ونسمع العروضيين الانكليز يتحدثون، مثلا، عن تفعيلات عامة في الشعر الانكليزي، مثل: (عمبق: iamb: وهي تفعيلة شعرية ذات مقطعين واحد غير منبور يتبعه آخر منبور) و (بيون :paeon وهي تفعيلة شعرية نادرة في الشعر الانكليزي تتكون من مقطع منبور و ثلاثة غير منبورة) و (تروشي :trocheeوهي تفعيلة، عكس عمبق، تتكون من مقطع منبور يتبعه مقطع غير منبور) و (أنبسط :anapaest وهي تفعيلة تتكون من مقطعين غير منبورين يليهما مقطع منبور) و(دكتيل : dactylوهي تفعيلة تتكون، على عكس انبسط، من مقطع منبور يليه مقطعين غير منبورين) و (سبوندي :spondeeوهي تفعيلة تتكون من مقطعين منبورين أو يسميان طويلين أحيانا)،

وربما توجد تفعيلات أخرى لسنا هنا بصددها. والمهم هنا، من ناحية أخرى، هو أننا لو حاولنا إيجاد تطابق، من أي نوع كان، بين العروض العربية وتلك الانكليزية، لا بد أننا سنواجه إخفاقاً أكيدا! هذا، ناهيك عن تفصيلات لها علاقة بالعروض موجود هنا وغير موجود هناك، أو بالعكس.

لنأخذ، في هذا السياق، مثلا، مصطلحات متداولة في كل الأزمان، ولها دلالات تقنية محددة موجودة في الشعر العربي من قبيل: "عروض" و"ضرب" و"سبب" و"وتد" و"صدر" و"عجز" و"فاصلة" و"حشو"، وغيرها كثير بكل تفصيلاتها الفرعية، ولو حاولنا أن نجد، لها جميعا، مقابلات هي الأخرى في الشعر الانكليزي، نظريا وتطبيقا، وما هي إن وجدت؟

الإجابة هنا تبقى، دون ريب، مفتوحة على مجهول، قد لا يأتينا بخبر يقين!

أما إذا أردنا التحدث عن القافية العربية بأنواعها، التي قد لا تخطر تفصيلاتها التقنية ببال قارئ الشعر، في محاولة لإيجاد متطابقات لها في القافية الانكليزية، فتلك مسألة أخرى فيها نظر طويل، وقد لا تفضي محاولة حلها الاّ إلى متاهة!

وعدا ما سلف من حقائق عن مبدأ الأوزان الشعرية و تفصيلاتها التقنية، فان المرء لا بد أن يجد من الاختلافات في أساسيات الشعر بين اللغات، المختلفة عموما، ما يتطلب حسابه حسابا متأنيا عند ترجمة الشعر. ومن ذلك، مثلا لا حصرا، ما يأتي:

– الخواص الموسيقية للعبارة الشعرية وجرس الكلمات في اللغتين، ونحن نعلم جيدا أن ذلك له، فضلا عن الأصوات الطبيعية التي تختلف باختلاف البيئتين، علاقة بسلالم الموسيقى عند ثقافتي اللغتين.

– الثقافة؛ وأعني ما نجده ملائما هنا قد لا يلائم هناك، أو ما هو ساخن هنا قد يعد باردا هناك، وما هو مقبول اجتماعيا هنا قد لا يجد قبولا هناك. ويدخل ضمن هذا الخاص والعام من دلالات الأماكن والتواريخ، أياما وشهورا وسنين، ومعها الرموز التاريخية والوطنية.

– سايكولوجيا شاعر اللغة المصدر وسايكولوجيا مترجم اللغة الهدف.

– القدرة التخيلية للشاعر المصدر والقدرة التخيلية للمترجم الهدف.

– بنية اللغة المصدر وبنية اللغة الهدف، وما تحملانه من تركيبات متباينة تتطلب المعالجة، و من اختلافات نحوية وقواعدية تتطلب المراعاة والتصريف الذي يخضع لنمط الجملة عند اللغتين، وتضاف إليها اللغة الاصطلاحية المستعملة في كلا المستويين؛ لغة الحياة اليومية واللغة القياسية.

– أفضليات الاستعمال الأسلوبي للغة عند كليهما؛ شاعر اللغة المصدر ومترجم اللغة الهدف.

– دلالات الأدوات الشعرية وما تفرزه من مؤثرات صوتية، وحسية، وبنيوية، وبلاغية، وغيرها!

– ناهيك عن صلة القربى بين اللغتين؛ أموجودة أو لا، متقاربتين أو متباعدتين؟ مثلما هو الحال هنا، فالعربية لغة سامية، والانكليزية لغة هندوأوروبية، وهما لغتان لا يجمعهما أي جامع عدا عموميات -univer sals وهي مشتركات اللغات جميعا بغض النظر عن أصلها. وهذا العامل وحده قد

يثير عند البعض شكوكا عن الجدوى الدلالية والجمالية لترجمة الشعر، بالذات من الانكليزية إلى العربية، أو بالعكس!

– أخرى كثيرة، قد لا تخطر ببال المترجم، ولكنها تشخص أمامه فيحار فيها، مما يضطره لإيجاد ستراتيجيات معقولة ومقبولة منطقيا أو فنيا للتغلب على إشكالاتها.

ولا بد لنا من أن نذكر هنا أيضا بأن التعقيدات التي ترافق ترجمة الشعر كانت قد ولّدت مواقف (من ناحية كونها، مثلما قلت، مليئة بالمطبات!) من ترجمة الشعر، ليست وليدة اليوم، أو الأمس القريب. فهذه المواقف قد تعود بنا تاريخيا وثقافيا الى عهود بعيدة في ثقافة العديد من اللغات. فنظريا، نجد في الكلاسيكيات الثقافة العربية، مثلا، أن عمر أبو عثمان الجاحظ كان قد عبّر، قبل أكثر من اثني عشر قرنا، عن استحالة ترجمة الشعر، بقوله كونها مهمة مستحيلة، وناهيك عما يقوله بعض الكتاب المعاصرين عن ترجمة الشعر من أنها "فن الفشل"، برأي امبرتو ايكو، الأديب الايطالي. وموقف الشاعر الأمريكي روبرت فروست من ترجمة الشعر يتمثل بقوله المعروف " . . . في الترجمة يتعرض الشعر الى الضياع!"، ناهيك عن إقصاء أفلاطون للشعر كله، من جمهوريته الطوباوية، بسبب لا منطقية الشعراء، فكيف بنا ونحن بترجمتنا للشعر نريد أن نخضعه الى منطق الترجمة على هذا النحو أو ذاك!

وعلى الرغم من ذلك؛ ولأني، وحتى الآن، كنت قد ترجمت ما لا يقل عن ثلاثمائة قصيدة من الانكليزية إلى العربية، وعددا قليلا منها من العربية الى الانكليزية. ولأني، من ناحية أخرى، لا أحب الحديث في النظريات، ولا الخوض فيها، فأني آخر الأمر، عندما كنت، وما أزال، حين أشرع بترجمة قصيدة لا تحضر في ذهني أية نظرية، لأجعل منها فنارا يوجه سفينتي إلى بر سلام الترجمة (إن كان للترجمة بر سلام)!، وإنما أروح، لأدع فكري وقلمي يشتغلان معاً، بعد قراءة قد تتكرر الى عشر مرات أو عشرين، أو أكثر، للقصيدة التي أروم ترجمتها، أمرّ خلالها بمخاض لا يختلف عن مخاض شاعر قرب جذع نخلة، أو سفح جبل، أو ضفة نهر، لكي أنتج ذاك النص الذي أزعم في ما بعد أنه قصيدة مترجمة. وفي خضم تجربة من هذا النوع، صار بإمكاني أن أصوغ نظريتي الخاصة، بمعنى رأيي الخاص، عن إمكانية ترجمة الشعر.

وتطرح هذه النظرية ثلاثة افتراضات عن إمكانية ترجمة الشعر، هي:

1- **الافتراض الأول** يقول "نعم" بالإمكان ترجمة الشعر إذا كانت عملية الترجمة مبنية على أساس المعنى، وليس غير المعنى. وهذا يعني إهمال الأساسيات التي بنيت عليها القصيدة جملة، عدا المعنى. ومن الواضح أن هذه الإمكانية مبنية أساسا على أن موضوع الترجمة هو نقل الرسالة التي تحملها القصيدة، لا غير! ولكن مع الاعتراف بحقيقة أن النص المكتوب نظما في اللغة المصدر، يكون قد تحول، دون ريب، إلى نثر في اللغة الهدف. وبذا يجري في هذه الحالة تعريض القارئ، إذا جاز لنا القول، الى احتيال من نوع ما، مبني على أساس إيهامه بأنه يقرأ شعرا، في حين أنه لا يقرأ سوى ثيمة النص الشعري المصدر مكتوب نثرا في اللغة الهدف. وهنا سيتعرض النص المصدر

لخسارة، أكبرها، دون ريب، في فن نظم الشعر، وأقلها في المعنى.

1- **الافتراض الثاني**، وان كان ينطوي على تناقض منطقي صارخ، أو مفارقة لافتة، فمفاده "نعم بالإمكان ترجمة الشعر"، وفي الوقت نفسه، " . . . لا، ليس في الإمكان ترجمة الشعر!". غير أن المرء هنا قد يكون بمقدوره أن يعزز قوله "نعم" أو "لا!" بسبب تضادهما المتوازن. "نعم!"، بخاصة حين يروم المترجم بالأساس تحقيق بعض الشروط الفنية اللصيقة بفن الشعر، يسعى فيها لتزويد القارئ بانطباع أنه يقرأ شعرا منقولا من لغة غير لغته. يحصل هذا بخاصة حين يتمتع المترجم بمهارة تمكنه من استعمال أقصى قابلياته لخلق شعر مرسل باللغة الهدف، يتمتع بخاصية موسيقية محسوسة، تتوفر بتلاعب ماهر من لدن المترجم بعناصر اللغة. غير أن هذا الأمر قد لا ينجح، ما لم يكن المترجم نفسه ناظم شعر بلغته الأم، ويتمتع في الوقت نفسه بمكانة عالية في اللغتين، بحيث لا يترك حجرا من أحجار اللغة لا يقلبّه، من أجل خلق قصيدة من نوع ما باللغة الهدف. ومع ذلك، فإننا هنا حتى لو تغاضينا عن قول ت. س. إليوت "لا يوجد شعر حر أو مرسل، وإنما هناك شعر جيد و شعر رديء" فان القارئ هنا أيضا قد يتعرض لاحتيال من نوع ما، لأن المترجم سيترك القارئ يظن بأنه يقرأ شعرا مترجما، في حين أنه في الواقع يقرأ شعرا مرسلا مكتوبا بلغة غير لغة النص المصدر، ولكن ثيمته مبنية على ثيمة النص الأصل. و"لا!"، حين لا يتمتع المترجم بروح شاعر قادر على خلق تجانس في النص الهدف ليسوّغه شعرا مرسلا أو شيئا من هذا القبيل! وهنا ستكون الخسارة على الأغلب في كليهما؛ الشكل والمعنى، ولكنها، دون ريب، ستكون أكبر في المعنى، بخاصة حين لا يتمتع المترجم مثلما قلت بما يسمى "بالنفس الشعري".

1- **والافتراض الثالث** يقول " . . . . إنه لمن المستحيل إطلاقاً ترجمة الشعر نظما بنظم". وعبارة "نظم بنظم" هنا تعني في الغالب تحويل الكل (شكلا ومضمونا) من شعر موزون مقفى في اللغة المصدر إلى شعر موزون مقفى في اللغة الهدف. ومحاولة من هذا النوع، في الواقع، قد تشبه، إن جاز لنا التشبيه، النية في تحويل سيارة سباق أنيقة، وخفيفة، وجميلة، بصغرها ودقتها وانسيابيتها، الى سيارة شحن. ذلك، لأن المترجم في هذه الحالة عليه افتراضا نقل قصيدة موزونة مقفاة في اللغة المصدر، بصيغة قصيد منظوم في اللغة الهدف. ومع ذلك، لو توخينا الدقة في التعبير هنا لقلنا بأن التطابق، أو قل التماثل، أو التناظر، أو اية صفة من هذا النوع، لن تتحقق قطعا، لا في المضمون، ولا في الشكل، ولا في التلقي. ومن هنا، لن تكون للقصيدة المبتدعة بالقصيدة الأصل سوى علاقة واهية، لدرجة أنها لا تصلح أن تسمى لها ظلا! ذلك، ببساطة، لأننا مهما فعلنا لن نجد أي تطابق بينهما، لا فنا ولا دلالة، بسبب ما ذكرته سابقا من الاختلاف الصارخ بين خصوصيات أساسيات الشعر الانكليزي English poetry essentials' peculiarities وخصوصيات أساسيات الشعر العربي. وناهيك عن الاختلاف البيّن بين أبنية اللغتين أساسا، كونهما من أسرتين لغويتين مختلفتين، وناهيك أيضا عن الاختلافات

الثقافية وخصوصياتها، مما يقف عثرة في تحقيق أي تطابق في النظم الشعري بين اللغتين. فما بالك بالاختلافات الأخرى العديدة المذكورة في صدر كلامنا! ومن الممكن، واقعا، أن تكون الفجوة أكبر في إمكانية ترجمة من هذا النوع، إذا علمنا بان قسما من الاختلافات بين اللغتين موروثة في اللغتين، وقسما آخر منها يقع خارج اللغتين، ولكنه يفرض نفسه أثناء الترجمة.

ومن المحتمل أن تكون الخسارة هنا مؤثرة، شكلا ومضمونا. ذلك، لأن مما يرد إلى ذهن المرء فورا، هو أن لحظة خلق القصيدة الأصل لن تتكرر على الإطلاق في داخل وعي المترجم مهما كان بارعا في التقمص الترجمي، لأن التاريخ و الزمن لن يكررا نفسيهما! وبذا، قد لا يرتقي نتاج المترجم سوى الى تكرار كاريكاتيري، يصدق عليه قول ماركس معقبا على هيغل قوله أن التاريخ يكرر نفسه: " . . . صحيح أن التاريخ يكرر نفسه، غير أن هيغل نسي أن يضيف بأنه في المرة الأولى يكون دراماتيكيا وفي الثانية يكون كاريكاتيريا!".

وهذا باختصار يعني أن القصيدة المترجمة هنا ستكون مختلفة عن القصيدة المصدر على جميع المستويات؛ سايكولوجيا، و ثقافيا، و بنيويا، و جماليا، و أسلوبيا، الخ من صفات ذات علاقة. و من المفارقة هنا هو أن القارئ، في مثل هذه الحالة، لا يتعرض للاحتيال من ناحية إيهامه بأنه يقرأ قصيدة، لأنه، في الواقع وفعلا، يقرأ قصيدة، غير أنه يتعرض لاحتيال من مورد آخر، و هو أنه يقرأ قصيدة في اللغة الهدف، تحمل اسم شاعر من اللغة المصدر، لا علاقة له بنص القصيدة المبتدعة باللغة الهدف. و لكن عزاءنا هنا قد يكون في إمكانية استنهاض قدرتنا على تلمس ظلال صور القصيدة المصدر في القصيدة الهدف، وهي تعكس للقارئ لونا باهتا من الثيمة الأصلية.

قد يسأل امرؤ هنا معقبا: لم هذا الإصرار، يا ترى، من كاتب هذه السطور على ترجمة الشعر؟

والجواب هنا له بعدان: عام وخاص.

– **العام**: هو أننا بحاجة لترجمة الشعر لضرورات ثقافية، ما دام الشعر يشكل جانبا مهما من جوانب اللغة التي ندرسها، لأنه جزء من الأدب، والأدب يشكل مصدرا مهما من مصادر التغذية الراجعة للغة؛

– **والخاص**: هو أن ترجمة الشعر، عند كاتب هذه السطور حصرا، (و ربما عند كل المترجمين الواعين!) هي نوع من أنواع التسلية، التي لا تخلو من غاية عقلية إدراكية. وطالما كان الشعر في بنيته السطحية و العميقة، على حد سواء، هو نوع من رسالة مشفّرة coded message غير مباشرة لمشاعر المتحدث speaker في القصيدة، فليس ثمة شيء أشد إغراء عند دارس لغة، إذا كان مترجما محترفا، من فك شفرات decode الأفكار من لغة ما وتحويلها trans-code بعملية عقلية إدراكية بالغة التعقيد، وربما غير محسوسة حتى في مجرى تفكير المترجم، إلى فكرة عامة notion محايدة قبل أن يعيد تشكيلها بشفرات encode لغة أخرى. والشعر، حسبما يظن فنيا، هو أكثر نتاجات اللغة الأدبية تشفيرا على الإطلاق. وأجدني هنا أذكر مثال ادوارد فتزجيرالد Edward Fitzgerald، مترجم رباعيات الخيام من الفارسية الى الانكليزية في القرن التاسع

عشـر مثـالا. اذ لم يلتفت، لا الجمهـور الانكليـزي آنذاك، بل ولا حتى النقـاد عموما، الى موضوع مدى التماثل، أو التطابق، أو التشابه بين الرباعيات بنصها الانكليزي ونصها الفارسي، قدر احتفائهم جميعا، نقادا و قراء، بما خلقته قدرة فتزجيرالد الخلاّقة من شعر مكتوب بالانكليزية مستوحى من مناخ الرباعيات و جوها الروحي الآسر.

وبما أن القارئ كان قد اطلع، من خلال السطور السابقة، على بعض مشاكل ترجمة الشعر، لا كلها، و لأن الموضوع هنا كثير التشعب أصلا، سيجد القارئ في أدناه مقاربة لجانب مهم من جوانب ترجمة الشعر والأدب عموما، وهو ما يسميه كاتب هذه السطور بـ"الخاصيّات الثقافية" ترجمة عربية لمصطلح culture specifics الانكليزي!

وسيجري هنا، وضع قصيدة إبراهيم الخياط "صباح الخير . . . بعقوبة" (و كان كاتب هذه السطور قد وضع قراءة سيميائية للقصيدة، عند نشرها في جريدة "طريق الشعب" عام 2008، رافقت نشرها بسبب تشبعها بخاصيّات ثقافية شديدة المحلية) في ميزان التطبيق الترجمي مرتهنة للخاصيّات الثقافية، تقوم به المترجمة غيداء الفيصل، لتوضيح مفهوم الخاصيّات الثقافية المذكورة آنفا. ومحاولة تبيان مدى تأثير تلك الخاصيّات الثقافية في استمتاع المتلقي بالقراءة الجمالية والمعرفية للقصيدة. وبالأحرى، محاولة معرفة مدى ما يمنى به النص الشعري، من خسارة دلالية وضياع جمالي، عند تلقيه من لدن قارئ يقرأه بلغة غير اللغة التي كتب بها النص الشعري. هذا، إذا أخذنا بنظر الاعتبار بأن الشعر، وبسبب خصائصه الصوتية والبنيوية والبلاغية والحسية الشديدة التعقيد والمتلازمة مع بعضها، يتطلب استجابة فورية، لا تحتمل التأجيل، إن لم تتوفر لدى المتلقي فور قراءته أو سماعه للقصيدة، لا تكون هذه قد حققت غايتها الجمالية والمعرفية والحسية في التأثير!

الخاصيّات الثقافية

غيداء الفيصل

غيداء الفيصل تحمل شهادة الماجستير في اللغة الانكليزية وشهادة الدبلوم العال في الترجمة اللتين حصلت عليهما من كلية اللغات في جامعة بغداد، وكانت قد حصلت على بكالوريوس الأدب الانكليزي في كلية الآداب جامعة بغداد العام 1992**. تعمل حاليا تدريسية في كلية اللغات في جامعة زاخو وكانت قبلها تدريسية في كلية اللغات جامعة بغداد. كما عملت مترجمة ومحررة في مجلتي الأقلام والموقف الثقافي، ونشرت العديد من المقالات والدراسات المترجمة والموضوعة في معظم المجلات والجرائد العراقية والبعض من العربية. السيدة الفيصل عضو جمعية المترجمين العراقيين وعضو اتحاد الأدباء العراقيين. كما ترجمت غيداء الفيصل كتاب "مدخل إلى تحليل الخطاب" وكان مشروعها في البحث الذي تقدمت به لنيل شهادة الدبلوم العال وحصلت فيه على درجة الامتياز كما أوصت اللجنة بنشره.**

يظن عادة أن الخاصيّات الثقافية، وعدم معرفة قارئ الشعر المترجم بالتضمينات الثقافية للقصيدة، أو قلة معلوماته عنها، قد تشكل عقبة جدية في طريق التلقي الانسيابي والسلس والمرن للقصيدة، ومما يكون بالتالي عاملا سلبيا يؤثر في المتلقي في محاولته الاندماج بالجو الذي تصوره القصيدة. ولإعطاء مثال واضح عن المقصود بـ"الخاصيّة الثقافية "culture specific، لنأخذ مثلا البيت الآتي من الشاعر الجاهلي:

ومن يصنع المعروف في غير أهله
يلاقي الذي لاقى مجير أمّ عامر

فتعبير "أمّ عامر" الوارد في القصيدة هو عند عرب الجاهلية كنية للضبع. ولنفترض أن هذا البيت قد ترجم الى الانكليزية على النحو الآتي:

That who do a favor to those
who deserves it not;
He may be returned back as that
that made a kind act to Um
'Aamir.

فمن أين للقارئ الانكليزي أن يعرف بأن تعبير " "Um 'Aamir هو كنية للضبع، استعملت في هذا البيت لتشير الى حكاية لها دلالة أخلاقية حدثت في وقت ما بين أعرابي وضبع جريح جائع، ما لم يحاول المترجم، إتماما لفائدة القراءة، أن يحل هذه العقبة التي تعيق السلاسة الدلالية. و"أم عامر" هنا هي، دون ريب، خاصيّة ثقافية في ألأدب الكلاسيكي العربي. فهل على المترجم هنا أن يؤنكلز anglicize الكلمة (على منهج النقل الصوتي (transliteration، مثلما فعلت أنا في السياق (1)، أم عليه أن يترجم translate العبارة باستبدال الكنية إلى الاسم الصريح للضبع ("hy ena ضبع" بدل " Um'Amir أم عامر")، ويضع في الحالتين هامشا يفسر فيه حكاية الإعرابي مع الضبع؟

أو لنأخذ مثلا آخر هنا هو بيتي الجواهري الآتيين من قصيدته المعروفة "مفاتيح المستقبل":

سلام على جاعلين الحتوف
جسراً إلى الموكب العابر
. . . . . .
سلام على حسن هذا المصير
سلام على البطل الصائر

ها هنا، ثمة ما يجعل الوضع أعقد بكثير، إذ أن تعبيري "جاعلين الحتوف" و"البطل الصائر" هما في الأصل استعارتان عن أشخاص وطنيين معينين أعدموا في العهد الملكي بسبب وطنيتهم . . . ولنفترض بأن البيتين ترجما إلى الانكليزية على النحو الآتي:

Peace be on those who make
out of their death,
A bridge for the traversing
parade.
. . . . . .
Peace be on that admired fate,
Peace be on that that is hailed as
a hero-to-be.

قد يتساءل القارئ الانكليزي عمن يكون هؤلاء، على الرغم من أن عبقرية الجواهري هنا كانت، بعدم التصريح بأسماء الوطنيين الذين جعلوا من حتوفهم جسرا و صاروا أبطالاً، قد نجحت بالخروج بالفكرة من فضاء "الخاص" إلى رحاب "العام"؟ ومن أين للقارئ الانكليزي أن يعرف خاصيّة ثقافية بالغة التعقيد والتركيب من قبيل:

"جاعلين الحتوف those who make
out of their death/ a bridge . . . "

و"البطل الصائر that that is hailed as
a hero-to-be . . ."،

ما لم يقم المترجم، إن أراد أن يحافظ على اندفاع المشاعر الموجود في القصيدة ودراماتيكيتها، بإعطاء هوامش يبيّن فيها التواريخ والأحداث ويعرّف فيها بالأشخاص؟!

والأمثلة في هذا السياق قد ترد في الشعر بالمئات، بل قل بالآلاف!

أو لنأخذ مثلا، من الشعر الانكليزي، لازمة قصيدة ت. س. إليوت في قصيدته المعروفة

"أغنية حب الى جي. الفرد بروفروك The Love Song of J. Alfred Prufrock":

In the room the women come and go,
Talking of Michelangelo.

النساء رائحات غاديات في الغرفة
يتحدثن عن مايكلانجلو.

قارئ القصيدة الانكليزي هنا، وبسبب إحاطته بدور مايكلانجلو الفني والتنويري، ما أن تقع عيناه على مفردة "مايكلانجلو Michelangelo" حتى يبدأ ما موجود من تلميح في ثنايا المفردة يتفاعل عنده تلقائيا، على مستوى الإدراك والثقافة، وهو ما يمكنه من الاستمتاع بقراءة القصيدة فورا ودون عوائق!

ولكني أزعم هنا أنه حتى لو كان قارئ ترجمة هذه القصيدة إلى العربية يعرف مسبقا ما لمفردة "مايكلانجلو" من دلالات، فقد يسأل . . . لماذا مايكلانجلو، وليس رفائيل، أو ديلاكروا؟ . . . يحصل هذا، بسبب الإسقاطات التي يحدثها استعمال إليوت للمفردة في لازمة القصيدة! وها هنا تكمن، دون ريب، الخاصيّة الثقافية! وأزعم هنا أيضا أن عدم الإحاطة الفنية والحسية، من لدن قارئ النص بغير لغته الأصلية، لما يرتبط بمفردة "مايكلانجلو" من مضامين في الوعي الغربي، لا بد من أن يؤثر سلبا من الناحية الدلالية، وبالنتيجة في حيوية النص المترجم، بسبب قصور في معرفة القارئ بسيميائية القصيدة. ذلك، لأن فن مايكلانجلو، رساما ونحاتا ومعماريا وشاعرا، يعد بحد ذاته سيمياء إنسانية في الفن الغربي، ما يجعل من شخصيته وفنه خاصيّتين ثقافيتين بالغتي العمق والأهمية في الثقافة الغربية عموما. فما العمل؟ وماذا على مترجم القصيدة أن يفعل، لكي ييسر لمتلقي القصيدة مترجمة قراءة تستبقي أكبر قدر ممكن من الدلالات السيميائية، وبأقل قدر ممكن من الخسارة الدلالية والفنية؟ أيكتب، مثلا، هوامش تبين دور مايكلانجلو في الفن الغربي، ما يسهل توضيح الصورة الموجودة في لازمة إليوت، في بنيتيها العميقة والسطحية على حد سواء، بخاصة إذا أدرك المترجم بأن إليوت معروف عنه انحيازه المطلق تقريبا لما عرف اصطلاحا بـ"الصورية imagism" في الشعر الحديث، و ما يحدثه هذا النهج من إسقاطات في شعره؟

أو لنأخذ، مثلا، البيتين الآتيين من قصيدة الكسندر بوب Alexander Pope المشهورة "مقالة في النقد An Essay on Criticism"، إذ يقول:

A little learning is a dangerous thing;
Drink deep or taste not the Pierian spring.

نتفة من علم هي شيء خطير
ارتوِ ان شربت، و الاّ، فلا تشرب من النبع البيري.

فـ"النبع البيري Pierian spring" ها هنا هو خاصيّة ثقافية، ومن أين للمتلقي العربي أن يعرف بأن "النبع البيري" هو استعارة رمزية لـ"نبع المعرفة" عند الإغريق الغابرين، فورّثوه خاصيّة ثقافية للغربيين عموما، ليكون عندهم رمزا مصدرا للحكمة والمعرفة! فما العمل؟ أعلى المترجم هنا، لكي يبقي على حيوية النصيحة المعرفية التي يسوقها بوب

للقارئ هنا، أن يعرّب "Pierian spring" إلى "النبع البيري" (على منهج النقل الصوتي) مثلما فعلت أنا تواً في السياق أعلاه، أم يترجم "Pierian spring"، متجاوزا النقل الصوتي، فيستعمل في سياق الترجمة عبارة "نبع الحكمة" بدل عبارة "النبع البيري"؟ ومع ذلك، فهو أن اختار هذه أو تلك، سيكون ميالا بالتالي لإلحاق هامش يفسّر فيه هذه الخاصيّة الثقافية!

الآن وقد بات واضحا ما نعنيه بـ"الخاصيّة الثقافية"، و صار معروفا بأن جهل القارئ بالخاصيّات الثقافية الواردة في النص المترجم قد يكون عائقا في طريق الاستمتاع استمتاعا كاملا بقراءة النص الشعري المترجم. نقول هذا، حين لا تقوم الخاصيّات الثقافية سوى بدور محيطي في ثيمة القصيدة، أقصد في موضعين أو ثلاث، لا أكثر، بحيث لا تعيق انسياب التلقي الاّ قليلا! فما بالك في حالة تشكّل فيها الخاصيّات الثقافية الجزء الأعظم من القصيدة، بل لبّها، وتكاد تغطيها بين البيت والبيت الآخر، مثلما هو حاصل في قصيدة إبراهيم الخياط "صباح الخير . . . بعقوبة"، وهي قصيدة قد لا يقدر شاعر له مكنة إبراهيم الخياط الشاعر، وبعقوبي بامتياز، على تغذيتها بهذا الكم الهائل من الخاصيّات الثقافية، ويخلق منها، في الوقت نفسه، تلك الحيوية الشعرية الجمالية المدهشة! بخاصة حين يكتشف المترجم أن بنية القصيدة تتقاسمها، في كفتي ميزان: تكرار لعبارة "صباح الخير" والخاصيّات الثقافية.

لنقرأ أولا القصيدة وترجمتها:

Translated by
Ahmed Khalis Al-Sha'lan

Good Morning, Baqubah
Ibraheem Al-Khayaat

Good morning to Al-Shakhah
(2) صباح الخير على الشاخة
to the Morning
على الصبح
to the people, who are loved tenderly
على الأحبة
to Al-Atibah Street
على شارع الأطبة (3)
to the crowded places, in the Dawn,
على المساطر المكتظة
with laborers, and booby-traps
بالفجر والعمال والعبوات
to Al-Anafsah Quarter,(4) the caretaker
على العنافصة الناطرة
to Al-Mulayah, Ma'ydah(5)
على الملاّية مائدة
to Mahi,(6) the coachman
على ماهي
على المقاهي(7)
to The Cafés
to the Bazaar, blessed by Mashallah!
على السوق ما شاء اللّه
to the Minaret, attesting
على المنارة الشاهدة (8)
to the Minaret, martyred
على المنارة الشهيدة

to our secrets, asleep

على أسرارنا النائمة

to the Stairway of Abu Nadhum , awake

على مرقى أبو ناظم

to the neighbors

على الجيران

to The Native Pillar(9), well-known in the town

على العميد البلدي

to Al-Saraiy, formidable

على السراي العظيم (10)

to the Mansion of Al-Saieed Abdul-Kareem's(11)

على دارة السيد عبد الكريم

to Almahrogh, who has never left us,(12)

على المحروك الذي لا يرحل

but never stayed

ولا يقيم

to Al-Shareef Shrine(13) hiding mysteries

على الشريف وما طوى

to Paradise and Hell

على الجنة والجحيم

to the Prison(14) and Dove (15)

على السجن والحمامة

to the Mayor(16) and his story with Fawziyah(17)

على المحافظ و "فوزية"

to the Martyrs, and the people, butchered

على الشهداء و القتلى

to the Train-station(18), and the expelled(19)

على المحطة والمسفّرين

to the Seven O'clock Train (20)

على قطار الساعة السابعة

to Al-Safeenah(21), crowded and swaying

على السفينة الموّارة

to nycterinias(22)

على الشبوي

to the Lantern of Muai'yad Sami(23),

على مشكاة مؤيد سامي

to Yaseen Al-Daqeeqah(24) of acute things, truth, and visions

to على ياسين الدقيقة والحقيقة و الرؤى you, Um Al-nuaa(25),

عليك يا "أم النوة"

to Jurf Almilih(26), and Jurf Alhiloo, (27)

على جرف الملح وجرف الحلو

and Jurf Alhawa

وجرف الهوى

to the sunshine's suspense,

على القلق الشمسي

of Hassan(28), the photographer

عند الفوتو "حسن"

to the Daughters of Al-Hassan's

على بنات الحسن

to the lassies

على البنات

to Shiftah(29), its eyes,

على شفتة العيون

dreamt of by the lenses. . . .

تحلم بها العدسات

to the moons hidden in abas

على الأقمار المخبوءة في العباءات
to the cultivated palms and jujubes,
على النخل المثقف والنبق
and oranges. . . .
والبرتقال
to the bridge of those distanced from us.
على قنطرة الغائبين
to the dreamy people
على الحالمين
to us
علينا
to the Corniche, (30) coming back to us
على الكورنيش الذي عاد إلينا
to the Party's Center(31), exalted
على "المقر" العالي
to the nights
على الليالي
to the virgin exquisite wine
على الرحيق المختوم
and, to the beautiful teacher,
وعلى المعلم الجميل خليل
Khaleel.(32)
Good morning . . . good morning . . .
صباح الخير . . . صباح الخير

* * * * *

هذه قصيدة لا تكتظ بالخاصيّات الثقافية فحسب، وإنما أنها ولشدة اكتظاظها بما هو محلي شديد الخصوصية، إنها لو نزعت منها كل تلك العبارات المطبوعة بالحبر الغامق، لن يتبقى، في الواقع، من القصيدة شيء سوى تعبير "صباح الخير"، الغائب كتابة والحاضر وعيا، زائدا الصفات اللغوية المستعملة ومعها أدوات الربط! أي أن ما يتبقى من القصيدة المظنونة، في الواقع، لا يساوي شيئا بحيث نسميه، من الناحية التقنية، قصيدة!

فكيف، يا ترى، على المترجم أن يتعامل مع قصيدة مترعة بالخاصيّات الثقافية تحملها عبارات من قبيل:

الشاخة
Al-Shakhah،
شارع الأطبة
Al-Atibah Street،
العنافصة
Al-Anafsah Quarter،
الملاّية مائدة
Al-Mulayah Ma'ydah،
ماهي
Mahi،
المقاهي
The Cafés
السوق ما شاء اللّه
Bazaar, blessed by Mashallah،
المنارة الشاهد
Minaret.(33), attesting،
المنارة الشهيدة
Minaret, martyred،
مرقى أبو ناظم
Stairway of Abu Nadhum،
العميد البلدي
The Native Pillar
السراي العظيم
Al-Saraiy, .(34) formidable،

دارة السيد عبد الكريم
Mansion of Al-Saiyid Abdul-Kareem's،
المحروك
Almahrogh،
الشريف
Al-Shareef Shrine،
الجنة والجحيم
Paradise and Hell،
السجن والحمام
Prison.(35) and Dove،
المحافظ و"فوزية "
Mayor.(36)and his story with Fawziyah،
الشهداء والقتلى
Martyrs, and the people butchered،
المحطة والمسفّرين
the Train-station.(37), and the expelled،
قطار الساعة السابعة
Seven O'clock Train(38).،
السفينة الموّارة
Al-Safeenah،
مشكاة مؤيد سامي
Lantern of Muai'yad Sami،
ياسين الدقيقة
Yaseen Al-Daqeeqah،
أم النوى
Um Al-nuaa،
جرف الملح وجرف الحلو
Jurf Almilih.(39), and Jurf Alhiloo،
جرف الهوى
Jurf Alhawa،
الفوتو "حسن"
Hassan.(40), the photographer،
بنات الحسن
Daughters of Al-Hassan's،
شفتة
Shiftah،
الأقمار المخبوءة في العباءات
moons hidden in abas،
النخل المثقف والنبق والبرتقال
and oranges cultivated palms and jujubes،
قنطرة الغائبين
bridge of those distanced from us،
الكورنيش
the Corniche،
المقر
Party's Center،
المعلم الجميل
the beautiful teacher،
خليل
Khaleel،

(وكلها خاصيّات ثقافية مرتبطة حصرا بمدينة بعقوبة وبشخصياتها وأماكنها وتواريخها الكارزمية)؟

ثمة، في الواقع، في حقل الترجمة ستراتيجية يلجأ إليها المترجم، ليعالج الوضع، كي يمكّن المتلقي في اللغة الهدف من تجاوز العائق القرائي الذي توجده الخاصيّات الثقافية، بأن يقوم المترجم بالنقل الصوتي (transliteration التعريب، الأنگلزة، الخ) للأسماء العلم ويعضده بهوامش يبيّن فيها المعلومات المطلوبة، مثلما جرى التعامل هنا مع ترجمة قصيدة إبراهيم الخياط إلى الانكليزية، إذ أن العبارات المطبوعة بالحبر

الغامق، عدا بعضها، مثل العميد البلدي، والأقمار المخبوءة في العباءات، التي تعد استعارات شعرية، فجميعها تقريبا أسماء علم وأسماء عامة، وأغلبها ليست تسميات عابرة، وإنما تسميات اكتسبت وجودها الدلالي من استعمالات استعارية تاريخية واجتماعية وسياسية ورمزية عفوية، بل ومنها ما تتشعب رمزيته واستعماله الدلالي، لدرجة أننا لو غصنا في ثناياه لوجدنا فيه مضامين سايكولوجية تغور في الوعي الجمعي لأهالي مدينة بعقوبة!

والسؤال الأهم هنا هو: هل يمكن أن تمضي التجربة القرائية قدما دون عوائق وبتوافق حسي- إدراكي، إذا ما ركنا إلى حقيقة أن الشعر هو بالأساس فن سماعي أكثر منه مقروءا؟ فالمرء، في الواقع، لا يستطيع أن يتصور شاعرا يلقي قصيدة، ويتوقف بين الفينة والفينة، ليوضح الخاصيّات الثقافية الواردة في قراءتها! ومثلها قد لا يستساغ في تجربة قراءة الشعر، بلغته الأصلية أو بلغة أخرى، الركون إلى وقفات من هذا النوع يذهب بها القارئ إلى مصدر يميّز فيه المضمون، فتضيع عليه ربما متعة القراءة!

وأظن أنه من هنا، جاء الرأي القائل بأن كثرة الهوامش في النص الإبداعي تلحق حيفا في سلاسة التلقي، فما بالك بتلقي نص شعري، كتب بلغة أخرى غير التي نظم فيها بالأصل، ومتخم بالهوامش، بخاصة إذا كان نصا شعريا من طراز قصيدة "صباح الخير . . . بعقوبة"؟

قد يصادف أن يحجم الشاعر أكثر من مرة عن ترجمة بعض القصائد، على الرغم من رغبته العارمة في ترجمتها. يحصل هذا حين يكون المترجم واعيا، لا يهمه إسقاط فرض الترجمة قدر عنايته بنقل تجربة جمالية يخشى عليه من الضياع عند ترجمتها من لغة إلى أخرى. لذا، ولكي ينأي بنفسه بعيدا عن خدش جمال القصيدة وحيويتها، نراه يحجم أحيانا عن نقلها إلى لغة أخرى! وبغض النظر عن الحاجة الثقافية، فثمة من الشعر ما يعد، عند المترجم الواعي، المحب للجمال، عصيّا على الترجمة، لا بسبب صعوبة ترجمته، وإنما بسبب الخصوصيّة الشديدة للقصيدة وامتناعها الإبداعي، ما يجعلها لا تستسلم إطلاقاً للترجمة باليسر الذي يتوهمه المترجم!

ولا أجانب الصواب هنا إن قلت عن قصيدة الشعر أن كأسها ما لم يجر " . . . . عللٌ شربه"، وعذرا للبحتري، فان قراءتها مترجمة ستفسد عند الانقطاعات المتكررة الحاصلة بين الحين والحين، حين يروح القارئ ليستشير هامشا هنا أو هامشا هناك! فما بالك بقصيدة، مثل قصيدة إبراهيم الخياط، التي لا يقيّض شرب "كأسها . . .عللٌ"، حتى للقارئ العربي في نصها العربي، ما لم يكن هذا القارئ عراقيا وبعقوبيا حتى النخاع، عارفا بجل السيمياء الموجود في ثنايا الأبيات، والكلمات!

ومتذكرين هنا قول كولن ولسن من أن " . . . المتعة التي يخلفها الفن لمحبيه لا تختلف كثيرا عن المتعة التي تخلفها ممارسة الجنس حين تترك الإنسان بعدها خليا وراضيا، فمن لنا، يا ترى، بقارئ يقرأ "صباح الخير . . . بعقوبة" مترجمة الى الانكليزية ويخطف منها ذروة نشوة قراءتها مثلما يفعل القارئ البعقوبي بامتياز!

وطوبى أيضا لموريس توريز الذي قال مرة: "المزيد من المحلية هو الذي يطلع بنا إلى الأممية"!

الهوامش:

1- "الإنكلزة" Anglicization و"التعريب"، وغيرهما من عمليات تخص لغات أخرى تستعمل في الترجمة لتعني "النقل الصوتي" transliteration للأسماء العلم أو الأسماء العامة أو الرمزية مثلما هي في لفظها من اللغة المصدر source language الى اللغة الهدف target language، مثلما فعلنا هنا مع تعبير "أم عامر Um 'Aamir"

2- الشاخة" هي التسمية الشعبية لنهير خريسان الذي يخترق بعقوبة من شمالها الى جنوبها

3- شارع الأطباء في بعقوبة الذي كان، منذ خمسينيات وحتى ثمانينيات القرن العشرين، يتحول يوميا عصرا إلى مهرجان جميل للتسوق والتبضع والى فرجة بشرية تسر العين.

4- "العنافصة" هي منطقة شعبية، فيها سوق شعبي، تتواجد فيه أشهر وأجمل بائعات القيمر، "أم عباس" و"أم علي"، و"أم جبارة" وغيرهن . . . . وهو أول مكان في بعقوبة تلقى قذيفة هاون من الإرهاب، راح ضحيتها عدد من أبناء المدينة

5- "الملاية مائدة" مشهورة جدا في بعقوبة في أدائها المتميز في المآتم حزنا، وفي الأفراح طربا، على حد سواء، ولا تختلف عن "صديقة الملاية" ذائعة الصيت بشيء سوى أن الأخيرة عملت على الوصول إلى الإذاعة، ونجحت.

6- "ماهي" هو واحد من أشهر حوذيي (عربناجيي) بعقوبة، إبان الخمسينيات من القرن العشرين كان ماهي، وبسبب غياب وسائل الدعاية آنذاك، يقوم بالطواف في عربانته في طرقات المدينة ببوستر إعلاني كبير للدعاية للفيلم الذي كانت دار سينما ديالى تقوم بعرضه في بعقوبة.

7- المقاهي الشعبية أو "الجايخانات".

8- "المنارة" والمقصود بها هنا منارة حسينية بعقوبة تحديدا.

9- "أبو ناظم" أشهر صاحب بار في بعقوبة. وكان معروفا عنه ثقافته الواسعة و وعيه السياسي، واستعمال مفردة (stairway واستعملت هنا مقابل لـ "مرقى" الواردة في النص العربي) في سياق هذا البيت هو لـ "المفارقة" (وهي أحد المجازات الشعرية)، إذ كان الداخل الى بار أبو ناظم يضطر الى النزول أربع درجات تحت مستوى الشارع، والمفارقة هنا تكمن أن مرتادي البار، وأغلبهم من الشعراء والأدباء، وان كانوا ينزلون إلى البار فيزياويا، إلا أنهم يرتقون روحيا (ومن هنا جاءت مفردة "مرقى") بعد أن ينتشوا وتتفجر إبداعاتهم!

10- المقصود بـ "العميد البلدي"، شخصية اعتبارية يحترمها الناس ويستشيرونها. والمقصود هنا تحديدا هو الحاج صادق الكرادي، أحد أهم محسني بعقوبة وأعيانها.

11- "السراي" وهو بناية حكومة محافظة ديالى إبان أربعينيات و خمسينيات القرن العشرين، وهو موجود حاليا في محلة شعبية تسمى باسمه، و كانت في القديم تشكل نصف مدينة بعقوبة تقريبا. و بناية "السراي" يشغل قسما منها حاليا مقر اتحاد الأدباء في ديالى، ومعه عدد من منظمات المجتمع المدني.

12- المقصود هنا هو السيد عبد الكريم المدني، الشخصية الدينية والاجتماعية الفذة، المعروف عنه أنه ترفع بدينه ولم يدنسه بتحزبات السياسة والطوائف، وكان بيته دائما ملاذا لمن يطلب نصيحة واستشارة.

13- "المحروك" المقصود به علي هادي المحروك، وهو قيادي في الحزب الشيوعي في بعقوبة وكان أحد مضطهدي صدام.

14- المقصود هنا هو مرقد "الشريف الرضي"، الكائن حاليا في بعقوبة الجديدة، ويؤمه الزوار في الربيع، لزيارة موتاهم المدفونين في مقبرته.

15- الإشارة هنا الى سجن بعقوبة المركزي الذي كان إبان العهد الملكي معتقلا كبيرا للسياسيين من جميع الاتجاهات. وكان أهل بعقوبة يسمعون منه صباحا صوت المساجين يغنون أناشيد الحرية.

16- المقصود هنا "الحمامة البيضاء" التي كانت وما زالت تستعمل، في الأدب السياسي والمدني، رمزا للسلام والمحبة بين الناس.

17- المقصود هنا هو محافظ ديالى في سبعينيات القرن العشرين وحكايته مع "فوزية" المذكورة في الهامش اللاحق.

18- المقصود هنا هي "فوزية أم الدجاج"، المرأة الكادحة، التي راحت تشتكي للمحافظ في موضوع معين، فنهرها. وما كان منها إلا أن تعفط للمحافظ!

19- المقصود هنا محطة قطار بعقوبة أيام زمان، وكان الناس يركبون منها الى المنطقة الشمالية في قطارين صاعدين يأتي أحدهما في الساعة السابعة صباحا والآخر يأتي في الساعة الرابعة مساء، ويركبون الى بغداد، وبخاصة زوار الحضرتين الكاظمية والكيلانية، في قطارين يسميان نازلين يأتي أحدهما في الساعة الرابعة صباحا والآخر في الساعة السابعة مساء (وهو الزمن المشار إليه في البيت اللاحق من القصيدة).

20- المقصود هنا هم الناس المنفيون لأسباب سياسية.

21- إشارة الى فيلم "قطار الساعة سبعة" الذي صورت أغلب مشاهده في محطة قطار بعقوبة والباقي من مشاهده في مدينة بعقوبة و ناحية بهرز. واشترك في تمثيله نخبة من فناني بعقوبة.

22- "السفينة" هنا فيها إشارة مزدوجة إلى مكانين في بعقوبة: أولهما هو "مقهى السفينة" وهو مقهى مشهور في أربعينيات وخمسينيات وستينيات القرن العشرين، وكانت بنايتها على شكل سفينة، مقدمتها إلى الشمال، وينساب على جانبيها شارعان،

أحدهما يوازي نهير خريسان المظلل بالشجر، والآخر ينساب باتجاه سوق بعقوبة القديم، ومقهى الشبيبة وحمام إبراهيم جوير الشهير الوحيد في بعقوبة، وكان فيه أيضا منزل أسرة الشاعر الشهيد خليل المعاضيدي، المذكور في آخر القصيدة. والثاني بيت يسمى "سفينة نوح" وهو بيت مؤجر – محلا تجاريا – من لدن شخصية في بعقوبة هو نوح كاظم. و كان نوح قد خصص ثلاث غرف من هذا البيت ليلتقي فيها دون مقابل شاربو الخمرة والقاصفون، حين منع النظام الدكتاتوري محال بيع الخمور في سياق حملته الإيمانية المزعومة وتولى تنفيذها آنذاك خير اللّه طلفاح خال الديكتاتور!

23– هو زهر شجيرة الزينة المعروفة عند العراقيين بالشبوي الليلي.

24– المقصود هنا هو الشهيد "مؤيد سامي"، الشاب الكيس والدمث الذي اختار أن يكون كتبيا في زمن تدهور فيه العقل العراقي، وراح في زمن الدكتاتورية يخاطر بحياته للحصول على الكتب الممنوعة التي تفضح الدكتاتورية، ويستنسخها ويوزعها على أصدقائه. وحين اختير عضوا في مجلس المحافظة عام 2005، اغتيل بعد أسبوعين من قبل قوى ظلام الإسلام السياسي. مفردة "مشكاة" lantern الواردة في القصيدة هي مجاز عن مكتبته ومهنته كتبيا.

25– "ياسين الدقيقة" هو أحد مثقفي بعقوبة البسطاء. ولقب "الدقيقة" الذي أشتهر به في بعقوبة جاءه من عمله في "الشركة العامة للأجهزة الدقيقة". واللقب "الدقيقة" يستعمل هنا للمفارقة كأداة شعرية. أضطر ياسين الدقيقة إلى العمل اسكافيا بعد انهيار راتبه موظفا في زمن الحصار الدولي والصدامي على العراق. وكان من شدة بساطته أنه ما كان يظن أنه بكتاباته البسيطة التنويرية قد يكون خطرا على الإرهاب، فاغتيل من قبل الإرهاب وهو يتمشى على "كورنيش" "الشاخة" العلامتين السيميائيتين المذكورتين في القصيدة.

26– "أم النوه" هي واحدة من أقدم محلات بعقوبة، كان يسكنها الريفيون والفقراء والجنود ومن انتظم في سلك الشرطة.

27–"جرف الملح" هي منطقة مجاورة لمحلة "أم النوه"، صارت مأوى للإرهابيين ووكرا لنشاطات القاعدة.

28– "جرف الحلو" هنا نجد تلاعبا بالألفاظ لخلق نقائض لـ "جرف الملح". وكذا هو الحال مع "جرف الهوى" المذكورة في البيت الذي يأتي.

29– "حسن" هو واحد من أشهر مصوري بعقوبة الفوتوغرافيين الشمسيين، الذي كان علامة بارزة في سوق بعقوبة، بميزتين هما: كاميرته الشمسية ذات الصندوق الخشبي، وشخصيته النهلستية المدهشة.

30– "شفتة" هي الآن حي من أحياء المدينة. تقع على نهر ديالى إلى الجنوب من بعقوبة، وكانت قبل أكثر من نصف قرن قرية مجرد قرية من الأطراف. وأبناؤها معروفون بزرق عيونهم وشقر شعورهم. وتميزوا في سنوات الإرهاب العصيبة بتصرفهم ونهجهم العقلانيين. فهم على الرغم من كونهم شيعة المذهب، لم يسمحوا لأي مجموعة طائفية، سواء من ممن على مذهبهم أو على مذاهب أخرى، أن تتخذ لها مقرا في منطقتهم. وبذا أدى بهم هذا الانتصار على الذات إلى أن يترفعوا بأنفسهم فوق مهاترات الطوائف. ومع ذلك، لم يسلم أهلوها من أذى الإرهاب، حين راح عدد من أهلها ضحية عمل إرهابي، بتفجير استهدف مسجدها يوم جمعة.

31– "الكورنيش" المقصود به الشارعين الموجودين على ضفتي نهير خريسان "الشاخة" منذ دخوله شمالا، عند قنطرة خليل باشا، و حتى مغادرته المدينة جنوبا، عند محطة القطار القديمة، وهما الشارعان اللذان يتفسح بهما أبناء بعقوبة عادة، ولكنهما اشتهرا بفسحات ووقفات جماعات الأدباء والشعراء والمثقفين البعقوبيين فيهما.

32– المقصود هنا مقر الحزب الشيوعي في بعقوبة، أواسط سبعينيات القرن العشرين.

33– المقصود هنا الشاعر الشهيد خليل المعاضيدي، كان مدرسا للغة الانكليزية، اختطفته قوى أمن الدكتاتورية من الشارع بعد انفراط ما سمي بالجبهة الوطنية والتقديمة، ولم يعد لأهله. وكان شابا وسيما ودمثا وكيسا وحلو الشمائل.

34– "المنارة" والمقصود بها هنا منارة حسينية بعقوبة تحديدا.

35– "السراي" وهو بناية حكومة محافظة ديالى إبان أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، وهو موجود حاليا في محلة شعبية تسمى باسمه، وكانت في القديم تشكل نصف مدينة بعقوبة تقريبا. وبناية "السراي" يشغل قسما منها حاليا مقر اتحاد الأدباء في ديالى، ومعه عدد من منظمات المجتمع المدني.

36– الإشارة هنا إلى سجن بعقوبة المركزي الذي كان إبان العهد الملكي معتقلا كبيرا للسياسيين من جميع الاتجاهات. وكان أهل بعقوبة يسمعون منه صباحا صوت المساجين يغنون أناشيد الحرية.

37– المقصود هنا هو محافظ ديالى في سبعينيات القرن العشرين وحكايته مع "فوزية" المذكورة في الهامش اللاحق.

38– المقصود هنا محطة قطار بعقوبة أيام زمان، وكان الناس يركبون منها الى المنطقة الشمالية في قطارين صاعدين يأتي أحدهما في الساعة السابعة صباحا والآخر يأتي في الساعة الرابعة مساء، ويركبون الى بغداد، وبخاصة زوار الحضرتين الكاظمية والكيلانية، في قطارين يسميان نازلين يأتي أحدهما في الساعة الرابعة صباحا والآخر في الساعة السابعة مساء (وهو الزمن المشار إليه في البيت اللاحق من القصيدة).

39– "جرف الملح" هي منطقة مجاورة لمحلة "أم النوه"، صارت مأوى للإرهابيين ووكرا لنشاطات القاعدة.

40– "حسن" هو واحد من أشهر مصوري بعقوبة الفوتوغرافيين الشمسيين، الذي كان علامة بارزة في سوق بعقوبة، بميزتين هما: كاميرته الشمسية ذات الصندوق الخشبي، وشخصيته النهلستية المدهشة.

يوميات مدينة - الجزء الثالث

عبد الستار نور علي

السبت 16 **يناير/ كانون الثاني** 2010

الساعة 13:00 / **المكتبة العامة**

هذهِ الأضواءُ تغزو العينَ
والرؤيةُ صفرٌ
وأنا أسمعُ جازاً يطرقُ الأسماعَ
كالماءِ الذي ينسابُ
في جدولِ هذا الكونِ
نحو البئرِ، والبئرُ صموتْ
سمعَ الصدّيقُ صوتَ الذئبِ
في السنةِ الإخوةِ
والذئبُ براءٌ من دمِ الماءِ
فيا بئرُ أرفقي
فالطفلُ في خاصرةِ الحُلْمِ انتظارٌ

نازفٌ سبعاً سماناً
في تواريخِ الممرّاتِ العجافْ
كانتِ الرؤيا نجوماً
في سماءِ القمرِ البازغِ
والشمسُ سجودٌ
وبقايا السفرِ ظلّتْ
تُمطرُ الريحَ، انطفاءَ العينِ
في البيتِ العتيقْ
ورمُ الأنيابِ مرسومٌ على لحمِ الأشقّاءِ
اهبطوا، بعضٌ لبعضٍ لعنةٌ
والجنةُ الموعودةُ الدانيةُ الأعنابِ
والأرطابِ والشهدِ المصفّى غربةٌ
في غابةِ الطوفانِ والقُمّلِ
والطاعونِ والليلِ وأفواهِ الحريقْ

الخميس 11 **فبراير/ شباط** 2010

الساعة 14:00 / **المكتبة العامة**

في حانةٍ في شارعِ الرشيدِ
همٌّ وسُكارى
وغناءُ الحزنِ مجوعٌ
صراخٌ، هذرٌ، ضحكٌ، بكاءْ
الجنديُّ العائدُ من جبهاتِ الحربِ
أمامي في الكرسيِّ الخشبي
كأساً ... كأساً ... تفرغُ مائدةُ الليلةِ
وسجائرُ تشتعلُ
وكلامٌ يبحثُ عن أجوبةٍ
وجهٌ أسمرُ شاحب
في فمِهِ توليدُ الخوفْ
عينانِ تدورانِ
.هل تبحثُ عن شيءٍ ضاع هنا؟
أم في رايةِ الحربِ هناك؟
سنواتُ رضاعةِ أحلامٍ
عشقٍ وخيالٍ قد ضاعتْ
من أيدي التاريخِ
سقطتْ
في قارعةِ الحربِ المشتعلةْ
لا تطفئُها أنفاسُ الأيامْ
وطنٌ في عينيهِ السوراوينِ الساطعتينْ
يتحدثُ عن وطنٍ ضاعَ هناك
بينَ بساطيلِ الجنرالاتِ
وسوطِ القائدِ
أطبقَ عينيهِ على الكرسيِّ ونامْ

الاثنين 22 **مارس/ آذار** 2010

الساعة 13:00 /**المكتبة العامة**

* الشاعر:
يرتدي قبعةَ الريحِ ويلقي بعصاهْ
بينَ أمواجِ هياجِ البحرِ
والليلُ اقترابُ الرأسِ
منْ أجنحةِ النارِ، وحلمٌ
أنْ يكونَ الصبحُ أعياداً لعشبِ النورِ
في قاربِهِ المبحرِ نحو النبعِ
في فردوسِ آدمْ
ثمّ يصحو رهشةً تهبطُ
منْ علياءِ عينيهِ على الأفقِ انبهاراً
صبحُ كراسةِ الرسمِ
فضاءُ الطيفِ في زاويةِ الشارعِ

صمتٌ بينَ أمواجِ المحيطْ
وخشوعٌ، وخضوعٌ لمواعيدِ الهبوطْ

الجمعة 23 **تموز** 2010

الساعة 13:00 / **المكتبة العامة**

أمسكتُ العتمةَ منْ أذنيها
أقبلتِ الريحُ الباردةُ
تتماوج
الساعةُ واقفةٌ
تتراوحُ في قبو الماضي
ها نحن نجرُّ الأذيالْ
نحو كهوفِ رواخلنا
عيناكَ العصفورانِ يقتتلانِ
أرَ الشمسِ
وثمارَ الأشجار
حبّاتُ اللؤلؤ
المعقورةُ بالبؤبؤ
تتفرطُ
مثلَ الأغصانِ عن الأشجارْ
هل تلتقط الحباتِ
أم لا تحفلُ أن تتحدرَ

في الهوةِ بين الرملِ
وأعشابِ الحقلِ المسدود ؟
عيناك شهابان اقتحما
التاريخَ وعادا
بخفي حنين
نعلاك تمزّقتا
من كثرةِ أشواك الدربِ
وقيعان الرغبةِ
أصداء رنين الأجراس
أتواصلُ سيرَكَ بعد الساعةِ
أم أنّ الساعةَ واقفةٌ
عند القدمين؟
تلك الأيامُ نداولها عشقاً
شوقاً، رعَقاً، نزفاً
تاريخاً يتراجعُ
جغرافيا تحترق
وأناساً من شمع
المتحفُ حدٌّ
ما بينَ الرغباتِ الكبرى
وجمور الأعصابْ
حين وقفْتُ بباب القافلةِ
رحلتْ منْ دون وداعٍ

أو وعدٍ بلقاءْ
صرتُ وحيداً
أتعرّى من جلدي
في دار الغرباءْ
نعق غرابٌ فوق الرأس
ذكّرني بسفينة نوح
أنتظرُ طلوعَ حمامة غصن الزيتون
أنتظرُ ... أنتظرُ ...
زُبَدَ الغضبُ على الشاطئ
والطيرُ تقافز من رمل والى حجرٍ
رملٌ حرّاق
حجرٌ صوان
ورياحٌ هبّتْ عاصفةً
بوجوهِ الأشجار
العصفور الغافي
فوق الغصن تهاوى
في النار
أنا مسروقٌ
أنا محروقٌ
أنا مسنوقٌ
في داخل أقبية الكتب
وعيون الناس

لم تُفتحْ نافذةٌ
رغم الأنواءِ ورغم الإعصار

الاثنين 24 **يناير/ كانون الثاني** 2011

الساعة 23:00

ماذا يحدثُ في هذي الساعة؟
الصمتُ حديدٌ صُلبٌ
لا يتغيرُ من حالٍ الى حال
رغم الدقّ الهائلِ بالمطرقةِ
منْ داخلِ هذا الصمت
أأنا أهذي
أم أنّ الوقتَ ثقيلٌ؟
لا أدري
مَنْ يدري؟
العالمُ لدى العرّافِ النائمِ
في كتبِ الصمتْ
دقاتُ الساعةِ تُشعلني
منْ قمةِ رأسي
حتى أخمص قدمي حَرفي
قالَ أبي يومَ وُلِدتُ:

في حُلمٍ بالأمسِ
كانَ ينامُ على حدِّ القمرِ
هذا المولودُ وحيدي
فليسترْهُ الستّار
اليومَ أنامُ على حدِّ الرأسِ
وعلى جمرِ الأسرارْ
الليلُ سميرُ الحيرانْ
ونديمُ السكرانِ ونارُ العاشقِ
المحرومِ من النيرانْ
كنتُ أصلّي في محرابِ الكوكبِ
كوكبِ ذاكَ الشرقِ
وهي تغني:
سهرانْ لوحدي
أناجي طيفكَ الساري
فسهرتُ لوحدي
ولوحدي
حتى آخرِ رمقٍ في الكأسْ
فامنحني يا ربّي كأسَ رضاكْ
حتى آخرِ رمقٍ في الجمرةِ
أنا أهواكَ فأطلقْ أُمنيتي
ويديّا
أمّا القدمانِ ففي السعيِّ

وأنا الحاملُ قلبي قنديلاً
في الصحراءْ
أيامُ السبيّ توالتْ
منْ أيامِ التابوتِ
وأيامِ النعلينِ
وعمامتهِ
أنا ابنُ السبيِّ الدائمِ
منْ غيرِ كلامْ
أوقدتُ كلامي
منْ جمرٍ
منْ زهرٍ
منْ ماءٍ
منْ عبقِ الأيامْ
فاستلوا الخنجرَ
طعنوني
ومنَ الخلفْ،
نصفي الرومي ينامُ الآنَ
في المشفى
منْ غيرِ كلامْ
لا ينطقُ
لا يتحركُ

لا يسمعُ قولي ونشيدي
ونشيجي
لا يسمعُني
فالآلاتُ الأنفاسُ، الدمُ،
رموُّ الروحْ *

اللهمّ اسمعْ ما أدعو
فلْيسمعْني
فالروحُ
منْ أمركَ
فاسمعْني!

(*) إشارة الى أخي في الرضاعة وتوأمي الروحيّ وصهري الذي نشأنا وتربينا معاً منذ اليوم الأول الذي وُلدتُ فيه ولم نفترقْ يوماً، هو لاعبُ كرة السلة الدولي السابق وعضو المنتخب الوطني الكابتن داود سلمان رمضان (داوي)، وهو في لحظة كتابة اليوميات هذه راقد في المستشفى غائباً عن الوعي يحيا على شبكة من الآلات والأنابيب يصارع المرض.

اسكلستونا/ السويد

"بالأمس"

أوس حسن

بالأمسِ قالتْ وهي تَسكبُ حليباً من
إبريقِ القمرْ
والأسطورةُ تلمعُ في أحلامها كشهوةِ
الضوءِ في آخرِ السَحَرْ
متى ستأتي؟ ... متى سيُبحر الوعدُ في
عينيكْ
وتأتي حاملاً رايةَ الشمسْ
بالأمس قالتْ ...
بالأمس نامتْ....
بالأمسِ كانتْ.

تُمَشِط الليل بفرشاةِ حزنها
وتغفو بين رمشي
كصلاةِ الروحِ في ثنايا الوترْ
بالأمسِ كانتْ تَسكُبُ حليباً مِن إبريقِ
القمر
والجرحُ يلمعُ في نايها كدمعةِ الليل في آخرِ
السَحَرْ
والليلُ ابتهالٌ للنارْ وأغنيةٌ للهمسْ
بالأمسِ كانتْ.....
بالأمسِ قالتْ: متى ستأتي

وتفزو مُدن الكلام؟ متى ستأتي؟..

متى ستأتي بالأمسِ قالت...

وما زال للبحرِ رائحةُ الغمام؟ بالأمس كانت...

وهذا المدى انكسارٌ بالأمس نامت..

في عتمةِ الوقتِ بالأمس غابت

ودمعٌ مِن رخام خَلفَ تلالِ الصمتْ

متى ستأتي؟ بالأمس صارت ..آلهةً للموت

وللصبرِ احتراقُ النهار ولوحةً من غُبار الأمسْ

على رقصةِ الظلام تَنتَظرُ الوعدَ ورايةَ الشمسْ.

على جناح بالون

حسين الصواف

(المطلوب) على جناح بالون.

بحث في السماء عن عمل.

كتب في السيرة الذاتية:

الاسم: غندور .

السن: تجربة عشق واحدة.

المدينة: في نون سورة الرحمن.

مكان الميلاد: محل الفطائر.

فصيلة الدم: أقحوانية.

الحالة الاجتماعية: مفرد كدب قطبي.

من أنت: خفي الحيل.

لم أر المحيط أبداً.

تدحرجت مرة على موجة من غضب صاحبتي، التي يقفز من جيوب فستانها السكر نبات وقصص عن مصاصي دماء يحاربون بالزغزغة ..

على بوابة السماء طاولة ألوان، عليك أن تلون وجهك. اخترت ألوان الببغاء الذي كنته في صباي. أين الطريق؟! رائحة حلوى، وشجرة شيكولاته، وينابيع كثيرة يجلس على أطرافها شعراء خائبون . أين الطريق؟! عمالقة يدخنون النارجيلة، فاتنة جسدها من جدائل الذهب. سقط قلبي في الطريق، حملته كقطعة الجاتوه، ألا تصدقني ؟! حملت قلبي كقطعة الجاتوه وسرت. امتلأ قلبي بعرائس وألعاب ملونة. موتى ينتصرون ضد الشياطين في لعبة الطاولة أحدهم يغني: " شهاب منور دخل قلبه .. إيش جسر الغاسل ومين وراه ؟! إبليس ما يقدر على اللي كان وياه " مر عام ونصف. أين الطريق ؟! كاميرا فوتوغرافية تطاردني وجناحان من قش. غمضت عيني ثم شكلت عجينة وجهي على هيئة أخرى .. توقفت الكاميرا عن المطاردة . " موسيقى ستصدح" يقول درويش من مكان ما .. عليك أن تختار. اخترت زرياب وموسيقى ديسكو السبعينات. يد خفية كبلت يدي،

أصـابعي مـا زالت تـرقص. تحـولت إلـى راقص تنـورة، درت (اللفيف) حـول نفسـي كأني الشـمس. يدي اليمنى للسماء السابعة واليسرى إلـى الأرض لأكثر من سـاعتين. تظهر لوحـة إرشـادية مضيئة كـالنيون، مكتوب عليها " غـابة البـون بون المحرمة " أنا وحـدي .. ظلام وطواطي. عانقت نفسي، دخلت في نقـاش عـن العـشق والهـوى، صرخت بـاسم أمي، تقاسمت حـكاية الأمير الصغير، صرخت بـاسم أمي. أين الـطريق ؟! أمشي بلا هدف مغسول برذاذ لا مرئي.

أنخرس بغباء كلامي لساني تعلق كالبندول. أتيه. تعـاقبت فـصول السـنة . أمي مـرغت وجهي بالـندى، بحبـات الكرز واخـتفت . يا رب أنا دم العصـفور . فاضـت العين عبرة. أعود أدراجي قطرة قـطرة . تكنسني الريح. أنـت لن تحـصل علـى شـيء لم تسـر في طريقه. يـا رب أحتـاج إلـى فنجـان قهـوة وامرأة كعنقود فـرح . طابع بـريد يـحملني بعيداً. أتحول إلـى كرة تـتقاذفهـا السحب. أنـا حر، أنـا حر تمـاماً تـدور بيـا الدنيا وأسقط.

صوت الخيزران.. أزهار الخوخ ❖

كواباتا ياسوناري
ترجمة - هلال حميد

كواباتا ياسوناري (1899 - 1972) روائي ياباني مكّنه إبداعه الأدبي من الحصول على جائزة نوبل للأدب عام 1968، ليصبح أول أديب ياباني يحصل على الجائزة العالمية. وفي نتاجاته الأدبية الرفيعة عرف ياسوناري كيف يوفق بين الإرث الكبير للتقاليد الجمالية لبلده وبين التأملات الفكرية لأبرز الحركات الطليعية الأدبية الأوربية.

ترى متى نشأ على الاعتقاد بأنه كان يسمع صوت الخيزران.. وأزهار الخوخ في داخله؟

أما الآن .. فلم يعد مقتصرا على سماع صوت الخيزران، ورؤية أزهار الخوخ، الآن كان يرى أيضا صوت الخيزران ويسمع أزهار الخوخ.

وفي بعض الأحيان، فيما هو يصغي بسمعه لصوت الخيزران، كان يحدث أن يسمع أيضا صوت أشجار السنديان، الذي ما كان ينبغي أن يسمع في ذلك المكان. وفيما هو يتأمل أزهار الخوخ، كان يحدث أن يرى أيضا أزهار شجرة البرقوق، التي هي الأخرى ما كان يمكن أن تكون متفتحة في تلك اللحظة. إن هذه الأشياء غالبا ما تحدث على عكس ما يتصوره المرء خطأ، لكنها بالنسبة الى مياغاوا هيساو قد وفدت إليه مع الشيخوخة.

فالصقر فوق الهضبة وراء البيت، كان مياغاوا قد رآه في الربيع، قبل سنتين، لكنه كان يتذكره كما لو يكن الآن.

كانت سلسلة الجبال المنخفضة تمتد طويلا حتى تصل الجانب الخلفي لسكنه، وهناك كانت تنتهي ببروز يشبه قطرة طويلة من قطرات الشمع. فكان ذلك البروز عبارة عن هضبة صغيرة. ومن إحدى الصخور الرصاصية اللون التي انبثقت عند قدميها، كانت قد انبجست أنواع شتى من الأحراش ونباتات

السرخس. غير أن لا السراخس ولا الأشجار التي يمكن أن تستلفت النظر كانت تنمو على امتداد منحدراتها، التي كانت الأعشاب والأغصان المتشابكة قد غزتها وكستها بالخضار. وفي قمتها كانت تنهض شجرة ضخمة عجفاء من أشجار الصنوبر.

فبعد الإبر المصفرّة، التي تساقطت منذ بضع سنوات، كذلك الأغصان الأكثر هزالة تكاد تكون جميعها قد انسلخت، ولم يتبق سوى الجذع والأغصان الأكثر سمكا، التي كانت في معظم الحالات مقصفة النهايات.

والآن كان الهيكل المتيبس للصنوبرة منتصبا كالحربة المدببة في وجه السماء.

حينما رآه، كان الصقر قابعا على رأس الصنوبرة، تقطّعت أنفاس مياغاوا، وأحس بانفجار صيحة صمّاء في صدره. فهو لم يتصور أبدا بأن صقرا من الصقور قد يتمكن في يوم ما من الوصول إلى تلك الهضاب. فكان ذلك حدثا غريبا يصعب على المرء أن يجد له تعليلا. ومع ذلك، كان الأمر يتعلق بالذات بصقر من الصقور الجارحة كما يمكن ملاحظة ذلك من الأبعاد والنظرات الحادة.

وهو مخيم فوقها، كانت الصنوبرة العظيمة تبدو أقل ضخامة من المعتاد. حيث كان الصقر هناك مستقرا بلا حراك، بصدره المنتفخ وبنظرته الحادة المستقيمة قدامه. ومياغاوا الذي كان يتطلع إليه من تحت، قد تنبه في الحال الى مدى عظمة وبأس ذلك الطير الجارح.

كانت الضياء الدافئة للغسق الربيعي منتشرة حول المكان. وفي السماء بلون الخوخ، المحجبة بالضباب الخفيف، كانت منغرزة كالنصل الأسود قمة الصنوبرة التي كان الصقر يربض فوقها . فكان ذلك المشهد الرائع متجسدا بما يشبه السحر، لا مثيل له ولا صلة له بكل ما يحيط به.

في تلك السماء الشاحبة ساعة الغروب، كان يبدو مستحيلا أن يكون الصقر قد عثر على الطريق ليصل حتى ذلك المكان. أو أنه سيتمكن من العثور على طريق آخر للعودة إلى الوراء . لا. لا يمكن ذلك. لأن طريق الصخور لا يمكن أن يكون محددا في السماء، إذاً لقد كان موجودا هناك من أجله هو بالذات. ومياغاوا كان يتأمله بعينين ملتمعتين من الدهشة والانبهار.

لقد كان في دهشته هذه يبدو كما لو أن من قلب نار مضطرمة، تكون قد تفتحت على حين غرة زهرة عظيمة من أزهار اللوتس البيضاء. لا. لأن ذلك الغسق

الربيعي يمكن له أن يناجي حريقا، ولا. لأن الصقر كان يشبه زهرة لوتس بيضاء. بل، لأن ذلك الصقر ذا النظرة الحادة المستقيمة، القابع فوق الصنوبرة الجافة، كان يبعث هدوءا عظيما، على قدر ما تبعثه زهرة لوتس بيضاء محاصرة بلهب النار.

إن تلك الدهشة التي قطعت أنفاسه حينما أخذت بالفتور، بدأت تتبلور في أعماق قلبه فكرة أن ظهور ذلك الصقر هو علامة للبركة وحسن الطالع، الأمر الذي أثار في نفسه ابتهاجا عظيما .

في تلك البلدة الساحلية من بلدات طوكيو، لم يسبق وان شوهدت فيها صقور في يوم من الأيام، وما من أحد قد سمع بأنها كانت موجودة فيها. وحتى الفكرة نفسها بالالتقاء بواحد منها كانت تبدو فكرة غريبة مستهجنة. مع ذلك، فإن الشيء الذي كان يراه هو، واقفا فوق الصنوبرة على الهضبة وراء البيت، كان صقرا وليس شيئا آخر.

ترى من يدري لماذا جاء إلى هنا. وهل كان هذا هو هدفه؟ أو انه قد ضل سبيله؟ أو لعله كان هناك بمحض الصدفة العمياء. ولكن لماذا إذاً، وهو وصل المكان، قد اختار موضعه فوق قمة الصنوبرة اليابسة بالذات، وبالذات فوق الهضبة التي كانت وراء بيت مياغاوا هيساو؟

إن ذلك لا يمكن أن يكون عرضيا، فكّر، لا بد أن يكون وراء ذلك سبب معين. إذ كان يخالجه إحساس بأن الصقر يحمل إليه رسالة ما أو بلاغا معينا، إلى مياغاوا.

من حسن الحظ، قال مخاطبا نفسه: إن تلك الصنوبرة العجوز لم تكن قد اقتلعت. ولربما أن الصقر قد جاء خصيصا لأنه كانت هناك تلك الشجرة العظيمة المنتصبة فوق الهضبة. ولعله كان قد حطّ عليها هي بالذات لأنها كانت يابسة. ولو أنها لم تكن هناك، فاغلب الظن لما كانت قد توفرت له فرصة الالتقاء بالصقر فوق الهضبة وراء البيت.

من حسن الحظ أنها بقيت على قيد الحياة، كان يفكر الآن، على حين انه في زمن مضى قد فكر مرارا بضرورة اجتثاثها. فمنذ سنوات عدة، كان الاحتضار البطيء لتلك الصنوبرة، القائمة كعلامة متميزة، وكأنها قوة إلهية حامية للبيت، تكدر نظرته وتورثه حزنا عميقا.

كانت الشجرة تتراءى أيضا من السكك الحديدية. وليس لمياغاوا وحده، بل ولكل أفراد عائلته أيضا، ففي كل مرة يصعدون أو ينزلون من متن القطار كانوا يلتفتون للنظر الى الصنوبرة، وكان ذلك

يتم بحركة عفوية، الى ان أصبح ذلك شيئا معتادا لدى الجميع. فالآن لم يعد أي منهم يشعر بالحاجة الى تأكيد الملاحظة بأنه كان من جهة السكك الحديدية قد شاهد الصنوبرة. ولكن في زمن مضى، كان مجرد القول بأن احدهم قد تمكن من رؤية شجرة البيت من ذلك المكان، كان يثير دهشة عظيمة وانفعالا عاطفيا مؤثرا لدى الجميع. وعند العودة من السفر، والنزول من القطار ورؤية الصنوبرة، كان تارة يبعث في النفس راحة عظيمة، وكان تارة أخرى يقبض عليها كقبضة الكماشة.

إن مياغاوا ما كان في وسعه تقدير عمر الشجرة بمجرد النظر الى هيئتها، ولكن تبدو له بأنه منذ أن كان قد انتقل إلى ذلك البيت، على عمر يناهز الخمسين، والى حد ست أو سبع سنين خلت، عندما كان قد أكمل السبعين من عمره، ظلت الشجرة على حالها. اذاً، لا بد أن يكون لها من العمر ما لا يقل عن مئة وخمسين سنة.

كذلك شجرة السنديان القائمة في عمق الحديقة التي كانت تشكل نقطة الحدود مع السكن المجاور ذي الطابقين، وشجرة الريحان التي كانت تبسط أغصانها حتى وسط الحديقة، كانتا بالأحرى من الأشجار المعمرة، لكنهما بلا شك لا تقارنان بالصنوبرة. كما ولم تكن فوق الهضبة أشجار أخرى تتميز بنفس الضخامة والهيبة. فيا ترى كيف يمكن إذاً، تعليل واقع أن في ذلك المكان لا توجد فيه سوى صنوبرة واحدة بهذه العظمة؟

ولماذا كانت هي الوحيدة من نوعها قد ظلت على قيد الحياة، بينما كل الصنوبرات من نفس جيلها قد لقين حتفهن؟

يجب أن يكون لها أكثر من ضعف سنوات عمرها. ((ومع ذلك ستعيش عمرا مديدا، أطول بكثير من سنوات عمري)) كان يفكر مياغاوا في تلك الأيام الخوالي، حينما كان يستريح تحت أفيائها. فهو منذ صباه، حينما كان يتجول في الجبال والغابات، وعندما كان يلتقي بشجرة قديمة، قد تعود بالسليقة على تقدير سنوات عمرها بمجرد النظر الى هيئتها، غير أن ذلك، بدلا من أن يوضح له مدى سرعة زوال حياة الإنسان، كان ينتهي عكس ذلك فيزيد في إضعاف بصيرته ويوهن إدراكه، فكان يبدو كما لو أن حياته أخذت تنصهر مع حياة تلك الشجرة العجوز التي كانت جذورها غائصة بثبات في الأرض، شجرة قوية لا يزعزعها شيء.

وهكذا، اخذ يدرك بأن الصنوبرة فوق

الهضبة كانت تكمن في أعماق نفسه. على امتداد منحدرات الهضبة لم تكن هناك ممرات أو مسارب تتسلق إليها. لذا، لم تكن ثمة وسيلة لبلوغها، فظلت طوال حياتها دون تشذيب. وبما أنه كانت تنقصها تلك العناية التي غالبا ما تعار لأشجار الحديقة، فقد نشأت وترعرعت على نحو طبيعي متوحش. وإذ أن أغصانها لم تكن تبدو بتلك الكثافة والانتظام، فإن ذلك لا يعود إلا لشيخوختها.

ومع ذلك كانت الإبر تبدو ملتصقة التصاقا جيدا. وميا‌غاوا، في ذات يوم، من النافذة الصغيرة العالية في الحمّام، كان يتطلع إلى الأشجار والغرسات التي دمرها الإعصار. وكانت تلك النافذة هي الوحيدة التي كان يمكنهم من خلالها رؤية الهضاب عندما تكون كل مصاريع البيت الأخرى موصدة بسبب الإعصار. فكان واقفا أمام النافذة، في الحمّام، ليتيقن من أن الصنوبرة لم تكن متعرضة للخطر. عندئذ كانت رشقات المطر العنيفة ترتطم وتضرب بقوة زجاج النافذة راسمة فوقها خطوطا مائلة منحدرة نحو الأسفل. وفي الحديقة الخلفية كانت الأوراق العريضة الخضراء للأشجار تلتف وتدور في دوامة الرياح العاصفة. غير أن إبر الصنوبرة، يمكن أن يقال، بأن لا شيء كان قادرا على زعزعتها وسلخها من الأغصان.

أو بالأحرى، إن كانت منسلخة، فما كان بالإمكان التيقن من ذلك بمجرد النظر من نافذة الحمّام، لكن الشيء الأكيد هو انه لم تكن ترى حتى ولا إبرة واحدة تطير في دوامة رياح الإعصار. فالي جانب ذلك الهيجان العنيف الذي زلزل الأغصان وقلّب أوراق الشجر على طول منحدرات الهضبة، كان الاهتزاز الطفيف لأغصان الصنوبرة يجعل المرء يرتاب بأن الأمر كان يتعلق بنفس ذلك الإعصار الشديد. وميا‌غاوا، من النافذة الصغيرة للحمام، كان يعانق في داخله الصنوبرة عناقا قويا.

وعلى حين غرة، تراءى له هطول مطر صامت، مطر من بتلات ناصعة البياض لأزهار الأقحوان. وفتاة عروس بملابس العرس البيضاء وهي تتقدم في أحد أروقة الفندق، وكانت تحمل بين يديها باقة ورد الأقحوان. لا بد من أنها كانت متجهة نحو الصالة التي تقام فيها حفلة الزفاف. كانت تمشي بتبختر مجرجرة أذيال ثوبها الطويلة. ومن أزهار الأقحوان للباقة كانت البتلات البيضاء تنسلخ وتتساقط الواحدة تلو الأخرى فتنتشر حول المكان. ووراء العروس كانت إحدى الوصيفات تنحني وراء كل خطوة

تخطوها العروس لتلتقط البتلات المتساقطة على السجادة الخضراء. ومن حين لآخر كانت العروس تومئ لها بأن تنهض، لكن هذه كانت لا تلبث أن تعود في الانحناء ثانية.

كان مياغاوا قد وجد نفسه في ذلك المشهد أثناء دخوله الرواق. وكانت حركات الفتاة المنهمكة بالتقاط البتلات المتناثرة حركات خفيفة صامتة بخفّة حركات البتلات السابحة في الهواء. وهنا قد يتبادر الى الذهن السؤال فيما إذا كانت العروس تفطن إلى باقة الورد التي بين يديها من أنها أخذت تتحلل وتفسد. ولكن كانت العروس تبدو أنها غير مكترثة للأمر.

لكن ذلك بالنسبة الى مياغاوا كان يبدو إهمالا وتقصيرا من جانب بائع الزهور الذي صنع باقة العرس من أزهار ذابلة تفقد بتلاتها على هذا النحو، وفي هذه اللحظة بالذات، وفيما هو يدقق في ملاحظته حول باقة الورد، خطف بصره ذلك المشهد لحفلة الزفاف الذي كانت تتناغم فيه الموسيقى والحركات تناغما مسرحيا رائعا.

إن البتلات البيضاء لزهرة الأقحوان التي كان قد رآها تطير بصمت في تلك العاصفة بعد سنوات عدة، كانت هي نفسها البتلات المفقودة من باقة العروس.

عند مغادرة المحطة، والدخول في طريق البلدة الرئيسي، ولمسافة قصيرة كانت الصنوبرة تتوارى عن الأنظار، إذ كانت تحجبها جدران البيوت العالية. لكنها سرعان ما كانت تعود للظهور من ركن حانوت بائع الفواكه. حيث كان الطريق من هناك يستأنف مساره مستقيما دون انعطافات، وهكذا، لمدة سبع أو ثماني دقائق ضرورية لبلوغ بيت مياغاوا، كانت الشجرة تبقى على نحو ثابت مائلة للعيان.

كما وكان يمكن رؤية الشجرة أيضا من جهة البحر. فإن (كايو) ابنة مياغاوا، في المرة الأولى التي خرجت فيها في القارب مع خطيبها، قد روت لأبيها في ما بعد، بأنها حينما وجدت نفسها في عرض البحر، كانت الهضبة وراء البيت تبدو من هناك صغيرة جدا. وكان واقع أنها قد تمكنت أن ترى وتميز الصنوبرة من ذلك المكان، قد أثار في نفسها انفعالا قويا حد البكاء من الفرح. إن مياغاوا قد تذكر ذلك أثناء حفلة زواج الابنة. أما زوجها فلم يكن هو الخطيب نفسه الذي كان معها في القارب، بل شاب آخر. أما أن يسألها في ذلك الظرف بالذات، لماذا كانت رؤية الصنوبرة من البحر قد جعلها تتأثر الى درجة ذرف الدموع، فقد بدا له شيئا غير مناسب وليس في أوانه، فآثر

أن يترك السؤال جانبا.

لم يكن يتوقع بأن تلك الصنوبرة يمكن أن تموت وهو ما يزال على قيد الحياة. وبطبيعة الحال، انه لم يتصور بأنه في يوم ما سيعيش في ذلك البيت الذي تهيمن عليه الهضبة مع الصنوبرة، لكنّ شيئا ما كان يحدثه بأن تلك الشجرة، القائمة هناك منذ أكثر من مئة سنة، كانت تنتظر مجيئه. وما كان يمكن أن تموت قبل ذلك إذا كان مقررا لها الحياة.

إن مياغاوا ما كان يعرف أن يوضّح فيما إذا كانت الشجرة قد أخذت بالاصفرار من القمة، أو الوسط أو من تحت. فحاول الاستفسار عن ذلك من أسرته، ولكن كل واحد منهم كان له رأي خاص بذلك.

بطبيعة الحال، عندما اكتشف المكان الذي كانت الإبر مصفّرة فيه، لم يكن يتوقع بأن حياة الصنوبرة كانت معرضة للخطر. ولئن مياغاوا لم يكن لديه رجل بستاني أهل للثقة، فقد كان أحد أصدقائه الذي أعلن له، قائلا بفتور تام، بأن الصنوبرة كانت على مشارف الموت. والآن كانت صيرورة التيبس قد انتقلت الى كل أجزائها وعلى نحو متواصل لا رجعة فيه. وأنها أصبحت موبوءة بالطفيليات تماما. هكذا نطق الرجل بقرار الحكم. وإذا كانت الإبر قد أخذت بالاصفرار فتلك علامة جلية بأن لا سبيل لإنقاذها.

فما كان على مياغاوا غير الرضوخ للأمر الواقع، لكنه الآن في كل مرّة تقع تحت بصره، من البيت أو الحديقة أو شوارع البلدة او المحطة، كانت الصنوبرة تعتصر قلبه وتورثه حزنا عميقا.

بعد مضي أشهر عدة، لم يعد يبقى على الشجرة شيء من الخضار، ومع ذلك كانت الإبر المصفرة اليابسة لا تزال صامدة وليس لها أية نية في السقوط والانسلاخ.

لقد حانت اللحظة التي أخذت تلك الشجرة اليابسة تبدو أمام عينيه كنذير شؤم، وكمرآة تعكس بؤسه وشقاءه. فلم يعد يرغب في رؤيتها ثانية، حتى وإن كان يجدها في طريقه دائما، فاعتزم على اقتلاعها وبأسرع ما يمكن، لا ليزيلها من حياته فحسب، بل وليقيم لها مراسيم الجنازة.

لكن السنوات كانت تمضي دونما يحدث شيء. في هذه الأثناء أخذت الإبر المصفرّة تتساقط شيئا فشيئا. وكذلك الأغصان، النحيفة والسميكة لم تنج من التحطم والانسلاخ.

وفي أحيان كثيرة، كان مياغاوا ينسى وجود تلك الشجرة الجرداء. حتى انه نسي تماما بأنه كان يريد اجتثاثها. أما الآن فقد أصبحت ندف الثلج تكسو أغصانها الجافة، وتخلع عليها مظهرا جديدا. فكانت تلك الصنوبرة القديمة المتلفعة بالكفن الأبيض تبدو في ذات

الوقت أكثر دفئا وأكثر بردا.

ومن ثم، ظهر الصقر فوق الصنوبرة. وبطبيعة الحال، أن الطير كان يستطيع الوقوف في قمتها لأنها نجت من ضربة الفأس.

إن الشيء الذي حال دون اقتلاعها وجنبها الموت ليس انعدام المسارب للوصول إليها فحسب، بل وكذلك شيء من الحيرة والتردد من جانب مياغاوا. فهو نفسه لم يكن يعرف ما الذي منعه من القيام بذلك.

وهكذا، بقيت الصنوبرة قائمة فوق الهضبة، حيث كان الصقر يربض فوقها ساكنا بلا حراك. ومياغاوا، كان يتأمله حابسا أنفاسه، فكان يبدو وكأن عظمة الطير قد تسللت في داخله. كما وخيّل إليه أن جبروت البهيمة هذه قد توغل كذلك في جسد تلك الصنوبرة الجافة.

إن ذلك الطير الذي ظهر فجأة، والذي يبدو الآن جامدا كالتمثال، بمخالبه الغائصة في خشب الشجرة اليابس، ما يزال حيا يرزق، ولكن سيأتي زمن يرحل فيه، مخلفا وراءه الصنوبرة الجافة. أما هي فلم تعد سوى جذع ميت كان قد حطّ عليها ذات يوم صقر من الصقور.

وحتى الطير، الآن، بعد أن كان مياغاوا قد رآه، سيبقى خالدا في أعماق نفسه. ولكن ما الذي أراد أن يقول له حينما وصل إلى هذا المكان؟ وإذا كان ظهوره آية للبركة والحظ السعيد، فما هي طبيعة ذلك الحظ، أهي السعادة التي كانت ستكون من نصيبه؟، ألا يمكن أن تكون رؤية الطير وحدها هي السعادة؟

كان مياغاوا قد رأى الصقر قبل سنتين. وفوق قمة الهضبة وراء بيته كانت الصنوبرة العظيمة اليابسة ما تزال منتصبة كشأنها دائما. أما الطير فقد رحل ولم يعد ثانية. أو لعله قد عاد لكن مياغاوا لم يفطن به.

مع ذلك، لقد أدرك مياغاوا بأن الصقر أيضاً كان في داخله. وإذ كان من الصعب بأن يصدقه أحد ما، في ما لو مضى ليروي قصته للآخرين، بأنه في البلدة، بل، فوق الهضبة وراء بيته، قد جاء صقر من الصقور، لذا، قرر في نهاية الأمر بأن لا يتفوه بكلمة لأيما أحد.

* ترجمت هذه القصة (صوت البامبو "شجرة الخيزران".. أزهار الخوخ)، من كتاب (الجمال يذوي سريعا وقصص أخرى).

الحلم المذبوح

أمير علي الجشعمي

انعطفا وهما يلهثان.. توقفا بعد أن اطمأنا انه أضاع طريق الوصول إليهما.. وضع أحدهما يديه على ركبتيه وانحنى مقوسا ظهره.. والآخر لم تقو ساقاه على حمله فجلس واسند ظهره إلى جدار المنعطف، ثم وضعا المناديل الورقية والعلكة ورشاش الماء مع قطعة القماش الصغيرة جانبا.

ظلا صامتين ... تكلم شقاؤهما بأنفاس متقطعة متجسدا في ارتفاع وهبوط صدريهما من تحت قميص رقعته الأوساخ والملح من اثر العرق المتفصد من جسدهما منتهيا بسروال متهرئ ترتفع قطعه الممزقة عن الركبتين أو تنخفض.. اختلطت أنفاسهما مع ضوضاء ولدتها أصوات مختلفة النبرات بمستويات متباينة تصدر من خلف الجدار..

بدأت أنفاسهما تنتظم في شهيقها وزفيرها وبدأت الضوضاء تتبدد وتتلاشى تدريجيا عقب انطلاق صوت حاد رفيع .

استثاره الحدث .. فقفز من مكانه ووقف أمام الجدار الذي كان مستندا إليه لكن مستوى رؤيته توقف عند منتصف ارتفاع الجدار.. اقترب من الجدار باسطا راحتيه ولاصقا أذنيه لعله يشبع شهوة حب الاستطلاع التي اتقدت في صدره، والتي عجزت رؤيته عن إشباعها فأحدثت بروزات الجدار خدوشاً بسيطة على صوان أذنه واستشعرت كفاه الرطوبة التي تركها مطر البارحة على الجدار، والتي لم تستطع خيوط الفجر الرقيقة انتزاعها وسحبها إلى إحدى السحب البيضاء التي ترقع ثوب السماء الأزرق..

لكنه لم يسمع شيئا.. حل صمت مطبق محل الضوضاء، مزقه صوت نطق بكلمة واحدة اهتزت لها الأقدام بإيقاع منتظم:

-استاعد لحظات وأردف : - استرح

منقبا بنظراته عن شيء ما اتقد في ذهنه وجده بمكان ليس ببعيد عن هذا الجدار (المثير!) لغرائز الاستطلاع فأطلق ساقيه للريح..

توقفت كل الحواس حينما صدر إيعاز من غريزته لسحب تلك الصخرة الكبيرة التي يخرج منها الحصى على شكل نتوء عشوائية الاتجاهات اندثر معظمها عند السطح العلوي فكون اندثارها رأسا محدبا مستديرا أملسا من رؤوسها الدقيقة فلم يسمع صوت رفيقه الآخر وهو يهتف بهو ممتعضا:

– هيا.. لا وقت لحماقاتك التي تقودنا إلى التهلكة دائما ..هيا ..أتنتظر أن يأتي؟؟ ..هيا..

سحبها بكل ما يملك من قوة تاركا أثرا عشوائيا في الطريق، فولد انعكاسا لسطحها غير المنتظم ووضعها ملتصقة بالجدار وصعد عليها.. هنا التقت نظراته بصفوف تستعد للمغادرة بشكل منظم تحت رقابة مشددة من قبل امرأة تتدلى من عنقها صفارة صغيرة.. تعلقت عيناه بملابس التلاميذ وحقائبهم الملتصقة بظهورهم أو أفخاذهم عندما تكون مربوطة بسير معلق في أكتافهم.. ولم تكن نظراته لتفلت من تلميذة تخلفت عن زملائها وزميلاتها، ووقفت في زاوية ما من ساحة المدرسة الابتدائية ومدت يديها الناصعتي البياض إلى جوف الحقيبة وأحس بقلقها وهو ينعكس على أساريرها وهي توجه نظرات يائسة إلى باب المدرسة المسربل بالأقفال.. حرك يديه حركة سريعة لينبهها إلى وجوده "خارجا" حركة أشارت للاستعداد بإبداء المساعدة.. انتبهت لحركته ونظرت إليه نظرة استغراب أعقبتها بابتسامة رقيقة حركت بداخله مع الشريط الأحمر المدفون في عتمة شعرها الفحام شعوراً لأول مرة يحس بيه.. أحس لأول مرة بأن صدره قد ترطب لا من اثر العرق بل من اثر شيء آخر يجهل معناه لكنه في الوقت نفسه يحس به.

أفاق برعب من هذا الإحساس الرقيق على صوت رفيقه وهو يصرخ مهرولا:

– أهرب ..أهرب ..

أفاق من نشوة الخيال على قبضة شرطي المرور وهو يمسك بياقة قميصه من الخلف ويسحبه بعنف عندها ثبت يديه على الجدار بقوة وتشبث به كما يتشبث الجائع برغيف خبز ووجه نظرات مذبوحة إلى "صديقته" التي غطت فمها بيديها الصغيرتين لتكتم شهقتها ثم أطلقت نظرات هستيرية من عينيها باحثة عن منجد ما.. اصطدمت نظراتها بمديرة المدرسة فارتجفت كسعفة النخيل لرؤيتها.. صرخت بها قائلة:

– مـاذا تفعلـين هنـا؟ مـا هـو درسك الأول؟

لم تجب ..

أرجعت نظراتـها إليه وهـو يقاوم رجل المرور ذا الشـارب الغليظ بشراسة ورأت هـراوته المتينـة وهي تهـوي علـى يـديه المتشبثة بـالجدار، فـأطلق صـرخـة الم دوى صـداهـا في وادي الظلم العميق، ارتجفت لها التلميذة فجمدت في مكانها، وأصبح كل ما تملك من وعـي بهذا العالم مكرساً وراء الجدار الذي اختفى المتسول وراء ارتفـاعه فلم تـشعـر بـالمديـرة وهي تقبض علـى زنـدهـا بيـديهـا الغليظتين وتسوقهـا إلى الداخل ولم تـر الشرر وهو يتطـاير من عينيها ولم تسمعها وهي تقول بصوت متعجرف:

– غـــدا ..لا أريـــد أن أراك إلا مع والدتك.. فهمتي؟

عبور

سولاف هلال

يتسع المدى حين أمارس حقي في صناعة الحلم، باندفاع خارق أحطم اللاممكن لأعبر إلى الضفة الأخرى ..

ينبسط الأثير .. يحملني على راحتيه في رحلة لاشتهائي اللامتناهي. ينتفض الوجود .. تتقاطر حبات الضياء النورانية لتغطي المطلق على اتساعه.

بخفة أثب لكأنني الهواء الذي يمس جبيني .. أقف على حافة الفردوس، يحاصرني اليقين من كل اتجاه .. الحياة تبدأ من هنا .

أخطو على العشب المندى بقطرات العنبر الفواح، يغمرني الشعاع المتكسر الذي ينبعث من الهياكل الفضية المتمايلة ذات اليمين وذات الشمال بلا انقطاع، إنها ترقص على أنغام الكون السرمدية.

أنضم إلى الجمع السامي بلا استئذان .. أرقص على ذات الإيقاع برشاقة .. تغمرني البهجة حينما أسلم وجهي لقطرات الماء البلورية المتساقطة من السحب الشفافة.

أرنو إلى المدى الشاسع بنظرات طليقة.. الأرض الخضراء تعانق خط الأفق بتناغم ساحر، الأجساد لا تنفك تتمايل بخشوع وكأنها تؤدي فريضة جماعية.

يقبل البدر النوري.. البدر النوري يقبل .. يرقص الكون على لحن احتفائي به .. من أجله تجاوزت كل الحدود، ترافقني عناية السماء لبلوغ ضفته المشتهاة.

تحت عرائش العنب المخملية عانق النور دهشتي، قال وهو يمسح من عيني لآلئ نشوتي :

ـ حدثيني عن الظلمة التي تقيمين فيها .. عن وجه اللحظة المكفهر التي أعلنت بها انسحابي.

ـ ألا تعرف ؟

ـ بل أعرف .. أنا لم أغادر شطآن وجدي وينابيع شجوني، وإذا ما انسحبت قسرا فهذا لا يعني أني تنازلت عن

الشعـاع الفيروزي الـذي يطرز صدر أحلامي.

ـ هل تعني ...؟

ـ نعم أعني .. فـأنا الشريك اللصيق بجنة خلدي، هل تذكرين كم مرة ناديتني واستدعيتني، ألم تشعري بوجودي ؟

ـ بل شعرت .. ولكن

ـ خانك اليقين !

ـ ربما

ـ تذكـري كم مـرة عـانقتك، كم مـرة انـتشلـتك من بحـر الحـزن الـذي تغـرقين نفسك فيه، وكنت تظنين أنه ليس إلا حلما

ـ نعم.. كثير، كثير

ـ لم يكن حلما

ينبسط الأثير.. ينكمش فـرحي.. تمتد يده المعطرة بالمسك.. تلقي حجرا فيروزيا في بـاطن كفـي وتغلق عليهـا بحنـو أصابعي.

ينطلـق ذات الأثير الـذي رفعني وجمح بي إلى الأعالي.. يرتد بي إلى حيث أتيت.

يضيق المدى.. يكفهـر الوجود.. تتوالى أسئلـة لم أكترث لها.. يرتجف قلبي بعنف قـبل أن أفتح كفي الـتي تحتضـن فيروزته المقدسة.

تنويه:

ننوه بأن عنوان قصيدة الشاعرة نضال القاضي المنشورة في العدد 352 هو (قرية القمر) بدلا من (القطعة الخامسة من بينالي عواء وبسكويت)، علما أننا نشرنا عنوان القصيدة كما وردنا من الشاعرة ذاتها...

نص مسرحي

بائع الحرية ❖

عبد الوهاب الفايز

المكان – العراق
الزمان – 2012
شخصيات المسرحية:
أيمن بعمر الثالثة عشرة –بائع الحرية
شخصيات أخرى مختلفة الأعمار
والأهواء تجوب السوق

المنظر العام

سوق شعبي يعج بالصخب (هرج ومرج) باعة يفترشون الأرض، بضاعتهم مختلفة الاصناف، نصفٌ جديد، مستعمل، مواد قديمة (بالية) بقايا خردة، تجوب السوق نساء مجلالات بعباءاتهن السود، شيوخ،، شباب، أطفال، متسولون .. تعم السوق ضوضاء واضحة للعيان، طفل (أيمن) بعمر الزهور يستعرض بضاعته، قفص فيه عصفور (زرزور) وصندوق خشبي صغير يحتوي على صباغة متعددة الألوان وفرشاة، وقفص آخر فيه مجموعة عصافير. أيمن بائع الحرية منادياً المارة ليلفت انتباههم لبضاعته اللافتة – المشروطة – وحين يقبل أحدهم على تلبية ندائه يحرر أيمن عقداً شفهياً بينه وبين المشتري يضمن تحرير العصفور الذي تم شراؤه وإطلاق سراحه فوراً، ولكي يُثبت صدقهُ وحُسن نواياه، ومن اجل لا يتكرر وقوع العصفور في الحبس مرة أخرى، يقوم أيمن بصبغ جناحيه في أمل أن يشاهدهُ ذات يوم الذي قام بإطلاق سراحه".

أيمن : منادياً من يحرر عصفور، اشتري حريته، أطلقه في الفضاء بدينار.

متجول: ادعه يطير بدينار!

أيمن: بدينار حرية عصفور

متجول آخر: أهاذي مزحة

أيمن: عصفور يجوب الأمكنة، يحط رحاله أينما شاء، بدينار

المتجول نفسه: وثمنه دينار؟

أيمن: شرط أن تحرره في الهواء الطلق

المتجول نفسه: أدفع، وافلته، مجنون أنت

أيمن: منادياً يا خالة، اشتري عصفوراً بدينار

المتجولة: هاك دينار، لا أريد العصفور

أيمن: أنا أبيع الحرية، لا أستجدي

متجول آخر: وماذا تبيع

أيمن: عصفور في الهواء الطلق

المتجول نفسه: خُذ دينارا، هات العصفور

أيمن: شرط أن تطلقه هنا، أمام أنظار الجميع
المتجول نفسه: ثمنه دينار ويطير
أيمن: شرط البيع
المتجول نفسه: تبيع وتشترط، غريب، البائع يشترط أم المشتري؟
أيمن: أطلق سراحه بعد أن تشتريه
المتجول نفسه: أنا حر، أطلقه في أي مكان، إن أردت ذلك
أيمن: منادياً حرر عصفور، حرره من سجنه، من هذا القفص بدينار
يتجمهر المارة، يجذبهم نداء بائع الحرية، يسمع آخر، يتوقف، عشرون، أربعون، أيمن/ الطفل، يصير وسط حشدٍ بشري على شكل حلقه، شبيهة بحلقات ساحة (الفنا، المراكشية)، أيمن مستمر بندائه، نداء الحرية، ومروجاً لبضاعته اللافتة.
أيمن: حرره من قفصه، يا حاج، ثمن حرية عصفور دينار
متفرج: بدينار وتريدني أطلقه؟
أيمن: بضاعتي عصفور، من يشتري حريته، اجعله يحلق، لا أن تُعيده للقفص من جديد، تأمله وهو يطير
متجولة: بكم العصفور؟
أيمن: بدينار، يا خالة
أيمن يمد ذراعه داخل القفص يقبض على العصفور براحة يده خُذي، ادفعي ثمن حريته،
المتجولة: ماذا قلت ؟
أيمن: حريته أولاً يا خالة، الدينار مقابل أن تطلقي سراحه المتجولة تضحك
سيدة أخرى: خذُ الدينار وأطلقه أنت
أيمن: لا يا خالة أطلقيه بيديكِ
السيدة: لماذا؟
أيمن: حين تُطلقيه بنفسكِ تُحسي بمعنى الحرية
السيدة: يا لك من طفلٍ ذكي
السيدة تأخذ العصفور ثم تطلق سراحه بعد أن أصبح صدر وباطن جناحيه مدهونين بلونٍ أخضر
متجول آخر: ماذا قلت؟ دينار مقابل ماذا؟
أيمن: يمسك بعصفور يوغل أنامله بين ثنايا ريشه، يمط جناحه شاهد ما أحلاها، كم هي جميلة ريشاته، أرق من البريسم، تلمس كم هي ناعمة، يتخذونها وسادة، نعم، هناك وسائد للنوم من ريش الطيور، تحلم أحلامًا جميلة حين يهوي رأسك إليها، أترى، كم هي خفيفة، تساعده على التحليق، يطير بها بسهولة، وسادة للحالمين ريشاته! تُريحُ عُنقك، شوف كم هي عذبة حين تقربها من أنفك، رائحتها أعذبُ من أي عطرٍ، إنها عِطرُ ريش الطائر.
المتجول: دعه في قفصه
أيمن: لا فرق، كل في قفصه
المتجول: ماذا قلت؟
أيمن: أنت في قفصك، وهو في قفصه
المتجول: أنا لستُ طائراً حتى أكون في قفص.
أيمن: أنت وأنا، والجميع في قفصٍ كبيرٍ لن نراهُ
المتجول: من يراهُ
أيمن: الطائرُ يراهُ، يحسهُ أكثر مني ومنك، أعمدة من خشب، أسلاك تُحيطه، وقفلٌ من حديد.
متجول آخر: وماذا تستفيد أنت

أيمن: حرية عصفورٍ هل هذا كثير؟
المتجول: ما فائدتي أنا؟
أيمن: حريته
المتجول: كيف؟
أيمن: تكون سعيداً حين تراهُ يسبح في الفضاء
متجول آخر: ادفع دينار وأسيبهُ
متجول آخر: أنت محتال
أيمن: لستُ محتالاً
متجول آخر: حُرية، بضاعة، عصفور، ماذا تبيع؟
أيمن: أبيعُ الحرية
المتجول: وكم ثمنها؟
أيمن: تقصد حريتها؟
المتجول: بكم؟
أيمن: بدينار واحد
المتجول : هاك الدينار
أيمن: شرط أن تحرره
المتجول: أحرره، من ماذا، ما هذا الكلام؟
أيمن: شرط البيع، تطلق سراحه هنا، أمام الجميع
متجول آخر: تقبض ثمنه وأنا أطلق سراحه؟
أيمن: من أجل حريته
متجول آخر: محتالٌ أنت
أيمن: لست محتالاً
المتجول: وقفصك المملوء بالعصافير
أيمن: ما به، بضاعة كما ترى
المتجول: وكيف تحصل عليها؟
أيمن: أجلبها من أماكن مختلفة وأعرضها للبيع
المتجول: تجمعها في هذا القفص وتُريد تحريرها مقابل ثمن؟
متجولٌ آخر: تحررها أم تبيعها؟
أيمن: أبيعها، نعم، وماذا في ذلك؟ كأي بضاعة، لكن بضاعتي شرط حريتها!
المتجول: أنت تستجدي
أيمن: لا استجدي، ادفع دينارا، أُعطيك طائرا شرط أن تحرره أيمن منادياً، مُروجاً لبضاعته بضاعتي عصفور في قفص من يحرره بدينار ويطلقه في الفضاء.
متجول آخر: يطلُ من بين الجموع حُرية من؟
أيمن: اشتري عصفوراً في الفضاء
المتجول: قبل الدفع أم بعده؟
أيمن: وفق ما تراهُ
المتجول: وأطلقه؟
أيمن: هُنا، أمام الناس، ماذا قلت؟
المتجول: أحرره، لكن ليس هنا
أيمن: وأنا لن أبيعك
المتجول: لمن تبيع إذاً؟
أيمن: لمن يحرره، وهنا
متجول آخر: كم ثمن العصفور
أيمن: حرية الطائر بدينار
المتجول: حُريةٌ، بضاعة هذي؟!
أيمن: نعم، عصفور حريته بدينار، تطلقه في الفضاء، هذي بضاعتي
المتجول: لم أفهم
متجول آخر: اشتريه واحتفظ به
أيمن : لن أبيع
المتجول: ولماذا ؟
أيمن: لأنك ستعيده للقفص من جديد
المتجول: من علمك طريقة الاستجداء هذه؟
أيمن: اكسب رزقي من عصفوري، تدفع دينارا، تحرره من قفصه، هذا شرطي
المتجول: ما معنى هذا؟

أيمن: معناه اشتريت حريته، وأنا بعت لك الحرية

المتجول: في الفضاء، في الجو؟

أيمن: نعم، حين تشاهده على الأشجار، أو محلقاً يمرح في الفضاء، وحين تُلامس ريشه الريح طائراً يجوب الأمكنة، ألا تشعر بسعادة.

المتجول: تبيعُني عصفوراً في الهواء الطلق؟

أيمن : أبيع الحرية

متجول آخر: أيةُ حُرية؟

أيمن: حرية عصفور مقابل ثمنٍ بخس

المتجول: ما معنى بخس؟

أيمن: افهم البخس اولاً، ثم تعال واشترِ عصفور الحرية.

المتجول: أطلقه ثم تُعيده أنت للقفص مرةً أخرى، وتبيعه من جديد

أيمن: سأثبتُ لك حُسن نواياي

المتجول: كيف؟

أيمن: لكي لا يتكرر وقوع الزرزور في الحبس مرة أخرى ألوّنه بأي لونٍ تُريده

المتجول: من أين تأتي بها؟

أيمن: أجمعها

المتجول: وماذا تستفيد، ديناراً؟

أيمن: مقابل حرية العصفور دينار، لكي أعيش كريماً، ثم تعرف ما لا تعرفه أنت

المتجول: وما الذي لا أعرفه؟

أيمن: الحرية، لا تعرف معناها

من وسط الجموع تتقدم امرأة مُسنة تدفع دينارا لبائع الحرية

السيدة المتجولة: خُذ الدينار، ناولني الطائر، لكن من يضمن لي أنك لا تعيده إلى القفص مرة أخرى، وتبيعه من جديد حين أطلق سراحه؟

أيمن: أصبغه باللون الذي يُعجبكِ، أي لونٍ يا حاجة؟

السيدة: ازرق

أيمن: يخرج مجموعة ألوان من صندوق صغير وفرشاة، يصبغ صدر العصفور وباطن جناحيه أنظري صدر العصفور وباطن جناحيه زرقاوان مثلما أردتِ.

السيدة: تطلق العصفور، يحلق عالياً، صدره وباطن جناحيه زرقاوان، السيدة نظرها وأنظار الآخرين محلقة مثلما العصفور

السيدة: إنه سعيد

أيمن: في القفص

السيدة: حين يكون بعيداً عنه

أيمن: يروج بضاعته، الحرية اشتري عصفورا وأطلقه في الفضاء، حرية عصفور بدينار، ياأخ، ياأُختي، ياحاجة حرروه من هذا القفص بدينار.

سيدة متجولة أخرى: اصبغه

أيمن: أيُ لونٍ ياعمة

السيدة: وردي

أيمن: يدهن صدر العصفور وباطن جناحيه باللون الوردي

السيدة: تحتضن العصفور براحتيها، تُداعبُ ريشه بأناملها الناعمة البيضاء، تقربه من أنفها، تشمه، تفردُ بكفها اليمنى جناحه، تتمعن فيه، تُمسُد ريشه بالاتجاه المعاكس، يبانُ لحمه الوردي، تُقبلُ منقاره، المنقار بين شفاه السيدة، تَمس احداقه، العصفور يطبقُ جفنيهِ، السيدة تنظرُ لرمشي العصفور وهما مطبقان، يهدأ العصفور يفتح عينيه، يتراجع رمشاه طبيعياًن، السيدة تركز نظرها للون

عينيه السوداوين، تربت على رأسه الصغير، ظهره، تفردُ ذيله، تضم العصفور الى صدرها، ثم تنظر الى أيمن بائع الحرية، تتأمله أكثر، ثم تنشر الطائر بكلتا راحتيها مثلما تنشر على الحبال غسيلاً، العصفور كالسهم في الفضاء، مختالاً، يمرح، يتقلب يميناً، يساراً، الجموع معلقة أنظارها، تتطلع الى العصفور وباطن جناحيه الوردي، يتوارى عن الانظار العصفور.

السيدة: هيا إمرح، يا ليتنا مثلك .. نتمنى نَكونكْ، ياليتنا منذُ الطفولة مثلك.

أيمن: يعاود نداءُ الحرية من جديد

عصفور في الفضاء، بدينار، لا في القفص، مكنه من التحليق، فوق الاشجار، يلتقط حبة بمنقاره من الأرض، تدخل حوصلته، يجوف ثمره، من أعالي النخيل او الاشجار، قطرةُ ماءٍ يرتشفها من ساقيه، أو يفرش جناحيه على سطح بركةِ ماء، حرره من سجنه، ليبني عشهُ في أي مكان، من يشتري عصفورا، حريتهُ دينار

يتقدم آخر من وسط الجموع

المتجول: ماذا قلت؟

أيمن: عصفور بدينار

المتجول: وماذا افعل به؟

ايمن: أطلق سراحه في الفضاء، دعه يحلق عالياً

المتجول: لا أريده

أيمن: كما تريد

سيدة متجولة اخرى: خذُ، هات العصفور

أيمن: وتطلقيه

السيدة: سأفعل

أيمن: أي لون ترغبين

السيدة: احمر

أيمن:يسلمها العصفور بعد ان أصبح باطن جناحيه وصدره حمراوين

السيدة: تطلق العصفور

أيمن: مناديا عصفور بدينار، أُلونه ألوانُ قوس قزح، من يشتريه، من يحرره من سجنه الحديدي بدينار

يتجمهر الناس اكثر، النداء متواصل

بضاعتي عصافير، أجمعها جاهداً، أبيعها وأعيلُ بها عائلتي، وانفق منها على تعليمي

بصوت أكثر قوة يشبه الصرخة

أنا ا ا ا ا ا

باااا ءع

ا

ل

ح

ر

ي

ة

انتهت في2012/3/25

البصرة /العراق

---

* نص مسرحي دراماتيكي مستمد من حدثٍ واقعي

المعماري والفنان هندرتفاسر ❖

سنان احمد حقي
مهندس ومنشغل بالثقافة

انشغل (هندرتفاسر) بالعمارة منذ بداية الخمسينيات وتابع حتّى نهاية حياته ذلك الإهتمام بما يُلائم الطبيعة والإنسانيّة.
بدأ مشاركاته بالبيانات والمقالات والتظاهرات والتي أتبعها في ما بعد بنماذجه التي إستخدمها لتوضيح أفكاره في تشجير أسطح المباني وأشجار المستأجرين وحق فتح النوافذ بالإضافة للأشكال المعماريّة كمنازل (العين عبر شقّ الباب) وبيوت الخضرة والمروج العالية، البيت الحلزوني أو بيت الحفرة أو التجويف.

وكطبيب للعمارة أوجد عدم إنتظام ما هو مخالف، وحواجز الجمال وفي النهاية إستطاع أن يُدرك نموذجيّة المشاريع المعماريّة حيث يكون موجودا حقّ فتح النوافذ والتشجير، لمستأجر حيث الطوابق غير المستوية والغابات فوق السطوح والتشجير التلقائي.
في عمله المعماري إستبدل (هندرتفاسر) اللون الواحد بالتعدّد والتنوع اللوني والمنظومة المشبّكة بعدم إنتظام عضوي لما هو مختلف من مشاريعه المعماريّة:

الغابة الحلزونيّة في مدينة دامشتادت

رابطة أبنية دارمشتادت كانت قد كلفت (هندرتفاسر) بتصميم مجمع سكني يتكون من 105 وحدات سكنيّة في منطقة بركبارك في مدينة دارمشتادت.
كانت فكرة (هندرتفاسر) أن يخطط لمبنى يُزهر في ذلك الموقع على شكل حلزون مشجّر.
بدأت البناية تعلو في زاوية جنوب غرب المدينة على شكل مروج متصاعدة بمنوال ثابت إلى إرتفاع إنتهى بتسعة طوابق في

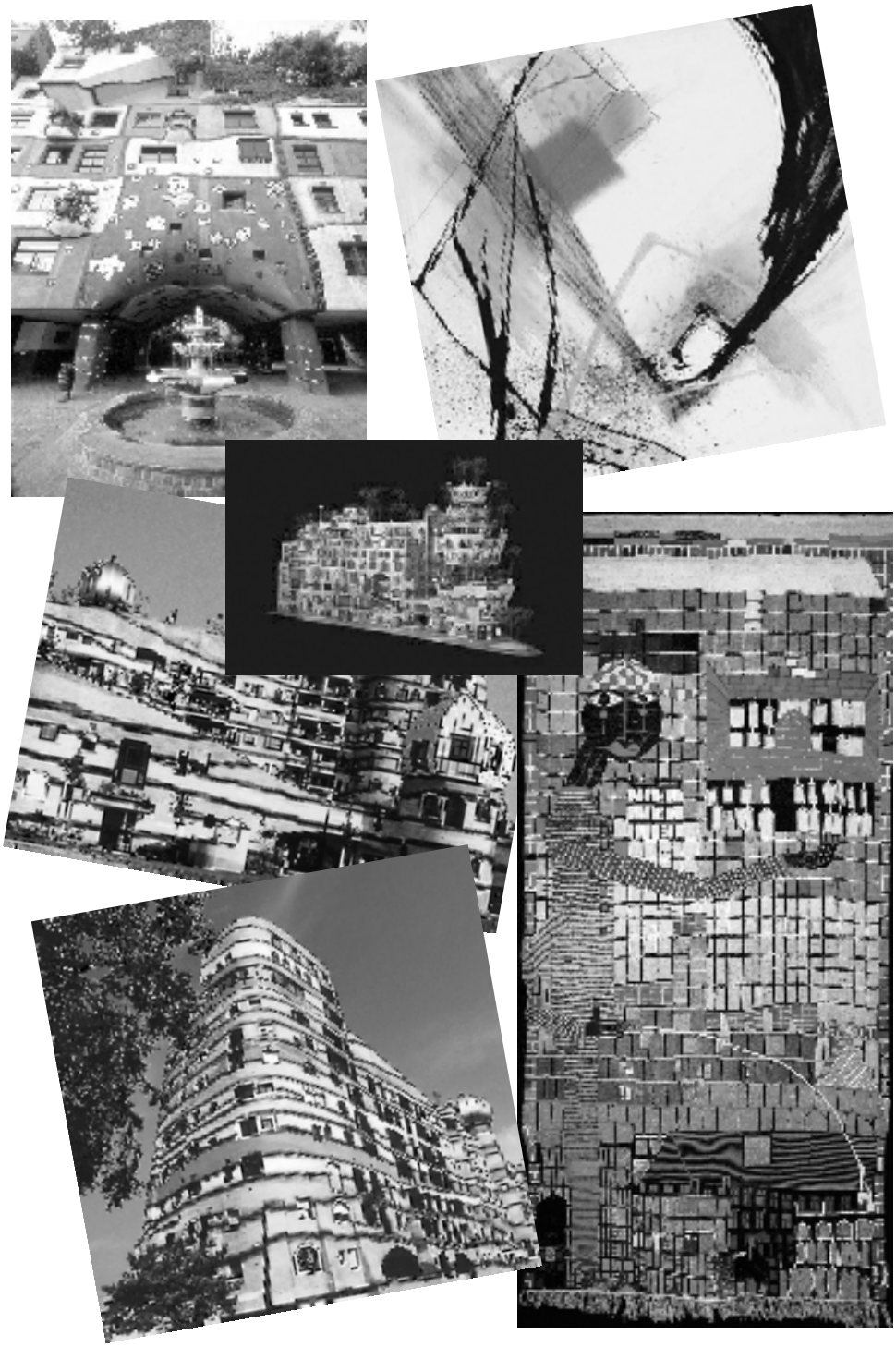

زاوية جنوب الشرق من الموقع حيث يرتفع برج بارتفاع إثني عشر طابقا بعلو ٤١ مترا، حيث يُتيح نبرة متفرّدة . إستعار (هندرتفاسر) واجهاته للمبنى من فكرة تكوين طبقات الأرض التي تشكّلت عبر الترسبات لملايين السنين.

بناية سكنيّة لمدينة فيينا 1983- 1985

بيت
بيت غير مألوف
ما الذي لا يمت بصلة للكليشيهات والأعراف؟
التابعة للعمارة الأكاديميّة؟
بيتٌ يصمّمه ويتخيّله رسام تشكيلي
مغامرة في العصر الحديث
رحلةٌ إلى أرضٍ مجهولة
رحلة في أرض العمارة الخلاّقة
حيث حقوق فتح النوافذ والمستأجرين
وعدم الإنتظام غير المسيطر عليه
والطوابق المتفاوتة والأرض المشجرة فوق السطح
والخضرة العفويّة
وحواجز الجمال
رحلة عبر أرض
يلتقي فيها الإنسان مع الطبيعة في الخلق
تقرير عن أول بيت طليق
الرسام يحلم
رسام يحلم بالبيوت
وبالعمارة الجميلة حيث يكون الإنسان حرّا
وحيث حلمه يُصبح حقيقة واقعة

مرافق كاواكاوا الصحيّة
كاواكاوا، نيوزيلنده:
إتصلت رابطة رجال الأعمال المحليّة بهندرتفاسر طالبة منه أن يُعيد تصميم هذه البناية التي يرجع تاريخها إلى الستينيات.

وسمحت لهندرتفاسر بأن يُظهر ويُقدّم كاواكاوا بأسلوب هندرتفاسر وفنّه. واثناء إعادة الإنشاء ثجد أن الأعمال المطلوبة والضروريّة تزيد كثيرا عمّا كان مخطّطا لها. وأصبح هندرتفاسر مسؤولا عن تجديدها وصيانتها. وعلى سبيل المثال فقد قام بعمل الأعمدة التي يجلس عليها السيراميك الآسيوي. أصبح لديه جدار من القناني كمرجع لبيت القناني على ملكيته الخاصّة في نيوزيلندا. وأخذ على مسؤوليته تلوين الأشجار فوق السطح. إختار تشجيرا إعتياديا في واجهة المبنى وشجيرات الزنبق للتشجير الخلفي. ماووري أرست والفنان بيتر بيتس شاركا أيضا في تصميم المشروع. وقد حاز تصميم هذه المرافق العامّة الجائزة الأولى للأماكن الإبداعية لعام 2000 بمناسبة مؤتمر كنيسة المسيح للسنة المحلية لحكومة نيوزيلندا.

بيت رولاند ماكدونالد 2004 ـ 2005
أونترم شتيرننزيلت مقاطعة أيسن ـ ألمانيا
قام (هندرتفاسر) في عام 1999 بوضع السكيتشات الإبتدائيّة لهذا المركز الذي تم بناؤه لعوائل الأطفال الذين يُعالجون من أوضاع طبيّة جادّة في المستشفى التعليمي لمقاطعة أيسن. إنها واحدة من أربع عشرة دارا في عموم ألمانيا، حيث يتم توفير أجواء بيتيّة للعوائل التي يستمر تلقي أطفالهم للعلاج داخل المستشفى. لقد إختار هندرتفاسر الموقع في متنزّه كروكا ولقد قَبِل المهمة ليس لأنه مهتمّا بالجوانب الإنسانيّة والإجتماعيّة بل للدلالة التي تعبّر عنها البناية من حيث انها سيتم بناؤها دون أن يتم تخريب الطبيعة وفعلا بعد بنائها اصبحت الطبيعة أكثر ثراءً من قبل ذلك.
كانت تلك ظروف جعلت من الممكن توقيع

البناية في وسط حمى طبيعة في واحدة من أشهر حدائق ألمانيا، لقد تم إنجاز البناية على اتم إنسجام مع الطبيعة ومع تفرّد الإنسان.

ميدان الأطفال في أوساكا (اليابان)1996 ـ 1997 :

ميدان أوساكا هو مدينة ألعاب وعالم ملاهٍ للأطفال. معارض متنوعة، فعاليات وورش عمل تسمح للأطفال باكتشاف العالم باسلوب ممتع، أخذ (هندرتفاسر) على عاتقه تصميم مدينة أطفال، التي تقع في دهليز بين الطابق الرابع والخامس ويتميّز ببرج حلزوني في المركز.

عمارة هندرتفاسر المغامرة للأطفال هي التناقض العقيم.

العمارة غير مهذّبة وغير طبيعيّة الأفعال، والتي يفضّل الأطفال قضاء أوقاتهم فيها بشكل كبير، فيها يستطيع الأطفال التعرف الى عدم الإنتظام والى عمارة التنوع الخلاق والعضوي وهذا يُلهم خيالهم ويُخصبه وكذلك إحساسهم بالمغامرة ـ ليعني تقديم معاودة وإدامة روح الطفولة.

هندرتفاسر رساما ومصوّرا:

كلما وجد نفسه في البيت او بين الطبيعة أو على الطريق أو في المقهى أو المطعم فإن (هندرتفاسر) يرسم وكذلك عندما يكون في القطار أو على متن الطائرة أو في الفندق أو في بيت أحد الأصدقاء أو عند زيارة أحد المعارف، إذ أنه ليس له مرسم أو مسند لحمل اللوحات ولكنه ينشر الكانفس (Canvas) أمامه فوق ورقة مستوية كبيرة. ويحدث عندما يكون على الطريق أن يطوي الورقة، ويلون الجزء الذي تراءى له من عمله. فهو إمّا أن يأخذ رسومه في رحلة، أو يترك أعماله في مكان إقامته لكي يباشر إكمالها عندما يعود.

لقد أنجز هندرتفاسر أعمالا بنفسه، يستخدم الألوان المائيّة أحيانا، والزيت مع البيض الحار وبالطلاء المشرق بأرضيّة معتادة. إنه يستخدم عددا من أنواع الألوان ويضع كلا منها إلى جانب الآخر ويخلق بهذا تضادّا ليس فقط باللون وإنما بالنسيج العام أيضا. هو يصنع هيكل وإطار أعماله ولهذا فهو يشدّ باستمرار الكانفس.

إنه يجرّب مختلف التقنيات ويبتكر إحداها أحيانا. يرسم على مختلف أنواع الورق ويُفضّل ورق الأغلفة والتي يثبتها على مختلف المساند كالخشب وألواح الفايبر أو على منسوجات القنّب أو القماش. ويرسم على ما يجده أمامه كألواح الخشب المضغوط ويركّبها مع بعضها كما فعل مع لوحة مفاتيح ومواد خشبيّة أخرى.

وليس نادرا أن يدوّن على وجه اللوحة أو ظهرها معلومات عن متى وأين اتم عملها. وغالبا ما تكون المعلومات الفنيّة عن العمل وتاريخه موضوعة في الخلف.

أعماله الفنيّة

الحلزون كرمز للحياة والموت

الحلزون يقع في تلك النقطة الجامعة حيث المادة الجامدة تتحول إلى حياة. إنني مقتنع أن فعل الخلق يبدأ على شكل حلزون. كل حياتنا تحصل على شكل حلزون. أرضنا تصف مسارا حلزونيا. نعم. نتحرّك بشكل دائري ولكننا لا نعود أبدا إلى النقطة نفسها. فالدائرة ليست مغلقة ونحن نمرّ إلى ما يقرب من جوار موقعنا مرّات عدة وهذه هي خواص الحلزون، حيث يرسم دائرة ولكنها ليست مغلقة.

الحلزون الحقيقي ليس هندسيا بل نباتي، له إنتفاخ ويُصبح أرقّ او أكثر سمكا وينتشر عبر العقبات التي تعترضه.
الحلزون يُعبّر عن الحياة والموت وبالإتجاهين.
مبتدئا من المركز والنقطة المتناهية في الصّغر التي تمثّل الولادة والنمو، ولكن عندما تتوسّع وتتوسّع فإن الحلزون يذوب ويتلاشى في الفضاء اللانهائي ويموت كالموجة التي تختفي في المياه الساكنة.
وبخلاف ذلك فإن تكثّف الحلزون من الفضاء الخارجي يبدا من اللانهائيّة الكبرى ليبدأ بأن يكون أكثر فأكثر قدرةً كلما تكثّف بشكل أقرب إلى المركز.
ليتركّز في النهاية في المركز المتناهي في الصغر والذي لا يمكن أن يُحاط به لأنه فوق مدركاتنا وخارجها والذي نسمّيه بالموت.
الحلزون يولد ويموت كالنبات، وخطوط الحلزون كالتواءات النهر، يتبع قوانين النمو في النبات ويتّخذ شكله ويسير معه وبهذه الطريقة فإن الحلزون لا يُخطئ.

التخطيط (الكرافيك):
لقد أتم وأنجز (هندرتفاسر) عددا من التقنيات، ومن بينها الطباعي والعرض على الحرير والنقش والحفر على الخشب وغيرها الكثير.
لقد كان واحدا من الذين استهدفوا ومارسوا الشفافيّة التامّة بدلالة التقنيّة وتاريخ العمل ورقم الطبعة.
هندرتفاسر لم يعمل في الواقع عددا كبيرا من الطبعات للعمل الواحد، وطبعاته تتكون من عدد من الألوان والطبعات المتعدّدة، وهي ليست مرقّمة كلا على حدة بل مرقّمة بأجمعها في محصّلة عمل واحد.
كانت غايته أن ينجز أعمالا كثيرة متفرّدة يتفوّق فيها على إنتاج وعمل الماكنة.

إن هندرتفاسر يُعطي أهميّة عظيمة لتهيئة المعلومات الدقيقة حول العمل على اللوحة الكرافيكية
ليصل إلى خبايا التقنيّة الفنيّة ووقت الإبداع كلما كان ذلك ممكنا.
ونجد على أعماله الكرافيكيّة:
- توقيع هندرتفاسر مخطوطا بطريقة الأختام اليابانيّة.
- مكان وزمان التوقيع.
- رقم العمل.
- في أحوال كثيرة نجد إسما للعمل.
- رقم العيّنة أو النموذج.
- قوائم تبين أختام الناشرين والقائمين بالطبع ومنتجي الأوراق والألوان والمنسقين معهم.
- علامات متفرقة عن الألوان.
- بعض الأعمال تعرض أختاما لألوان متنوعة وحجم الطبعات.
- في بعض الأعمال المحفورة على الحجر تجد أختاما وتواقيع إضافيّة تبين رقم العدد والإسم وفي بعض الأحيان مكان وتاريخ العمل.
- في عدد من أعمال الحفر على الخشب بالطريقة اليابانيّة نجد أنه يستعمل الحروف اليابانيّة.
- وأحيانا نجده يدوّن طريقة العمل وكل ما يختص بإنتاجها.
- يوثّق (هندرتفاسر) عمل الفنيين والطباعين بنقاط على هامش العمل الكرافيكي، ويوضّح ما تم نقله عن العمل الأصلي بنقاط أو إشارات مربعة يوضّح ما تم تطويره أو إظهاره في العمل.

أعمال البسط والأنسجة :
المنسوجات وأعمال حياكة البسط اليدويّة
أول أعمال (هندرتفاسر) كان الطفل الذي

يتبوّل مع ناطحة سحاب، والذي تمت حياكته عام 1952 لأنه قال أنه يستطيع أن يُحيك نسيجا بدون آلة وإنما بواسطة عمل يدوي وبدون نموذج يُحدّد حجم المنسوج، وقد أصبحت جميع منسوجات هندرتفاسر يتم عملها يدويا وبدون (جومة) ولا قوالب أو أحجام مسبقة التحديد. وعندما ينفّذ أعماله في ما بعد فإنه يحرص على تنفيذها يدويا وبدون جومة أو قوالب ويترجم أعماله الفنيّة بدون نموذج مسبّق.

ونظرته لهذا الأسلوب هي أن يجعل نسيم الحياة يدبّ في العمل لا أن يتم نقل النموذج ميكانيكيّا وبلا روح ولهذا فإن أعماله فريدة ولا توجد نسخ منها أخرى.

وهذا لا يشمل الأعمال التي يقتنيها البعض ليعملوا هم نسخا عنها أخرى بالحياكة اليدويّة. وكل من حاولوا ذلك لم ينجحوا لأن أعمالهم في تزييف أعماله لم تأتِ بنفس أسلوبه ولا تُشابه طريقته في العمل ولهذا إضطرّ كثيرون إلى إتلاف ما زيّفوا.

في عام 1998 أعطى صديقه الأفغاني ضياء الدين نماذج من أعماله لكي يقوم أحد معامل النسيج اليدوي في أفغانستان بالعمل على غرارها وبالذات عمله المسمى بالسفن تونس وتاورمينا بهدف مساعدة مواطني أفغانستان الفقراء وقد اعجبه هذا الأمر بإهدائه نماذج أخرى لكي يتم إنتاج المزيد منها. وعندما عاد من نيوزيلندا إلى أوربا على الباخرة الملكة إليزابيث في الثاني من شباط سنة 2000، حمل معه إحدى تلك البسط والمنسوجات وفرشها على أرضيّة قمرته.

أعماله في الفنون التطبيقيّة

الفن بالنسبة لهندرتفاسر غير محدد أو مؤطّر بأيّة أُطُر، وعمل الفنان يجب أن يتأثّر بجميع مفاصل الحياة، ممكن أن يكون قماش ملابس أو أي فقرة من أعمالنا اليوميّة لهذا أبدع العديد من الأعمال ضمن عمليته في التنقيب عن الجمال وتنوّعه على عرض حياتنا وطولها مع بقاء إهتمامه وحرصه على البيئة والطبيعة.

وقد أعاد (هندرتفاسر) عمله هذا بتفاصيل مبهرة وفق ما توفّر له من تقنيّة ووفق محيطه. فلقد طبّق ووسّع إمكاناته التقنيّة بشكل فنّي كما إبتكر ما هو أكثر وجرّب بواسطة مبتكراته وطوّرها واستخدمها في فنّه.

وفي فلسفته فإن (هندرتفاسر) يرى أن الجمال هو البلسم. فهو يريد أن يحافظ على الجمال والإنبهار بمكانتهما في كل الحياة اليومية.

في زمن أقل ما يُقال عنه أنه خالٍ من الأخلاق وعالم معدّ بلا روح، فهو يُناور ليُعين الرغبات الإنسانيّة الدفينة في الحصول على التنوع والجمال بانسجام مع الطبيعة التي

يبدو أنه منها.
ولـهندرتفـاسر العـديد مـن الأعمال الفـنيّة في السيـراميك والـبورسلان وفي تـصميم أغـلفة الكتـب وفي عـمل رسـومـــات ذات بعـديـن ومجسمات بـأبعاد ثـلاثة وكثير من الـنماذج الفنيّة التي تنطوي على جوهر من الإبتكار.

في البيئة

البيئة هي محك اعمال هندرتفاسر الحساسة، وهي سايتوبلازمه الحساس، فهندرتفاسر من الخضـر بطبيعـة الحـال كمـا هـو مصـوّرٌ أو نمسـاويٌّ أو عالميّ ومحب للسلام. كمـا بيّنت طفولته المبكّرة حسّاسيّته نحو مـا يُحيط به. فـالـطبيعـة هـي أسمـى حقـائقه ومـصـدر الإنسجـام الجـامع. وأن إهـتمـامه الهـائل باحترام الطبيعة سرعان ما حفّز لديه الرغبة في حمايتها ضد مهاجمة الإنسان والصناعة.

الفنـان والمعماري هندرتفـاسر يكتب عن نفسه

كتب الـراحل المعمـاري والفنـان النمسـاوي هندرتفـاسر عن نفسه في الموقع الألكتروني الخاص به يقول: ـ
ماذا يُريد الإنسان لكي يكون سعيداً
التقدّم هـو الإنحطـاط والتـراجع، والإنحـطاط يُصبح تقدّما
صوري ولـوحاتي هي، كما أظنّ مختلفـة كلّيّا لأنها صورُ نموّ خُضريّ ونباتي .
سـببٌ واحـدٌ يُفسّـرُ لـماذا لا يُـريـدُ النـاسُ التصوير النباتيّ والتصوير بالنموّ الخضري.
أو إتخـاذ الـسبيل إلـى الـنمـو الخـضـري والنباتي للحياة؟ ويرجعُ هـذا الى بسبب كونه سبيلا متـواضعـا وبـسيـطـا، إنّه سـبيلٌ لا يتضمّن بهاءً أو شُهرةً أو نجاحاً باهراً يُحدثُ دويّاً كـدويِّ الطبلِ؛ بـالعكس إنّهُ ينمـو بهدوء وببطء وببساطة، وهذا لا يدعونا إلى إستئناف نمط حياتنـا الإجتماعيّة، فالناس يُريدون نتائج تقوم على الإبـداع الفوري والآني كمـا لو كان قائما على المبضع وأداة الكيّ.
أنا أُحبّ أن أعـمله بتدشـين هدوء بعيد، لأقدّم أنموذجـا ومثالا لـلناس، أُصـوّرُ لهم فـردوسا يُمكـن أن يحـصل عليـه كلُّ فـردٍ، يُـريـد أن يتعانقَ معه ويضمّهُ إلى نفسه.
الفردوس هنا، ولكننا نحن الذين نحطّمه.
أُريـدُ أن أُبـيّنَ أنّهُ مـن البسـاطـة أسـاسـاً أن نحوزَ الفردوس، هنا على الأرض.
وأن كلّ شـيء تعـدُ بهِ الأفكـار المفـرطـة في التديّن أو العقائد الدوغماتيّة ومختلف العقائد السياسيّة إنما هي غيرُ ذات جدوى.
وهنـا وصلتُ إلـى المواجهـة مع المجتمع الذي أساء فهم ذلك تماما.
لقد اعتقدوا أن هذا إنمـا هو خـروجٌ وشذوذٌ، لمجرّد إثارة الـناس وجذب إنـتباههم وتـناسوا أن ذلك إنمـا هو جزءٌ مـن نفسي، وإنّهُ منهجي في التعبيرعن نفسي.
لماذا لا يفعل الكائـن البشري ما يُريد أن يفعل كمـا تفعل الـزهـرة زاهيـة الألـوان ووفيـرتهـا والمتعدّدة الأنواع حيث هي دائمـا أفضل من اللون الرمادي متوسّط درجات الهارموني؟
وحدهم الـذين يُفكّـرون ويعيـشون عـبر الخلق والتجـدّد، سوف يُحالفهم حـظّ البقاء على هذه الأرض وما بعد ذلك.
يجب أن يعـيش المـرء كمـا لـو كـان في حـربٍ وكلُّ شيء في قدَرٍ مقنّنٍ ونظام.
الإنسان يجب أن يكون حذراً .
يجب أن يُفكّر باستقلالٍ، وعليه أن يقتصد
لا يجب أن يُبدّدَ بلا وعيٍ أو بصيرة
عليـه أن يحذر أن التكرار ودورة الحياة تفعل فعلها .
دورة تنـاول الـطعـام حتّـى وظـائف الإخـراج تفعل فعلها

ولكن دورة الإخراج حتّى تناول الطعام ليست متّصلة .
السعادة لا علاقة لها بالثروة مطلقاً
ولا تعتمد على الإنتاج
هذا شيء يصعب التعبير عنهُ.
فنون التصوير والرسم بالنسبةِ لي هي بوابات، تمكّنني، لو كنت ناجحا لكي أفتحها على عالمٍ هو قريب وبعيدٌ عنّا مما ليس لدينا عليها إمكانيّة دخول حيث نجد أنفسنا ولكن بدون أن نعي أو نُدركَ أنّها بالضدّ من العالم الحقيقي .
عالمنا الموازي حيثُ نُزيل أنفسنا بالنسبةِ لأحدهما
نعم، وهذه هي الفردوس وهي التي نحن فيها، ومُحتبسون فيها حيثُ بعضِ القوى التي لا يُمكن وصفها تُنكرنا.
وهكذا نجحتُ في ترك النوافذ مفتوحة
كيف نجحتُ؟ هذا امرٌ من الصعب شرحه
دون أن أحسب حسابا لقوة ولا اية حسابات ولا للذكاء ولا الحدس بالضرورة ولكن بطريقة السائر في نومه.
إن عمل الفنان صعبٌ جدا لأنه لا يتم عبر القوّة، ولا الإجتهاد ولا الذكاء.
اظنّ أنه مع متانة القوّة والإجتهاد والذكاء يُمكن للمرء أن يفعل كلَّ شيء في الحياة إلاّ أن جائزة ومكافأة الفن لا تأتي أبدا عن هذا السبيل .
لهذا فإنه بفضل المنّة الإلهيّة يُمكن لرجلٍ صالح أن يجد نفسهُ فَجأةً متسلّقاً حاجزا لا يستطيع أن يتجاوزه.

إنه أمرٌ غريب، أليسَ كذلك؟ لو تبرّعَ وساهم المرء بكل ما لديه من إجتهادٍ وصلاحٍ ومثابرةٍ وذكاء، بكل ما لديه وبالرغم من ذلك فإنه قد لا يصل إلى أيّ مكان.
ما سبب ذلك؟
أنا أعتقد ومتأكّد تماما ولهذا أؤمن بأنَّ التصوير والرسم مهمّةٌ ووظيفةٌ مقدّسةٌ، حيثُ أنَّ النبضةَ الحقيقيّة تأتي من لا شيء
من شيء آخرَ خارجَ ما نعلم، طاقةٌ غيرُ معرّفةٍ تأتي أو لا تأتي وهي التي تقودُ يدك.
كان الناسُ في الماضي يقولون أنه التأمّل على سبيل المثال، إنّهُ ربما غير معقول أن نسمّيه او نقوله ولكنّه التنوير (الإشراق).
وكلّ ما على المرء أن يفعل هو تهيئة الأرضيّة لكي يُمكن لتلك الإرادة الخارجيّة أو النبضة الخارجيّة أو ليكن ما يكون أن يصل إليك.
هذا يعني أن على المرء أن يكون متهيّئاً
وهو يعني أن التنوير والإشراق يختزلان الذكاء ويختزلان (أريد أن أعمل ما هو أفضل) ويختزلان الطموح .
انا أودّ أن أُعرفَ أنني ساحرُ النمو الخضري والنباتي أو ما يُشبه هذا
نحنُ بحاجةٍ إلى السّحر
أنا أُصوّر اللوحةَ حتّى تمتلئ بالسّحرِ كما يملأ المرءُ قدحا من الماء
كل شيء بسيطٌ بلا نهايةٍ وهو جميلٌ بلا نهايةٍ أيضاً...

فينيسيا 1970
هندرتفاسر

* 15 كانون الأول 1928 – 19 شباط 2000

مهرجان الجواهري في دورته التاسعة

شعراء ونقاد عراقيون يحتفون بالشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري

إعداد قاسم العزاوي

تغنى أدباء العراق وهم يستعيدون الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري في دورته التاسعة وتحت شعار (سلاماً على باسقات النخيل.. وشم الجبال تشيع السنا) والتي حملت دورة الشاعر عبد اللطيف بندر اوغلو.. المولود عام 1937 في (طوزخورماتو) والمتوفى عام 2008، في عمان، وأصدر عشرين مجموعة شعرية ترجمت للعديد من اللغات.

افتتح المهرجـــــان يوم الخميس في 11/ 2012/10 على قاعة المسرح الوطني ولمدة ثلاثة أيام واستمرت فعالياته المتنوعة من قراءات شعرية ونقدية وعزف موسيقي. وقدّم جلسة الافتتاح الشاعران: إبراهيم الخياط وعبد السادة البصري. وافتتح المهرجان بالنشيد الوطني وعزف منفرد على آلة العود للفنان علي حسن، وبعدها كلمة وزارة الثقافة ألقاها د. فوزي الاتروشي، وكيل وزارة الثقافة، والتي أكد فيها المنجز الإبداعي للشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري ودوره في مقارعة الدكتاتورية، كما أكد ضرورة نقل رفات الشاعر ودفنها في الأرض التي أحبها وتغنى بها كثيرا... أعقبتها بعد ذلك كلمة الاتحاد العام للأدباء والكتاب ألقاها رئيس الاتحاد الناقد فاضل ثامر، طالب فيها بدعم الاتحاد والأدباء من خلال وضع ميزانيات ثابتة له، نأمل أن يمررها مجلس النواب "لان الحكومة لم تصرف فلسا واحدا في سبيل دعم الثقافة..."، ومما أشار إليه فاضل ثامر: "أن الثقافة حافلة بالأنشطة الثقافية، لذلك ندعو الجميع إلى احترام هذه الأنشطة والتفاعل معها"، وأضاف "أن هناك جيلا جديدا قادرا على أن يبني ويصنع المعجزات وهو الضمان لوحدة العراق والحفاظ على مجتمع مدني يعيش في ظل ديمقراطية حقيقية".

بعدها تغنى الشاعر عمر السراي بإحدى قصائد الجواهري، وتفاعل معها الجمهور الذي غصت به قاعة المسرح الوطني.

وتوالى الشعراء والشاعرات بقراءة قصائدهم وهم: محمد حسين آل ياسين، محمد على الخفاجي، رمزي جاووش، موفق محمد، نضال القاضي، آوات حسن آمين زهير بهنام بروي ومروان عادل. واختتمت جلسة الافتتاح بمقطوعات موسيقية قدمتها فرقة (وتريات صوفية).

وفي اليوم نفسه وفي الساعة الرابعة عصرا، على قاعة الجواهري بمبنى الاتحاد، عقدت جلسة نقدية أدارها الناقد علي الفواز وقرأ فيها كل من: الناقد ياسين النصير، الناقد د.علي متعب، الناقد د.احمد مهدي الزبيدي، الناقد د.خليل محمد إبراهيم، حسن السلمان، علي سعدون، وعلي شبيب.

واستمرت فعاليات المهرجان على حدائق الاتحاد، ففي الساعة السادسة مساءً تغنى الشعراء بقصائدهم في جلستهم المسائية التي قدمها الشاعر زاهر موسى، وقرأ فيها كل من الشعراء والشاعرات: أجود مجبل، كريم جخيور، صباح الحلبوسي، اوس الفتيحات، ريسان الخزعلي، فاضل عزيز فرمان، نوفل الحمداني، خالد صبر سالم، امير الحلاج، غرام الربيعي، عدنان الفضلي، ياسر العطية، ستار احمد، روازر احمد، مهند يحيى.

وفي اليوم الثاني صباحا، وفي قاعة المركز الثقافي البغدادي بشارع المتنبي، عقدت جلسة شعرية صباحية قدمها الشاعر مروان عادل حمزة وشارك فيها كل من الشعراء: ناهض الخياط، نامق عبد ذيب، عمار المسعودي، محمد جلال الصائغ، نادية الكاتب، حيدر عبد الخضر، عمر الدليمي، خالد البهرزي، نذير المظفر، حسام البطاط، جبار سهم السوداني، سعد جرجيس، انمار رحمة اللّه، وجاسم فضل.

واستمرت فعاليات المهرجان، ففي اليوم الثاني نفسه وعند الساعة الرابعة عصرا، عرض على قاعة الجواهري بمبنى الاتحاد فيلم (جمعية الشعراء الموتى). وفي الوقت ذاته وعلى حدائق الاتحاد عقدت جلسة نقدية ثانية تناولت (جدل الأشكال الشعرية).. قدّم الجلسة الناقد الدكتور خليل شكري هياس، وشارك فيها الناقد الدكتور رحمن غركان والدكتور محمد أبو خضير والدكتور حذام بدر والدكتور جاسم محمد جسام ومحمد علي النصراوي وعباس خلف...

وبعدها في السادسة مساء عقدت جلسة شعرية، قدمها الشاعر عبد السادة البصري وقرأ فيها كل من الشعراء والشاعرات: رسمية محيبس زاير، آمنة عبد العزيز، حياة الشمري، رعد فاضل، جمال جاسم أمين، حميد حسن جعفر، علي الاسكندري، قاسم الشمري، نجاح العرسان، ثامر سعيد، محمد زايد إبراهيم عبد المنعم الأمير، أثمار مردان، عادل الياسري وصلاح جلال.

وتميز هذا المهرجان بقراءات شعرية على زورق ينساب بهدوء على صفحات دجلة الخير... ترنم الشاعر كاظم الحجاج بنص تحت عنوان: أنا طائر التم...

البيان الختامي للمهرجان

اختتم المهرجان بقراءة البيان الختامي، وفي أدناه نصه:

كانت بغداد والشعر والحلم على موعد صبيحة الحادي عشر من تشرين الأول 2012 تحت الخيمة الوارفة لمهرجان (الجواهري) التاسع الذي التأم بحضور المئات من الشعراء والأدباء والمثقفين وعشاق الكلمة المسؤولة الذين توافدوا زرافات ووحدانا ليؤكدوا للعالم أن الثقافة العراقية كانت وما زالت وستظل أمينة على مسيرة الحياة والأمل والإبداع وأنها الفصيل

الأجمل والأروع في مسيرة العراق نحو شواطئ الديمقراطية ودولة المؤسسات الدستورية الراسخة بعد أن اجتاز وطننا سنوات النار والعنف والاحتراب الطائفي والاحتلال والأنظمة الشمولية والتسلطية.

وليقف اليوم وبثقة أكبر على مشارف مرحلة جديدة من تأسيس عراق ديمقراطي بعيدا عن فخاخ التعصب والتطرف والطائفية والشوفينية والتدخل الأجنبي.

وليغذ السير في طريق التنمية المستدامة واحترام مقومات الحرية الفكرية والثقافية ومبادئ حقوق الإنسان..

ويؤكد المشاركون في الدورة التاسعة لمهرجان (الجواهري) - دورة الشاعر عبد اللطيف بندر أوغلو - إرادتهم التي لا تقهر، والتي هي جزء من إرادة شعبهم، للسير قدما في طريق تجذير الديمقراطية، ممارسةً وآليات ومؤسسات، والتي بوأت الثقافة العراقية ولم تزل مكانة رفيعة في مسيرتها.

وهم يؤكدون بالقول والعمل انه لا رجعة عن الديمقراطية خيارا إلى أيّ من الأنظمة الدكتاتورية والتسلطية والفردية والأوتوقراطية تحت أية لافتة كانت أو أيّ مسمى كان، لان هذه هي الإرادة الحقيقية لشعبنا العراقي..

وهم يهيبون بجميع قوى شعبنا السياسية، داخل السلطة وخارجها، لتوحيد صفوفها، ونبذ الخلافات الثانوية والفئوية، والعمل بإخلاص من أجل بناء ما خربته الحروب والمحن والأجندات الداخلية والخارجية..

فالشعب العراقي ينتظر بفراغ صبر إرادة حقيقية من لدن جميع أبناء شعبنا ليفوتوا الفرصة أمام المتصيدين بالماء العكر للعودة ببلادنا الى المربع الصفر، والعودة عن مسار العملية السياسية التي تحتاج الى التقويم والتصويب من أجل إعادة ترتيب البيت العراقي..

كما يؤكد أدباء العراق وكتابه ومثقفوه أنهم لن يتهاونوا مع من يكنّ للثقافة العراقية وللحقوق المدنية للإنسان العراقي..

وأنهم يطالبون بفتح ملف الثقافة العراقية الذي ظل مغلقا بالختم الأسود من قبل أغلب المسؤولين في الدولة العراقية الذين ينظرون إلى الثقافة بمنظار الريبة والتربص والتأثيم والتكفير أحيانا، انطلاقا من مسلمات ومفهومات عفا عليها الزمن..

فالثقافة العراقية هي صنو للتقدم والديمقراطية والإبداع وهي من خلال تنوعها اللغوي تناضل من أجل تعزيز لحمة مكونات شعبنا على أسس متينة جديدة قابلة للحياة في المرحلة الجديدة..

ولذا فهم يطالبون بتقديم دعم حقيقي للإبداع العراقي بكل تنوعاته وإصدار سلسلة من التشريعات القانونية التي تحمي حرية الإبداع والمبدعين، وفي مقدمتها تأسيس المجلس الأعلى للثقافة، وإطلاق جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية، ووضع تشريعات لتكريم العلماء والرواد والمبدعين، وتوفير الحصانة الأدبية لهم لحمايتهم من هجمات بعض الأجهزة الأمنية التي تنتهك قدسية عملهم لأسباب مسيّسة ومؤدلجة غير مبررة ولا تتماشى مع روح العصر والحداثة..

ويعبر المشاركون في هذه المهرجان عن عزمهم على أن يظلوا العين الرائية لشعبهم وسينيرون الدروب إذا ما أظلمت وسيقولون قولة الحق ليكونوا دائما أمل شعبنا ورأسماله الرمزي الخلاق..

ومعاً من أجل ربيع دائم للثقافة العراقية...

بغداد في 13 تشرين الأول 2012

مطبوعات وصلتنا..

● د. غازي موسى الخطيب، ثورة الخلاص، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2012.
● فؤاد قاسم الأمير الجديد في القضية النفطية العراقية، دار الغد، بغداد 2012.
● د. عباس الفياض، الخصخصة وتأثيرها على الاقتصاد العراقي، دمشق 2012.
● الرائد علي محمد الشبيبي (1913 – 1997) ذكريات التنوير والمكابدة. تحقيق ومراجعة محمد علي الشبيبي، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2012.
● عبد اللطيف السعدي، في ذاكرة نصير – نصوص من سيرة أنصارية، مطبعة إيلاف بغداد 2012.
● مجلة الأقلام، العدد الأول – السنة السابعة والأربعون، كانون الثاني/شباط/آذار/ 2012.
● (الحوار) – العدد الثاني والثلاثون – تموز 2012. (الحوار) – مجلة تصدر عن معهد التقدم للسياسات الانمائية.
● رواية " مخيم المواركة " تأليف جابر خليفة جابر .
● " طريدون" كتاب قصصي تأليف جابر خليفة جابر
● حسن علوان ياسين، الثورة الروسية وأثرها على المشرق العربي والاسلامي، دار الجواهري، بغداد 2012.